رواية

سأجدك مدينة أخرى

أحمد إبراهيم الفقيه

رواية

سأهبك مدينة أخرى

أحمد إبراهيم الفقيه

سأهبك مدينة أخرى

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبين الزمن الهارب والزمن الذى يــرفض المجـــىء، زمن ثالث، مفازة من الرمال الحمراء، تحرقها شمس تقــف دون حراك، وسط سماء لها لون الرصاص. أتمدد نائماً فـــى سريرى، وأنا أسير عبر الأرض المحروقة تائهاً عن الظــل والماء. ينبثق فوق رأسى طائر يخفق بجناحيـــه الأســـودين. أركض لاهثاً كى أحتمى بظله، ولكن الطائر يبسط جناحيـــه دون حراك ويحوم دائراً فى ذات المكان. أدور مع دورتـــه، ألاحق ظله الهارب. يواصل الطائر حركته الدائريـــة حـــول عين الشمس. أتقلب فى سريرى، وأدور مـــع دورة الظـــل، راكضاً، لاهثاً، ظامئاً، مسفوعاً بهواء ساخن كأنفاس الجحيم. أحس الإنهاك والدوار. ينضب من جسمى الهـــواء. أتـــرنح، أتهالك، يأكل الطائر قرص الشمس ويطـــوى الأرض تحـــت جناحيه. وأسقط أنا فوق رمال الصحراء ميتاً.

توقظنى من موتى طرقات على باب البيت. أجلس فى سريرى وأنا أرشح عرقاً، ورأسى مازال مليئاً بالدوار. أمـــد يدى فى الظلام أبحث عن كوب ماء وضـــعته قبـــل النـــوم،

بجوار رأسى. أبلل جفاف حلقى، وأمشى دائخاً أفتح البـــاب، فلا أجد خلف الباب أحداً.

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبينهما متاهة لن تنتهى ألا عندما أهتدى إلى نبع الماء المدفون تحت الرمال. يأتى الصباح فأنسى النوم والكوابيس، والأرض المفروشة بالجمر، والمسقوفة بالرصاص. أمضـــى فى شوارع المدينة، أخترق تعليمات المرور وأجتاز الطريق أثناء الإشارة الحمراء. أسير بين الناس كمن يسبح فى حوض من الماء.

- كأنك لا تعيش معنا.

عبارة يقولونها، فتنزلق على ســطح الــذاكرة دون أن تترك أثراً. لم أعد أهتم بما يقولونه أو يفعلونه. أراهــم فـــلا أرى إلا جزءاً من الفراغ الذى يغلف الكون، وأسمع كلامهم فلا أسمع إلا ضجيجاً لا أفهمه ولا اتواصل معه. اننى فعلا لا اعيش معهم. بل اصبحت اكره أن أعيش معهــم، وأرى أن حياتى مجرد انتظار لزمن يرفض المجــىء، فــأهرب إلـــى الزمن الذى مضى أبحث فيه عن فسحة شهيق وزفيــر. لــم أهجر عملى بالجامعة ولكننى صرت أغيب كثيراً ولا أعتنى

بتحضير الدروس، موقناً بأنه عمل زائد عن الحاجة، لا نفــع منه ولا ضرورة له. وما هذه اللغة الأجنبيــة التــى أتــولى تدريسها إلا لغة إضافية، لا جدوى منها ولا حاجة لأحد بها.

– كأنك لا تعيش معنا.

تمَّ كل شيء بحسب ما كنت أبتغى. فــزت بالشــهادة العالية التى تنتهى عندها أحلام الدارسين، لأبدأ العمل مدرساً بالجامعة. قررت أن أنسى ومنذ اللحظات الأولى كل شــىء عن السنين التى عشتها موفداً للدراسة بأقصى مدن الشــمال. أبدلت ريشى كما تفعل الطيور بعد انتهاء الربيع. نزعت عن نفسى وفور وصولى ذلك الجلد القديم الذى لم يكن جلداً وإنما معطفاً يلائم طقس تلك البلاد وانتفت الحاجة إليــه بعــد أن اختلف المناخ وتبدلت مشــاهد الطبيعــة وســطعت شــمس الصحراء بعنفها وقسوتها. أردت أن أكون وفياً للتقاليد التــى تحكم الكون وتمنعه من التصدع والانهيار، فسعيت منذ البداية إلى الدخول راضياً فى القوالب الجاهزة التى أعدها المجتمع لأبنائه الصالحين. متماشياً مع شروط البيئة ومجدداً انتســابى إلى الفرقة الناجية. أكملت نصف دينى بــالزواج، وســعيت

لإتمام نصفه الآخر بالمداومة على الصلاة، وعدت فرداً من أفراد القبيلة، يسلم نفسه دون تحفظ لطقوسها وشرائعها.

- كأنك لا تعيش معنا.

وجدتهم يحتفظون لى بقطعة أرض هى حصتى من إرث الأب الميت. قايضت الأرض بشقة بالطابق الرابع، قريبة من الجامعة ولها مطبخ واسع به شرفة تطل على البحر. جئت للشقة بالزوجة التى أسعدها اتساع المطبخ وشرفته التى لا نرى البحر إلا منها، وتأكدت فى الوسط الجامعى مكانة الدكتور خليل الامام، الذى يعرف أسرار اللغة الإنجليزية بمثل ما يعرف كيف يحقق انسجاما وتوازناً مع البيئة التى ينتمى إليها. ثم بدأ كل شيء يتقوض وينهار عندما صرت أسمع طرقاً على باب البيت أثناء الليل، وأقوم مفزوعاً من نومى، أسأل من وراء الباب؟ فلا أسمع رداً، وأفتحه فلا أجد أحداً.

- كأنك..

إننى لا أعيش معهم، ولا أعيش مع أى أحد آخر. حتى زوجتى صار وجودها بجوارى على السرير كل ليلة، عبئاً لا أقوى على احتماله. إنها لا تسمع طرقاً على الباب ولا تعتقد

بجود الطارقين. يهرب منى النوم، وأكره أن أعود إلى متاهة الحلم، فأترك السرير وأذهب إلى المطبخ، حيث أقــف فــى شرفته المطلة من بعيد على البحر، ألتقط أنفاسى وأســمعت هدير الموج. يشرد ذهنى لحظة ويعــود، فأجــد أن لحظــة الذكرى اتسعت لتستوعب جزءاً من العمر بكل ما حفل بــه من أحداث وصور ووجوه.

– إنه يكتب رسالته عن الليالى العربية.

تسطع فى قلب الظلام أضواء مدينة بعيدة. وأستعيد مع تراتيل الموج ذكرى تلك الأيام التى حاولت أن أمحوها مــن تاريخى. فإذا بها تطفو على سطح الذاكرة، حلقة من حلقــات زمن بهيج تقوض وانتهى. أملأ صدرى من هواء البحر وأنا أحس بشىء من الارتياح لأننى منحت ذاكرتى مدينة أخــرى تهرب إليها، من قسوة المدن التى تطاردها رياح الصحراء.

– إنه يكتب رسالته عن الليالى العربية.

يدخلنى هذا التقديم دائرة الاهتمام والفضول، ويحيطنى بشىء من وهج الأسطورة العربية وسحرها. وأسمع ســؤالاً عن الجانب الذى اخترت دراسته، فأجيب بصوت يلونه الأداء المسرحي:

- عن العنف والجنس.

لم يكن العنف والجنس إلا موضوع دراسة مقارنة أكتبها عن أثر الأسطورة العربية فى أدب اللغة الإنجليزية، ولكننى أرى الاندهاش يغمر وجهاً أنثوياً مضيئاً، فأترك النقاش الثقيل عن الأدب المقارن، وأمضى وراء الإثارة التى يصنعها حديث العنف والجنس. إنه موضوع يليق بعصرنا كما يليق بكتاب الليالى، أقول لها، فالليالى ليست فقط سفائن سندباد، وكنوز على بابا، وفضول حلاق بغداد، ومصباح علاء الدين الذى يسكنه ملوك الجان. ليست فقط بساطاً سحرياً نسافر فوقه إلى جزائر الحلم. إنها العنف والجنس، والعشق والموت، والتعامل مع تلك المناطق البعيدة، العميقة، الغامضة، فى النفس البشرية. ويأتى السؤال بريئاً ممن لا تعرف من الليالى العربية إلا ما تنقله الرسوم المتحركة وكتب الأطفال:

- يبدو غريباً هذا الحديث عن العنف والجنس فى ألف ليلة وليلة.

فأقدم لها الجانب المسكوت عنه، الذى لا تقوله حصة الأطفال فى التلفاز ولا تعترف به مقررات المنهج المدرسى.

الملك الذى يعبث كل ليلة بصبية من صبايا مدينته، يقطـف بكارتها ثم يقطع رأسها. وأنقل لها تفاصيل المشهد الافتتاحى للكتاب، عندما نلتقى بأولى ولائم الجنس والدم. أجساد عارية تتعانق وسط أحواض الماء، والملك الذى يدخل إلى المشـهد شاهراً سيفه، معلناً نهاية الحب وبداية الموت. عنف وجنس، وجنس وعنف، وحديث يتكسر به جليد اللقـاءات الأولـى، ليسهل بعد ذلك العبور إلى مخادع النساء المنبهرات بشـرق الخرافات.

– وما الذى توصلت إليه حتى الآن ؟.

– ما زلت فى بداية البحث، ولكننى أقول لكم إن مـا تسمونه تحرر العلاقات الجنسية، وتظنونه اكتشافاً حديثاً مـن اكتشافات بلادكم، كانت مجتمعاتنا الشرقية قد اهتدت إليه منذ مطلع القرون الوسطى.

كنت أعرف أن القرون الوسطى ما تزال تمارس قمعها الجنسى فى تلك المجتمعات الشرقية التى جئت هارباً منهـا، ولكن الحديث عن الكبت والانغلاق لا يخدم قضية التواصـل والحوار مع النساء اللاتى يطرحن هذا السؤال.

ومستعيناً بشهرزاد وذاكرتها السحرية، بلصوص بغداد وشطارها، بدراويشها وعشاقها وتجارها وقهرماناتها، بالأميرات الباحثات عن الحب، والمغامرين الحالمين بالمجد، بالجوارى القابعات خلف الخدور، يملأن الأرض شجناً ودموعاً، أو رقصاً وغناءً، بالأمراء الذين يرتدون ملابسهم التتكرية، والصعاليك الذين يتنكرون فى ملابس الأمراء، مستعيناً بالطلاسم والتمائم والأدعية والخواتم السحرية، بالجنيات القادرات على طمس الطبيعة البشرية، والمردة الطالعين من قماقم الملك سليمان، ذهبت أبحث عن زمن أكثر بهجة من زمنى القديم، مرتدياً ملابسى التنكرية، متخذاً مظهر رجل شرقى، خرج لتوه من كتاب الأسطورة.

- ما هذا الذى تفعله أيها البدوى؟

لم يزعجنى السؤال، بقدر ما أزعجنى أن ليندا تقوله وهى تتحاشى النظر إلى. ظلت تقود السيارة وتضع عينيها على الطريق. أدركت بشكل غامض ما ترمى إليه. ولعلها ما عرضت أن توصلنى فى طريقها إلا لتقول لى هذا الكلام. فلقد رأتنى منذ ليلتين أعود متأخراً إلى البيت، ومعى امرأة تضع أصباغاً كثيرة على وجهها، ولا بد أنها حسبتها إحدى

النساء المحترفات. أعرف أن ليندا لا تحب أن يحدث ذلك فى بيتها ولا أظنها ترتاح كثيراً لهؤلاء الطالبات اللاتى يزرننى. كان السؤال ناقصاً فبقيت صامتاً انتظر بقيته.

- ألم تستطع الاهتداء إلى صديقة ثابتة؟

لعلها تريدنى أن أترك بيتها وأبحث عن سكن جديـــد. ولكن لهجتها كانت هادئة، لينة، تحمل معانى الاشفاق بـــأكثر مما تحمل معانى الغضب والاستنكار. كان الطريـــق يمـــر بمحاذاة البحيرة التى تلثم تلة خضراء، وكانت شمس الصباح تسقط على الماء وتنعكس على اســـفلت الطريـــق وزجـــاج السيارات المارقة فترسل شرارات لامعة تلسع القلب وتـــوقظ أحلامه النائمة. لم أستطع أن أعترف بفشلى فى تحقيق هـــذا الشرط الأساسى من شروط الاستقرار والأمان النفسى، ولـــم أقل لها إن هذه العلاقات الســـريعة لا ترضـــينى ولا تحقـــق شوقى للالتقاء بالمرأة التى تروى عطش القلب وتمنح ملامح واضحة لامرأة الحلم التى لا ملامح لها. تظاهرت بـــأننى لا أسعى للحصول على هذه الصديقة. وقلت ساخراً إن صـــديقة واحدة لا تستطيع أن تملأ فراغ هذه الصحراء التى تمتد بـــلا حدود تحت أضلعى.

- ولكنك تحاول التعويض بشكل مرضى.

أراحنى قليلا أن الاستنكار الذى ظهر فى كلماتها لـم يكن مصحوباً بتعبير مماثل على ملامحها، فقد ظـل يغمـر وجهها فيض ابتسامة غامضة. جمال هادئ دون إثارة، ووجه خلا من التزويق ومستحضرات التجميل، وعينان عسـليتان، يوحى اتساعهما وغزارة أهدابهما بالالفة والأمان، ويمنحـان وجهها طابعاً شرقياً لولا شقرة الشعر وتورد البشرة وشـدة نقائها. كانت قلعة أدنبرة التى تتربع فوق هضبة عالية، تملأ الأفق وتهيمن على فضاء المدينة، وقد بدت فى هذا النهـار الربيعى أكثر جمالاً وأقل تجهماً وكآبة مما هى عليـه أيـام العتمة والسحب السوداء.

- لا تكن مكتئباً هكذا.

لم يكن لاكتئابى علاقة بكلمات العتاب التى قالتها. إنها الكآبة التى يثيرها فى نفسى جمال امرأة بعيدة المنال.

- هل سيجعلونك تنطق فى المـرة القادمـة، أم أنـك ستظل دائماً تحمل الرمح؟

كان سؤالها تعليقاً على دور شاهدتنى أقوم به مع فرقة المسرح الجامعى، فى مسرحية عن اجاممنون. حارس يحمل

رمحاً ولا ينطق بكلمة واحدة. مما أورثنى لقب »حامل الرمح« بين أصدقاء حانة العناقيد. اوضحت لها بأننى لم أشترك فى هذه الفرقة بحثاً عن الأدوار الناطقة وإنما سعياً لإغناء حصيلتى اللغوية.

- سوف لن تضيف شيئاً إلى حصيلتك اللغوية بهذه الأدوار الصامتة.

تركتنى قريباً من المسرح وواصلت طريقها إلى مركز المدينة.

- لن أبقى صامتاً على الدوام. وسأتكلم. لا بد أن أتكلم يا ليندا.

شئ فى هذه المرأة يفتننى، ولكن متى أجد القدرة على الكلام؟ كنت قد انتقلت قبل أربعة أسابيع للإقامة فى هذا البيت الذى تقيم به ليندا وزوجها. أعيانى التنقل بين الفنادق الرخيصة ذات الرطوبة العالية التى تحيط بالجامعة وتعيش على ايواء الطلاب، فأسعدنى أن أجد زوجها يبحث عن مؤجر يستعين به على تسديد أقساط البيت الذى اشتراه حديثاً ولم يكمل تأثيثه بعد. أعجبتنى الغرفة التى تستقل بحمامها ومطبخها فى الطابق العلوى فاشتريت لها الضرورى من

الأثاث، ووضعت وسائد فوق البساط، مستغنياً بها عن الصالون.

رجعت مع المساء إلى البيت لأجد ليندا ترتدى قفطاناً منزلياً تشاهد بمفردها حلقات. »هنرى الثامن« التى يعرضها التلفاز.

– ها هى إحدى شخصياتك المفضلة. ستجد هنا عنفاً وجنساً أكثر مما تحتويه لياليك العربية.

أعددت شاياً عربياً وأحضرت لها كأساً معى. جلست أشاهد شهريار الإنجليز فى نوباته العصبية وهو يرسل بزوجته الفرنسية إلى المقصلة. لم يكن هذا الرجل شخصية خيالية كما شهريار الليالى. إن ما يفعله حقائق تاريخية تثير فى النفس خوفاً لا تثيره الشخصيات الأسطورية مهما تجاوزت الحد فى مجونها ومباذلها. انتهت التمثيلية فصعدت إلى غرفتى، أرتدى منامتى، وأتكئ فوق الوسائد أطالع ألف ليلة وليلة، وأضع خطوطاً تحت المشاهد التى تهم دراستى. أنسى التاريخ وأدخل فى الأسطورة. جاءت ليندا تطرق باب الغرفة. انتبهت وأنا أتأمل مسحة الكدر التى غطت ملامحها أن هناك شبهاً بينها وبين الممثلة التى قامت بدور آن بولين

فى التمثيلية. لا بد أن المصير الفاجع الذى لاقته تلك الفتـــاة الفرنسية هو الذى أفزع ليندا وزرع فى عينيها هذا القلق.

– إننى قلقة من أجل دونالد. تأخر كثيراً هذه الليلة.

ها هو غيابه يأتى متوافقاً مع مشـــاهد الرعـــب التـــى أذاعها التلفاز، فكيف ستواجه ليندا وحشة هذا الليل بمفردها؟ دعوتها إلى الجلوس فوق وسائدى وأســـرعت أقفـــل كتـــاب الأسطورة وأطفئ مصباح القراءة، وأنزع الغطاء عن زجاجة النبيذ.

– ما زال الليل فى شبابه الأول، فلماذا كل هذا القلق؟

– إنه لا يتأخر أثناء الليل، إلا إذا أخبرنـــى. وعنـــدما فعل شيئاً كهذا منذ عام مضى، كان السبب أنه لم يكن لـــدينا هاتف بعد.

أحضرت من المطبخ أطباق الجبن والزيتون واللـــوز والفستق، وضربت كأسى بكأسها قائلاً:

– لنشرب نخب الأزواج الـــذين لا يتـــأخرون عـــن زوجاتهم إلا مرة كل عام.

ليندا ودونالد، مثال لصفاء العلاقات الزوجية وثباتهـــا، وسط بيئة تزهو بتناقضاتها، وحرية العلاقات فيها، وتمـــرد

أهلها على سلطة المؤسسات بما فى ذلك مؤسسة الزواج. وفى حين كان دونالد، بطبيعته المنطوية نوعاً ما، يضيق بالتعامل مع واجبات الحياة اليومية، ويقضى وقته فى اقتناء الكتب ومطالعة الأفكار البوذية والاستغراق فى الأحلام وتفسيرها، كانت ليندا تتحمل وحدها عبء تصريف حياتهما اليومية. تركت عملها بالمكتبة وتفرغت لقضاء حوائجه وحوائج البيت. تتولى قيادة السيارة والاعتناء باصلاحها، التعامل مع المصرف وجمعية الإسكان. تشترى له ملابسه، تعتنى بهندامه، تتولى بنفسها قص شعره عندما يحتاج إلى قص. وتتركه ليمارس هواية اقتناء الكتب التى يعشق طبعاتها القديمة، ويشترك فى جمعيات تهتم بها ويسعى للحصول عليها حتى عندما تكون بلغة لا يعرفها. صار وجوده فى البيت امتداداً لعمله بمكتبة الجامعة. ملأ ردهة البيت وأركانه بالرفوف، وما أن يعود حتى يأخذ سلماً صغيراً يتنقل به بين هذه الرفوف وقد تهدل شعره الأشقر فوق عينيه، يعيد تنسيق الكتب وتبويبها، وأحياناً يستغرق فى قراءتها وهو مازال واقفاً فوق السلم.

قالت وهى تنظر إلى ساعتها:

- سوف لا أتسامح معه هذه المرة.

أردت أن أستخف بهذا الغياب الذى أقلقها، فقلت مازحاً :

- يكفيه عقاباً أنه لم يكن موجوداً ليرى المقصلة وهى تأكل عنق آن بولين، لقد كان مشهداً مليئاً بالرعب والإثارة.

كنت قد سمعت منها كيف تعرفت على دونالد أثناء عملها بالمكتبة. كان أكثر العاملين صمتاً، وأقلهم سعياً لإنشاء علاقة معها. وإذا تحدث فهو لا يتحدث إلا عن كتبه أو عن أحلامه فى الليلة السابقة، فهو رجل كثير الأحلام، ويؤمن بأن الأحلام التى نراها ما هى إلا تجارب أولية لأشياء سنراها تتحقق فى المستقبل بشكل ما، أو مشاهد من حياة سابقة عشناها قبل هذه الحياة. والمرة الوحيدة التى أظهر فيها مودة نحوها، كانت لحظة أن أخبرها، بأنه اكتشف أربعة حروف تتشابه فى اسميهما، وبدا سعيداً بقدرته على أن يصنع من هذه الحروف كلمة ذات معنى. وعندما توثقت العلاقة بينهما، حتى صارا يعيشان معاً، أخبرها بأنه سبق أن رأى كل ذلك فى أحلامه، وأنه كان يعرف منذ بداية لقائه بها، بأنها ستكون زوجته.

– ما يجعلنى أحبه أكثر، هو أنه بعكس كل الناس الذين يستعجلون اليوم الذى يهجرون فيه طفولتهم، بقى دونالد محتفظاً بطفولته صافية لا تجرؤ السنون على لمسها.

كانت آثار النبيذ الأحمر تمنح شفتيها لون الكرز الناضج. قلت لها وأنا أعالج غطاء الفلين وأفتح زجاجة نبيذ ثانية:

– أنت هبة منحتها له السماء. لأن الرجل لا يستطيع أن يبقى طفلاً إلا إذا وجد امرأة لا تكتفى بأن تكون زوجة وحبيبة وإنما أماً أيضاً

– اعتبر نفسى امرأة محظوظة لأننى اهتديت إلى رجل مثل دونالد.

كانت قد عاودت النظر إلى ساعتها تتساءل مرة أخرى عن سر هذا الغياب، عندما سمعناه يفتح الباب. تركت كأسها مترعة، وخرجت لاستقباله. عادت بعد ربع ساعة لتقول إنها أبدت له استياءها، لأنه نسى أن يخبرها أو يهاتفها، وأبلغته بلهجة حاسمة أن خصامها معه سوف يستمر إلى الصباح. بدأ النبيذ يؤثر فى توازنها. ويضيف لوناً جديداً إلى كلماتها التى صارت تأتى أكثر بطئاً بينما تزداد سرعة ارتشافها للشراب.

لم أكن أتوقع عودتها، وعندما عادت كنت أظنهـا سـتكمل كأسها، وتذهب إلى زوجها. ولكنها اتكـأت بمرفقهـا فـوق الوسادة حتى لامس شعرها زندى. رفعت نحـوى وجههـا لتقول شيئاً. لم أنتبه إلى ما كانت تقوله، فقد توهج الفم مضيئاً وكأنه استقطب كل ما فى الغرفة من أضواء. وجدت نفسى، دون وعى أو تفكير، أنحنى على وردة الفم، المخضلة بنـدى الخمر، أقبلها. رفعت رأسى نادماً عندما لم أجد استجابة منها، أو هذا ما تهيأ لى، وهى تنتزع فمها من فمى. لأن ذلك لـم يكن صحيحاً. فقد أدارت جسمها بحيث استلقت فى حضـنى، ووضعت رأسها فوق حجرى، وشبكت ذراعيها خلف عنقى، ومدت جمرتين تطبق بهما على فمى، لأجد نفسى أركـض، دونما حرج، فوق حقول الرغبة ذات الأعشـاب المشـتعلة، وأغتسل عارياً فى الينابيع التى تتفجر فرحاً ونشوة. تمـددنا فوق البساط وقد تحول الجسد الذى يعانقنى إلى عاصفة تكنس النجوم من سمائها. كرة من نار تملأ الغرفة وهجاً واحتراقاً، وتجرفنى معها فى لحظة الاشتعال والموجـدة. أدهشـنى أن تتحول ليندا، ذات المظهر الوديع الذى يقطر صفاء ورقـة، إلى كتلة من الشبق والهيجان والشهوة. جسـم يـتقن فنـون

العشق الليلى، ويختزن فى خلاياه صاعقة وبرقاً. حاولت أن أجد فرصة لامتاع النظر برؤية هذا الجسد الأنثوى، الشهى، العارى، الذى تنطلق منه شرارات الرغبـــة، ولكنـــه كـــان ملتصقاً بى، مشتبكاً فى عراك محموم مع جســدى. يتقلبـــان فوق أرض الغرفة، غير عابئين بالصهيل والأنين والشهقات التى تحدث صخباً، يخترق كثافة الجدران ويثير شبهة الزوج الذى ينتظر زوجته فى الغرفة السفلى. لا شىء يستحق العناء فى هذه اللحظة المتمردة على كل اللحظات، الهاربة من كـــل الخرائط، والتصميمات الهندسية، وخطوط العرض والطول. الدماء تغزو الدماء، والأنفـــاس تـــركض، لافحـــة، لاهثـــة، لاختراق دوائر المألوف والمقبول، والوصـــول إلـــى تخـــوم جديدة، ومدارات جديدة، ومدينة لا تشبه المـــدن الأخـــرى. انتهى العراك الشهى، وارتمى الجسدان اللذان أثخنتهما جراح الليل وهدهما الاقتتال الجميل، الواحد بجوار الآخر، يسربلهما الخدر، ويحيط بهما جو مفعم بالصمت ورائحة الخطيئة.

قامت ليندا من مضجعها. ظلت جالسة تضع رأسها بين ركبتيها، عارية يتهدل الشعر الكستنائى أمام وجههـــا حتـــى يلامس الأرض. بقيت مستلقياً فى مكانى، أتأمل شامة صغيرة

فوق زندها. سمعتها تقول بصوت، واهن، ضعيف، تخنقه العبرات :

– لم يكن هذا عدلاً فى حقه.

عندما ذهبت وبقيت وحدى، ظل الصدى يتردد فى رأسى:

– لم يكن هذا عدلاً فى حقه.

ولم يكن لما حدث تبرير إلا تبرير العفوية التى جاء بها. كنت مساقاً بقوة اللحظة وغوايتها. لحظة تواطأت فيها أضواء الغرفة التى أوت إلى فمها، مع لون النبيذ الذى يصنع من الفم وردة أو جمرة، مع تأثير النجوم التى تسطع بعد منتصف الليل بأضواء أقل براءة من أضوائها فى أول الليل، والتى تمارس من خلف الأسقف والجدران تأثيراً على قلوب البشر الفانين وتسوقهم إلى الخطيئة بقوة لا يملكون لها رداً. سأكذب على نفسى إذا قلت إننى لم أرغبها وأتمنى الفوز بها، كنت دائماً أبعث لها بنداء صامت، لكنه ملح ومثابر، يدعوها مثل ناقوس معبد وثنى، إلى الإثم والغواية. ثمة شىء أثارنى فى هذه المرأة منذ أن التقيت بها لأول مرة، وهى تأتى بصحبة زوجها إلى حانة العناقيد، أياماً قبل انتقالى إلى

بيتهما. كانت ليندا فى ذلك اليــوم ترتـــدى قميصـــاً مفتـــوح الصدر، يكشف عن منبت نهديها، حيث يرقد صـــليب مـــن الذهب الأحمر. انعكست على الصليب أضواء موقد النـــار، فأرسل وهجاً يضىء تناسقاً بهيجاً، غامضـــاً، فـــى تكوينهـــا وملامحها. لم أستطع إدراكه إلا عندما صرت محرجاً أعاود النظر إليها، كان الطرف الأسفل من الصليب يرســم خطـــاً مستقيماً، متصلاً بالخط اللذيذ الذى ظهر بين نهـــديها، وبـــدا طرفه الأعلى، كأنه جزء من خط يتصل وينقطع. أطلت إليها النظر لأكتشف أن نقرة بطرف ذقنهـــا تصـــنع خطـــاً بـــالغ الرهافة والعذوبة، يحيل على الفور إلى خط آخـــر، صـــنعته فلقة صغيرة بشفتها السفلى، وأن هـــذا الخـــط لا ينقطـــع إلا ليتصل بخط يشبه وشماً زال لونه وبقى أثره فى أرنبة أنفها، ليصنع هذا كله تكويناً مدهشاً، ويمنح وجهها طابعـــاً نبـــيلاً ينتمى إلى عصر أكثر جلالا ومهابة، وما تمنيت شيئاً تلـــك اللحظة سوى أن ألثم هذا الخط، هابطاً من منطقة الجبين وما بين الحاجبين، إلى منطقة الصدر ومنبت النهـــدين. وبـــرغم أننى حاربت هذه الرغبة بعد أن صار زوجها صاحباً وجاراً له حرمته، إلا أن هذا الافتتان بليندا ترجم نفسه فى ســـلوكى

وتعاملى معها. بل لعله كان دافعـــاً أساســياً وراء انتقـــالى للمعيشة تحت سقف واحد معها، وظـــل بطريقـــة لا واعيـــة ينتظر فرصة أو ذريعة تتيح له القفز فـــوق أســـوار المثـــل والأخلاقيات، وصولاً إليها. إننـــى أفهـــم الآن لمـــاذا كنـــت أحرضها على الشراب، حتى أثملها النبيذ وأضعف قـــدرتها على الرفض والمقاومة. إن هذا الـــذى حـــدث دون كـــلام، ووسط جو من الصمت والتواطؤ، كان شيئاً مدبراً. كان تنفيذاً لخطة أتقنتها تلك الإرادة التى تعمل بصـــمت ودأب خلـــف الإرادة الواعية. ولذلك فأن القول بأن ما فعلناه لم يكن عدلا، لا يكفى للتعبير عن جسامة الإثم الذى ارتكبته فى حق هـــذا الصديق. ولكن من أين جاءت ليندا بهذه الرغبة، اللاذعـــة، الحارقة، وكأنها تختزن فى جسمها نهماً إلى الجـــنس ظـــل محبوساً فى قمقم منذ عهد الملك سليمان؟ تذكرت حديثها هذا الصباح عن العاطفة التى لا أحســـن تصـــريفها، والصـــديقة الثابتة التى يجب أن أكتفى بها، فهل كان ذلك تلميحاً لشوق لم تبح به؟ وهل ترانا التقينا فى منتصف الطريق؟

عندما أفقت فى اليوم التالى كان النهار قـــد انقضـــى، وكان الطقس ممطراً كثير الرياح، فآثرت الاحتماء بالبيـــت.

صنعت لنفسى شاياً، وحمصت بعض شرائح الخبز، وجلست أذاكر كتاباً عن أثر الليالى العربية فى أدب العصر الفيكتورى، وأتناول هذا الافطار الذى جاء فى موعد العشاء. لم أشأ أن أهبط إلى ردهة البيت لألتقى بليندا، ورأيت أن أنتظر أخبار الساعة التاسعة فى التلفاز لأجعلها ذريعة للخروج من غرفتى. جاء موعد الأخبار ووجدت الزوجين يجلسان قبالة الجهاز وأمامهما زجاجة من نبيذ أبيض كانا يتناولانه مع عشاء السمك. أخذت كأساً قدمتها لى ليندا ووضعت بصرى فى التلفاز. كنت أخشى أن تكون غاضبة منى، نادمة لأنها أسلمت لى نفسها فى لحظة ضعف وإفراط فى الشراب. أدهشنى أننى لم أجد أثراً فى سلوكها معى، للغضب والاستياء. تجرأت ونظرت فى عينيها وهى تجمع الصحون، فلم أجد أثراً للخطيئة فيهما. عاملتنى بلطف ومودة، ورأت كأسى فارغة فملأتها مرة أخرى وأبدى دونالد استغرابه لأنه لم يرنى عندما عدت إلى البيت، فأخبرته بأننى لم أغادره طوال اليوم، بارك بإشارة من رأسه هذا السلوك وقال يخاطب زوجته :

– ها قد بدأت الدراسة تشد قبضتها على هذا البدوى.

لعله يقول ذلك ساخراً. أتراه حقاً لم ينتبه لمــا حــدث البارحة، ولم يسمع الأجساد التى ملأت الليل صهيلاً وركضاً ؟. لابد أنه صادق فيما قال. إن دونالد لا يستطيع أن يكــون شيئاً آخر غير دونالد. قطعة ثمينــة ونــادرة مــن البــراءة والطفولة. كيف تواتينى الشجاعة على أن أنظر فى عينيــه، وأدعى بعد الآن صداقته ؟. بقيت صامتاً، متــوتراً، أعلــق بصرى بشاشة التلفاز مدارياً خجلى، وأشبك ذراعــى علــى صدرى، وكأننى أريد أن أصنع بهما حاجزاً يخفينى عنــه أو يخفيه عنى. لم أستطع أن أكمل التمثيلية البوليســية المليئــة بالمطاردات التى بدأت عقب النشرة، فاستأذنت منهما عائــداً إلى غرفتى. لم أنتبه إلى مرور الوقــت إلا عنــدما أطفــأوا التلفاز.

– حفظ الله الملكة.

سكت نشيد الختام، وبدا صوت المطر موحشاً كئيبــاً، إلى حد أن أشعرنى بالبرد، فأوقدت مدفأة الكهرباء. قضــيت النهار كله نائماً، وستكون مهمة مستحيلة أن أستحضر نومــاً هذه الليلة. سمعت خطى تصعد الدرج. فتحت باب لأجد ليندا تحمل فى يدها زجاجة نبيذ.

- اشتريت اليوم نبيذاً، وجئتك بهذه الزجاجة تستعين بها على النوم. فلا بد أنك استنفدت ما لديك.

رأتنى متردداً فى أخذها فوضعت الزجاجة فى يدى قائلة :

- لا تكن معانداً. إنها بوردو.

بادرت قائلاً وأنا أراها تستدير عائدة :

- ألا تشربين معى كأساً؟

أدركت وأنا أرى طيف ابتسامتها أنها لم تفاجأ بهذه الدعوة. وبشىء من المرح والدعابة أمسكت يدها أسحبها إلى غرفتى قائلاً :

- إنها بوردو.

شملت ابتسامتها الوجه كله حتى ضاع الخط الجميل فى فيض البهاء والابتسام. قلت وأنا أدفع المسمار اللولبى فى فلين الزجاجة :

- من كان يشكك فى الكرم الاسكتلندى فليأت ليرى بنفسه.

ومشمولا بهذا الكرم جلست فوق الأرض بجوارها، أقاسمها الأقداح والقبلات. لم نتفوه بكلمة واحدة عن الحب أو

الخطيئة أو دونالد. لم نتحدث عما فعلناه البارحة أو نبحث له عن تفسير. أسلم كل واحد منا نفسه إلى الآخر، وكأن ما نشأ بيننا لم يكن إلا استجابة لقوة لا قدرة لأحد منا على دفعها أو الهروب منها. لا أدرى بأى عذر تركت زوجها، ولا أجدنى بحاجة إلى أن أهدر وقتاً ثميناً بسؤالها عن ذلك، فلا بد أنــه ذهب إلى النوم منذ وقت مضى. كان مــيلاد هــذه العلاقــة بالأمس مغامرة واكتشافاً. كان اقتحاماً لأرض مجهولة. أمــا الآن فإن الأرض المجهولة لم تعد كذلك. صارت تفضى إلى آفاق أكثر رحابة واتساعاً وألفة. وما إن رأيتها بجوارى حتى بدأت عبور مناطق الوجه والصدر التى فتنتــى لأول مــرة، لاثماً جبيتها وأنفها وشفتيها وذقنها وعنقها وصدرها، صاعداً، هابطاً، مع هذا الخط المستقيم الذى له امتــدادات، وتجــاوره دوائر وقباب وانحناءات، ترسل هى أيضاً أشــهى النــداءات وأعذبها. أطوف بهــا مبهــور الأنفــاس، مســلوب الإرادة كالدراويش، أتزود ببركاتها، وأغترف من نعيمها، وأقبل فى تبتل وخشوع عتباتها المباركة. كان المطر يضرب النافــذة، وكانت أسياخ الحديد فى المدفأة تنفث وهجــاً أحمــر يطــرد البرد. ولأمر ما بدا فعل الحب شيئاً لا يحقق كامل نشوته إلا

بالنار والمطر. لم تبك ليندا هذه الليلة كما فعلت ليلة البارحة. كانت أكثر مرحاً وانطلاقاً بعد ممارسة الحب. وعندما أبدت اقتراحاً بأن نرتدى ملابس الخروج، ونأخذ السيارة، ونقـوم بنزهة ليلية عبر شوارع المدينة التى يغسـلها المطـر، لـم أندهش أو أعترض، وجدته اقتراحـاً يليـق بهـذه اللحظـة المشتعلة نزقاً وجنوناً.

اندفعت بنا السيارة عبر حقول المطر والظـلام، تفـر الأشجار هاربة إلى الخلف فتبدو كأنها أشباح تطـل علينـا وتختفى، تقول كلاماً سريعاً غامضـاً وتمضـى. تجاوزنـا بسرعة وسط المدينة وانتقلنا إلى الجانب الأخر منها، حيـث أخذنا طريقاً ريفياً خالياً من السيارات والأضواء. كنـت قـد جئت معى بزجاجات النبيذ لنشرب ما تبقى منها فـى أثنـاء النزهة. شربت من الزجاجة مباشرة، وناولتها إياهـا. أرادت أن تفعل مثلى فسال النبيذ على ملابسها. انزعجت قليلاً ثـم انفجرت ضاحكة وهى تنتبه إلى أنها لم تشرب فـى حياتهـا نبيذاً من فم الزجاجة مباشرة، إلا هذه المرة.

- أنت الذى جعلتنى أفعل ذلك. تريدنى أن أكون بدوية مثلك ولكننى سأقاوم التصحر.

لم أسألها وهى تقود السيارة إلى أين ستمضى بنا. فقد كنت منتشياً باندفاعنا العشوائى وسط هذه الطبيعة التى تعزف نشيدها العنيف وتقيم أعراسها الوحشية بين الأدغال. تلألأت على البعد أضواء منتجع سياحى فوق تلة يغمرها الظلام. انعرجت السيارة صاعدة مع الطريق الضيق الذى يقود إليه. كانت حانة الفندق قاعة كبيرة يلمع رخامها الأسود تحت ضوء شاحب الاصفرار، فيما توزعت الموائد فى الأركان تاركة مكاناً فسيحاً للرقص، وكان العامل يقف خلف البار يغسل صحونه وأكوابه. صنع لنا كأسين من مزيج عصير الفاكهة المخلوط بالكحول، واتجهت ليندا إلى صندوق الاسطوانات، تنتقى أغنية »مارى هوبكنز« »تلك كانت هى الأيام يا صديقى«، ثم عادت تمسح عن وجهها وشعرها آثار المطر الذى أمسك بنا أمام الفندق. دارت الأغنية تطرد الصمت والسكون، وتملأ المكان بالشجن الجميل. انسحب آخر رجل وامرأة من زبائن الحانة، ورأينا العامل ينظر فى ساعته فدعوناه إلى احتساء كأس معنا. تدفق صوت المغنية يوقظ الذكريات العتيقة ويصنع لنا ذكريات جديدة.

فى سالف الأيام

كانت هناك حانة

وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو اثنين.

أسبلت ليندا رموش عينيها، ورفعت رأسها، ونشرت ذراعيها، ودارت ببطء مع الغناء الدائر فى صندوق الاسطوانات، تنساب مع انسياب الموسيقى، وتتحول إلى كائن لا يعيش إلا فى حدائق الغناء. انتهت الأغنية ولكن ليندا التى تفتحت شهيتها للرقص واشتبك جسمها مع خيوط الموسيقى، لم تكن تريد أن تنتهى. أدارت أغنية أخرى ذات ايقاع سريع، وواصلت الرقص بتدفق وحماسة. جسد ينتقض ويرتعش ويخفق مثل خفق الأجنحة، يعلن تمرده على جاذبية الأرض، ويبوح بانتمائه إلى هذا الفضاء، الذى لا يحده حد. ومسحوراً بانسياب جسمها فوق الرخام الذى يشع بأضواء سوداء، وحضورها الخافق كفراشة من نار، وهذه الإيقاعات التى تصدر نداء عاجلاً يدعو إلى الانطلاق والمغامرة، تقدمت أشاركها الرقص. أحيط خصرها، وأمد ذراعى بموازاة ذراعها. أشبك أصابعى بأصابعها وأدخل فى طقوسها، ومغمض العينين أسافر معها، نطوى البرارى، ونجتاز المدن والغابات، والأنهار والبحار، وننطلق باتجاه جزيرة مسحورة

معلقة بين السماء والأرض، تمتلئ بأشجار من ضوء، ثمارها الفرح والعشق. انتهت الموسيقى وتوقف ايقاع الطبول، فبقينا للحظة متعانقين فوق جزيرة الضوء وكأننا نخشى الارتطام بأرض البشر، والعودة إلى طبيعتنا الأولى، بعد أن كنا كائناً واحداً لا يقبل القسمة على اثنين.

فى طريق الخروج لاح لنا حوض السباحة المسقوف، وقد تلألأت مياهه تحت انعكاس الأضواء التى تسللت من أروقة الفندق عبر جدران الزجاج. وقفنا لحظة نتبادل النظرات، ودون كلام وجدنا أنفسنا نتسلل إلى صالة الحوض التى كانت دافئة معتمة. وكان الماء كلوح الزجاج، ساكناً وشفافاً ومضيئاً. لم نشأ أن نضيء النور أو نحدث صخباً يلفت الانتباه إلينا. بصمت خلعنا ملابسنا، وقذفنا بأجسادنا فى حوض السباحة.

من أين لحوض بارد، فى ليل اسكتلندى عاصف أن يبعث فى النفس كل هذه النشوة؟ لعله ليس الماء، وإنما هذه الأنثى الذهبية التى تقفز عارية فى الماء كعروس من عرائس الأساطير، والتى تملك روحاً مفتوحة على فضاء المغامرة والجنون الليلى، هى التى تجعل البدوى فى نفسى يبدو

مبهوراً ببهاء هذه اللحظة، منتشياَ بها، لأنه يعرف أنها لحظة نادرة فى حياته المجبولة من رمل وقيظ الصحراء. أين قرأت عن ديانة تقول إن أحد طقوسها أن يسبح الإنسان عارياً فـــى مياه الأحواض والبحيرات؟ لعلها مجرد فكرة طـــرأت علـــى ذهنى الآن، وكأننا بدخولنا إلى الماء نكمل طقساً فـــى ديانـــة جديدة، اخترعناها هذه الليلة. صلاة لإله نحن اللذين صنعناه على مقاس رغباتنا. أردت أن أحتفظ بصدرها فوق صـــدرى وأنا أعانقها وأقبلها مستمتعاً بهذه العبادة الجديـــدة، ولكنهـــا صارت تنزلق وتنسل من بين أصابعى وكأنها مـــاء وســـط الماء. أعدو خلفها وأحاول الامساك بها فتهرب منى، وتبتعد مسافة عنى، وترش وجهى بالماء وهى تضحك وتقفز وتخفق بذراعيها ونهديها وتغوص إلى قاع الحوض وتطفو فى مكان غير المكان الذى أوهمتنى أنها ذهبت إليه. أردت مجاراتها، فغامرت بالغوص وراءها، أطبقت فمى وأمســكت بأنفاســـى واندفعت تحت الماء لألحق بها، وعندما وصلت قريباً منهـــا، كانت المساحة قد أنهكت قواى. لم أستطع أن أحبس أنفاســـى أكثر من ذلك، ولم أستطع أن أحتفظ بجسمى طافياً. شـــربت الماء وشرقت. رأتنى أسعل وأقاوم الغرق، فمدت يدها تعيننى

على الاحتفاظ بجسمى فوق الماء، وسارت بى حتى أوصلتنى إلى حافة الحوض. جلست ألتقط أنفاسى وليندا تنظر باندهاش نحوى.

- ما الذى فعلته بنفسك أيها البدوى؟

- كنت أريد أن أغرق، لأننى لن أجد لحظة أجمل من هذه اللحظة أختم بها حياتى.

- لعلك فعلاً أردت ذلك، فهو يتفق مع هوس العنف والجنس الذى يملأ ذهنك.

خطر لى أن أسألها ونحن فى طريق العودة عن العذر الذى ستقوله لدونالد وهى تؤوب إليه بعد انقضاء الليل. ولكن من أى ثقب أسود فى السماء، تأتى هذه الأفكار التى تفتح باباً للكدر، وتبدد بهجة تترع القلب؟ إنها أدرى بما تفعل، وواجبى بدلاً من ذلك أن أقول كلاما يسعدها، وينقل ما أحس به من امتنان نحوها. لم أقل شيئاً ولم أفعل شيئاً أكثر من أن أخذت يدها ألثمها فى صمت ودون حاجة إلى أى كلام.

اختفت من سمائى كل النجوم، عدا نجمة واحدة هى ليندا. تركت كل علاقاتى الأخرى وتفرغت لها. معاً صرنا نعيد اكتشاف الأمكنة، ونبحث لعلاقة عشقنا عن فضاء جديد

تتنفس فيه، من خلال النزهة والتجوال والمعاشرة المستمرة، خارج الدائرة المكرورة، والعلاقات الشرعية، وصناديق الحديد، وأبراج الاسمنت، وعلامات السير الإجبارى فى شوارع المدينة. لأول مرة فى حياتى أحس بهذا الانفعال الطازج، الساخن، الذى يحس به الواحد منا تجاه إنسان آخر، يصبح هو وحده من تملأ صورته، حاضراً وغائباً، فضاءات الذاكرة. تتمحى كل الوجوه الأخرى ولا يبقى إلا وجهه، وتتمحى كل الأماكن إلا المكان الذى يحتويه، وينمحى ما مضى من تاريخنا، فتصبح حياتنا السابقة عن لقائنا به، وكأنها لم تكن حياة، وإنما شيئاً سديمياً أشبه بالهيولى الذى يسبق نشوء الكون وبداية الحياة. ولأول مرة يصبح فعل الحب بالنسبة إلى، تلبية لنداء عميق يصدر عن كيانى كله، وليس مجرد اسكات للغريزة أو اداء لوظيفة بيولوجية، أو ارضاء لنزوة من نزوات الجسد. لم يعد يقلقنى كثيراً، حقيقة أنها زوجة رجل آخر، يعيش معنا تحت سقف واحد. فقد رأيته راضياً بما يراه، لا يبدى كدراً ولا ضيقاً. مضت علاقتنا تصنع شرعيتها الخاصة التى بدت لى أكثر عمقاً من أية شرعية تصنعها وثيقة الزواج، أو سجلات المكتب البلدى،

أو الاحتفالات الكنائسية. أوجدت لنفسى تبريراً يخلصنى من أى احساس بالإثم، ويطرد هذا الخاطر الذى يقول بأن سـر الإثارة فى علاقتنا هو أننى أستولى على امرأة رجل آخـر، وأعتدى على حصته فى النساء التى حـددتها لـه الشـرائع والأعراف والقوانين. لم نتحرج من أن يرانا الآخرون نذهب إلى الحانات معاً ونسهر الليل معاً. وكان دونالد كثيـراً مـا يرافقنا فى سهراتنا وجولات النزهة التى نقوم بهـا خـارج المدينة. لم تبدر منه أية اشارة تدل على ضيقه بهـذه الالفـة التى رآها تنشأ بينى وبين زوجته، بل صار أكثر سعادة لأننا أخرجناه من عالمه المحدود والمحكوم بذلك المثلث الذى يبدأ من مكتبة الجامعة إلى مكتبة البيت مروراً بحانـة العناقيـد. مكان واحد احتفظنا به لأنفسنا، ونذهب إليه مرة كل أسـبوع بمفردنا، هو ذلك المنتجع السياحى الذى سـبحنا ذات ليلـة عاصفة فى حوضه البارد.

قالت ليندا ونحن نجلس فى قطار الصباح المتجه إلـى لندن :

– برغم أننى لم أرها فأنا أعرفها بأكثر ممـا تعرفهـا أنت، وقد جئت لأثبت لك ذلك.

كنت تلقيت دعوة لحضور مؤتمر طلابى يعقد هنـــاك، فاقترحت على ليندا، التى لم تشاهد لندن من قبل، أن نترافق فى هذه الرحلة من أجل الانتقال إلى مشهد جديـــد وتجربـــة جديدة، تغنى حياتنا بالذكريات المشتركة.

وما أن خرج القطار من عتمة الانفاق التـــى تختـــرق هضاب أدنبره، حتى انشق الأفق عن تلك السهوب المنبسطة، والتى تمتد رحابة واتساعاً، تعانق زرقة السماء، وتوقظ شوق القلب إلى الانطلاق، والرحيل عبر مداها الأخضر الذى يبلله ندى الصبح.

جاءت السيدة التى تدفع أمامها عربة الشـــاى، فأخـــذنا قدحين وجلسنا ندردش ونقرأ الصحف. قالت ليندا تعليقاً على غزارة الأخبار التى تتعلق بالوطن العربي:

– – يبدو أن العالم شديد الاهتمام بأخباركم.

– طالمـــا أن الأخبـــار لا تتغـــذى إلا علـــى المحـــن والكوارث، فسأدعو الله أن ينتهى قريباً اهتمام هذه الصـــحف بالوطن العربى.

امتنعت عن قراءة أى شىء يتصل بالسياسة، لكـــى لا أمنح محررى هذه الصحف فرصـــة اثـــارتى، أو مبـــاغتتى

بعبارة تفسد مزاجى هذا الصباح، واتجهت مباشرة إلى قراءة الأبواب التى تتحدث عن المطاعم، والحانات، وأنواع النبيذ، ومحلات السهر فى لندن. وجاء بعد ثلاث ساعات نداء عبر ناقل الصوت، يدعو الراغبين فى تناول وجبة الغـداء إلـى الانتقال إلى المطعم، فأخذنا حوائجنا وانتقلنا إليـه. لمحـت عدنان يجلس فى المطعم بمفرده فقلت لها ونحن نتجه لتحيته:

- إذا أردت حديثاً فى السياسة، فهذه هى فرصتك.

قضى أكثر من تسع سنوات مقيماً بهذه البلاد، ويعـدّ منذ أربع سنوات أطروحة دكتوراه عن فلسفة هيجل. وفـى ذات الوقت فهو نجم سهرات العزف والغنـاء فـى الأنديـة الطلابية، وعضو المكتب التنفيذى لاتحاد الطـلاب العـرب، وسكرتير جمعية اليسار الراديكالى فى الجامعة. تزوج امرأة من هذه المدينة، وأنجب، وطلق. هكذا قدمته إلى ليندا التى لم تكن قد رأته سوى مرة واحدة عندما شارك فى حفل صـغير أقمته بمناسبة انتقالى إلى بيتها.

قالت تعليقاً على نشاطه فى جمعيات اليسار المتطرف:

- تفزعنى كثيراً دعاوى العنف التى تمتلئ بها نشرات هذه الجمعيات.

أوضحت لها كيف أن عدنان شيء آخر. فهو يحمل في المظاهرات صور تروتسكي وجيفارا ومانديلا ويرتدي الكوفية الفلسطينية ويكتب رسالته عن الديالكتيك وصراع الأضداد، ولكنه في المساء يقضي وقته متنقلاً بين جمعيات تحضير الأرواح وجلسات التمرين على العلاج الروحي.

– وكيف يمكن الجمع بين هذه الأشياء؟

– إنها لا تجتمع إلا في قلب عربي مثل عدنان. يكتب عن صراع الأضداد علناً، ويتصالح معها سراً.

أبدت ليندا اعجابها بعزفه عندما جاءنا تلك الليلة، واشتياقها لسماع عوده مرة أخرى، فقال إنه سيشارك في حفل يقيمه اتحاد الطلاب يوم الغد. وعدناه بالحضور، ووصل القطار محطته الأخيرة فأخذت ليندا إلى فندق صغير يطل على حديقة الهايد بارك. غرفة ضيقة، إلاّ أن شباكاً بعرض الحائط، يطل على بهاء الحديقة، كان يمنحها جمالاً واتساعاً. عارية جدرانها إلا من صورة لعجوز يضع أمامه قدح البيرة. تتقد عيناه بفرحة طفولية، وتطفو فوق القدح رغوة مضيئة. قلت لها:

– ها نحن نلتقي الآن فوق أرض محايدة.

لم تكن الأرض حقاً محايـــدة. أدركـــت وأنـــا أمشـــى بمحاذاتها عبر المناطق التى تحيط بحديقة الهايد بـــارك، أن هذه الأرض أرضها، وأن كل هذه الأماكن التى لا تعنى لـــى إلا ما تعنيه لأى سائح عابر، ترتبط لديها بركام من الأحداث التاريخية التى صارت جزءاً من تكوينها وثقافتهـــا. ومـــا أن ترى نصباً تذاكرياً أو تمثالاً لرجل يركب حصاناً أو تعـــرف اسم الشارع الذى نجتازه، حتى تتدفق بحديث الذكريات التى يحملها المكان. فهنا أقيم الاحتفال بعودة ويلنجتون منتصـــراً من معركة واترلو، وكانت الفتاة التى وضعت فى عنقه طوق الأزهار تبكى لأن والدها مات فى تلك المعركة دفاعاً عـــن الملك والوطن. وكنت أغيظها قائلاً:

– هذه تفاصيل لا يعرفها إلا من حضر الحفل. وأنـــت فيما يبدو لى أصغر عمراً من ذلك.

– لا تسخر منى، فقد شاهدت ذلك فى تمثيلية تاريخية عن لورد ويلنجتون. وهذا الشارع كان طريقـــاً يقـــود إلـــى مزرعة سير توماس مور، التى شهدت اللقاء العاصف بينـــه وبين الملك هنرى الثامن. كان الملـــك غاضـــباً لأن قدمـــه

غاصت فى الوحل وتلطخت ملابسه بالطين وهو يأتى لزيارة مستشاره.

- أنت تصدقين كل ما يقوله كتاب التمثيليات من أكاذيب. لعله أعدمه لهذه السبب.

- مهما كانت الأسباب الأخرى فإن الطين الذى لطخ ملابس الملك دفع بالأحداث فى هذا الاتجاه.

- ألا تعلمين أنك تخترعين الآن نظرية جديدة لتفسير التاريخ، وتجعلين الطين عاملاً أساسياً فى تحريك أحداثه؟

- لا تقاطعنى أرجوك. فمن أين لبدوى مثلك أن يعرف طبائع الملوك؟

وأخيراً »سوهو«، الحى الذى عرفته أكثر من أى منطقة أخرى، عندما أقمت فى لندن للدراسة التحضيرية، فلم أر فيه إلا المسارح والمطاعم وعلب الليل ودكاكين الجنس، كان هو أيضاً يرتبط لديها بأسماء كتاب وموسيقيين ورسامين صنعوا أمجادهم الفنية فى هذا المكان. بحثنا عن مطعم نتناول فيه العشاء، فسألت ليندا حارساً ليلياً عن اسم أحد المطاعم وقادتنى إليه، قائلة إنه مطعم نجوم التمثيل والغناء. كان مطعماً صغيراً، بسيطاً، لا يوحى بأية نجومية. وقفنا

ننتظر أن يجد لنا العامل مكاناً لشدة الزحام، وما أن جلسنا حتى صارت تهمس لى بأسماء الزبائن الذين يجلسون على الموائد المجاورة من أبطال التمثيليات وأعضاء الفرق الغنائية. كانت سعيدة لأنها تتصل الآن بهذه الأوساط الفنية، وترى عن قرب هؤلاء الناس الذين كانت تشاهدهم أطيافاً على الشاشة. قلت معتذراً عن جهلى بكل هؤلاء النجوم:

– أعذرينى إن كنت لا أعرفهم، فليس فى سمائى إلا نجمة واحدة هى أنت.

كان مسرح »السهم الذهبى« الذى يتخصص فى تقديم الاستعراضات العارية، هو أول ما جذب انتباهنا ونحن نغادر المطعم. وأمامه وقفت حافلة تفرغ مجموعة من السياح. قادنا الفضول إلى واجهاته المضيئة، نشاهد الصور المعروضة فى اللوحات. سألتنى ليندا ضاحكة:

– ما رأيك؟

أدركت أن ما تقصده هو مشاهدة العرض. لم نكن قد شربنا فى أثناء العشاء سوى قدحين من النبيذ، ولذلك فقد بدت الفكرة غريبة وأنا أتأملها بعقل لم تكسر حدته ضربات

الكأس. إذ ما الذى يدعو امرأة مثلها إلى قضاء أكثر من ساعتين تشاهد نساء يتعرين. نقلت إليها رأيى فقالت:

– هناك أكثر من ذلك. إنهم يعتبرونه احتفالاً بالجسد الإنسانى، ويسمون عرضهم هذه الليلة »مهرجان الفاكهة المحرمة«، ومعنى ذلك أنهم يقدمون فناً مع الإثارة.

كنت قد لاحظت وجود صور مستوحاة من أجواء مشرقية، فاتجهت إلى شباك التذاكر، أبحث عن مكان بين المشاركين فى وليمة الفاكهة المحرمة.

تناهت إلينا ونحن نشترى شراباً من بار المسرح، موسيقى العرض وقد اختلطت بالشهقات الجنسية. اجتزنا ستارة حمراء ودخلنا إلى ظلام الصالة، فى حين وقفت تحت أضواء المسرح امرأة سامقة، انسيابية الجسم، تخلع آخر ملابسها. وتنتهى هذه المقدمات التى شاركت فيها امرأة ثانية وثالثة ممن يشبهن السهام الذهبية، لتبدأ المشاهد الدرامية، حيث يقدم العرى والجنس من خلال مشهد قصصى. اتخذ الديكور الذى هبط فى مقدمة المسرح شكل ثقب المفتاح، لكى يمنح المتفرجين احساساً بأنهم يدخلون عالماً سرياً، وظهرت شبكة عنكبوت وامرأة تتلوى عارية بين الخيوط، تتأوه

وتصرخ. يدخل المسرح رجل عــار يرســم فــوق جســمه خطوطاً عنكبوتية، يركض إلى المرأة يحتضنها ويضاجعها، فتتحول صرخات الألم إلى صرخات استمتاع ولــذة. كنــت أضع يدى فى يد ليندا، ضاغطاً عليها، محــاولاً أن أحتــوى التوتر الذى تثيره المشاهد العارية. ثم جاءت أكثر الفقــرات إثارة وعنفاً. قاعة فى قصر أحد السلاطين، وخمس نساء من حريمه تغطيهن البراقع والملاحف والأبخرة التى تتصاعد من المجامر. تبدأ الموسيقى وتبدأ كل واحدة منهن ترقص وتطل من الشرفة، ثم ترمى حبلاً لعشيق ينتظرها أســفل القصــر. يقفز العشاق إلى القاعة، وبحركات إيقاعية يبدعون فى خلــع ملابس النساء وخلع ملابسهم، ليضاجع كل واحــد عشــيقته متخذاً وضعاً يختلف عن الآخر. ثم جاء السياف، زنجى قوى البنية، حليق الرأس، حاسر الصدر والذراعين، يلمع جســمه المدهون بالزيوت تحت الأضواء. صــرخ صــرخة تجمــد لهولها المتعانقون. أسند العشاق إلى الجدار وجزّ رؤوســهم بالسيف. وبمعونة الخدع المسرحية، والأضواء التــى تطفــأ وتضاء، تدحرجت فوق المسرح خمسة رؤوس يتدفق منهــا الدم. أراد قتل النساء ولكنهن ركعن أمامه، يتعلقن بســاقيه،

حتى استجاب لهن وصار يمارس معهن الحب وسط الأجساد والرؤوس المقطوعة. أشاحت ليندا بوجهها عن متابعة المشهد.

- دعنا ننصرف أرجوك.

قالت عندما خرجنا إلى أضواء وهواء الشارع:

- و كنت مكانك لما استطعت أن أكتب حرفاً واحداً عن الجنس والعنف بعد أن رأيت هذا المشهد.

فى ضحى اليوم التالى، ونحن نجلس على مقعد مشترك بحديقة الهايد بارك، قريباً من البحيرة، سألتها عن دونالد. كانت امرأة عجوز تقف على حرف البحيرة تحمل سلة بها بقايا خبز تطعم منه قطيعاً من البجع، وكانت تنادى كل بجعة باسم تطلقه عليها. كان نهاراً عامراً ببهاء الربيع، مفعماً بشذا جنائن الورد، وفى البعيد كان الأطفال يركضون وراء بالون طار فى الهواء، وقارب يطفو فوق البحيرة يحمل فتى وفتاة يتعانقان، وفوق رؤوسنا سحب خفيفة منحت زرقة السماء لوناً فضياً. ولذلك فقد بدا غريباً أن يداهمنى طيف دونالد فى هذا الجو الذى يعبق سلاماً، وأجد نفسى دون تفكير فى النتائج أفتح هذه الصفحة فى دفتر علاقتنا، والتى ظلت

صفحة مهملة لا أحد يقترب منها. تعكر قليلاً صفاء العسل في عينيها، وظلت تنظر في الفراغ ولا تقول شيئاً. واصلت إثارة الموضوع قائلاً:

- ألم يذكر لك شيئاً عن رأيه في علاقتنا؟

- إنه يعرف كل شيء.

نظرت إليها مندهشاً، أسألها وكأنني لم أفهم ما قالته:

- هل تقصدين أنه يعرف كل أسرار هذه العلاقة؟

كنت أعرف أنه يعرف شيئاً عن هذه الالفة والحميمية اللتين نشأتا بيني وبين زوجته. أما أن يعرف حتى ما يحدث بيننا في الفراش فهذا ما لم أكن واثقاً منه.

- هل صارحته أنت بذلك؟

- لم أقل له شيئاً.

- وكيف تراه عرف؟

- رأى في الحلم شيئاً جعله يوقن أن علاقة سوف تنشأ بيني وبينك، وكان كل ما طلبه مني بعد ذلك هو أن تستمر حياتي معه مثلما كانت قبل أن أعرفك، فهو لا يريد لعلاقة عابرة أن تكون سبب انفصالنا.

بقدر ما أفزعتنى العبارة التى تصف هذا الفيض من الحب بأنه علاقة عابرة، فقد أذهلنى أيضاً موقف زوجها اللامبالى. ليكن قد خامر قلبه الشك. وليكن قد أدرك ما يحدث بيننا وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى مدعياً أنه لا يرى شيئاً، فكله ممكن وجائز. أما أن يصارح زوجته بأنه لا يجد مانعاً فى أن تواصل علاقتها معى، شرط أن تبقى زوجة له، فهذا ما بدا لى سلوكاً يستحق الاندهاش والفزع. كنت أتصوره ما أن يعرف على وجه اليقين حقيقة ما يحدث بيننا، حتى يطردنى ويطردها من بيته. وكنت أفكر فى خطة أواجه بها موقفاً كهذا عندما يأتى وقته. اختلف المشهد الآن. ها هو يرضى بأن تصبح ليندا امرأة مشتركة بيننا. ليكن. إننى أحب هذا الوضوح، وأرى أن ترتيباً كهذا الترتيب يلائمنى تماماً. ولكنك سوف ترى وتعرف أيها العزيز دونالد بأنها ليست علاقة عابرة كما كنت تقول وتتمنى.

- إنها ليست علاقة عابرة يا ليندا. أنت لا توافقين على هذا الكلام؟

- لا أدرى. عرضت أن أرحل عنه إذا أراد، فلم..

أحسست بشيء من الاثم وأنا أرى سحائب الكدر تغطى ملامحها. لم أقل شيئاً بعد أن توقفت هى عن إكمال جملتها.

كانت المرأة العجوز التى تطعم البجع تتعـارك هـذه المرة مع جوليا لأنها اغتصبت حق مارثا من فتات الخبز.

- هيا تأدبى يا جوليا. لا تكونى فتـاة سـيئة الطبـع. اقتربى قليلاً يا مارثا.

ولكن جوليا منعت مارثا من الاقتراب. تضاحكنا ونحن نرى السيدة العجوز تغضب وتتوعد جوليا بالعقاب وتهـددها بأنها ستحرمها من إقامة حفلة بمناسبة عيد ميلادهـا القـادم. تركنا البجع والمرأة العجوز والبحيرة، وذهبنا نتفـرج علـى خطباء الحديقة، حيث اتخذ كل خطيب سمت زعيم سياسـى يريد تغيير العالم ويملك وصفة سحرية لتحريره من مشاكله. وتعقيباً على خطيب أسود، يسخر من العائلة المالكة، ويـتهم الملكة بأن لديها عشيقاً تزوره فى أفريقيا، وستلد قريبـاً أول أمير انجليزى أسود، قالت ليندا:

- لا أحد فى اسكتلندا يمكن أن يقول هذا الكلام عـن الملكة.

– لأنه ليس فى اسكتلندا هايد بـــارك، تبيـــع الأوهـــام والفكاهات.

نسينا دونالد، ومنحنا أنفسنا للنهار الجميل. وقفنا أمـــام المصورين المتجولين يلتقطون لنا الصور التذكارية، واشترينا بطاقات بريدية، وجلسنا بمطعم الحديقة ننتظر الطعام ونكتب البطاقات. كنا قد جمعنا بعض الصحف والنشرات الدعائيـــة واخترنا من بريد القراء وأبواب التعارف أســـماء وعنـــاوين أناس من القارات الخمس، وقررنا مخالفة لما هو مألوف أن نرسل إليهم بهذه البطاقات بدل أن نرسل بها إلى أصـــحابنا. كتبنا للسيد بهارتا صانع القوارب بمدينة بومبـــاى قـــائلين:» شكراً لكل ما تحيطنا به من كريم رعايتـــك أيهـــا الصـــديق الحميم«، ولمربية أطفال بقرية استرالية، كتبنا:» إن دعـــاءك الدائم لنا بالتوفيق هو الذى فتح أمام علاقتنا آفاقاً جديدة للفرح والانطلاق، فلك الشكر والتحية أيتها المرأة المباركة«، وهكذا مع بقية الأسماء. ولا أدرى لماذا أعطتنى هذه الرسائل التـــى كتبناها من باب العبث واللعب شعوراً بالأمـــان، وجعلتنـــى أحس بأن علاقتى بليندا ازدادت عمقاً ورسوخاً بفضل هؤلاء الأصدقاء الذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا.

حضرنا فى المساء الحفل الطلابى، وشاهدنا عدنان يغنى ويعزف العود. جاء أعضاء الجالية العربية يصطحبون صديقاتهم الأجنبيات أو نساءهم العربيات الحوامل، يرددون الغناء مع مطربى الحفل ويصنعون ضجيجاً مشرقياً محبباً. سألتنى ليندا ونحن نعود إلى الفندق عن سر كثرة النساء الحوامل، فقلت لها:

– إنه دليل إعجاب ببلادكم، فكل هؤلاء العرب يتبارون فى تقديم شهادة ميلاد انجليزية لأبنائهم، علها تكون حرزاً ضد عوادى الأزمنة العربية.

امتدت إقامتنا فى لندن يوماً ثالثاً قضيناه بين الأسواق. اشتريت لها فى أثناء ذلك قارورة عطر شرقى، بالغ التاجر الهندى فى الثناء عليها لأنها تحتوى عطراً نادراً" مصنوعاً من خلطة أعشاب صحراوية، فأضفت إلى القارورة الأولى قارورة ثانية. وبقدر ما كانت هذه الرحلة فرصة لتعميق معرفتى بالمرأة التى رافقتها، والاقتراب من جوانب فى شخصيتها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال ما يتيحه السفر من رفقة تتواصل كل ساعات الليل والنهار. فقد كانت مناسبة أيضاً، لأن أتعرف على هذا البدوى، الذى يحمل

ميراث مجتمع، ظل لعصور طويلة، يخبئ النساء داخل عباءة ثقيلة من التقاليد، والقيم المستعارة من عصور الحريم والسلاطين، باعتبارهن مخلوقات هشة، ضعيفة، يؤذيها ضوء الشمس. وأفتش عما تبقى من هذا الميراث في وعي ولا وعي الرجل الذى خلع أرديته البدوية، وتخلى عن خيمته، وشياهه، ونياقه، واكترى مقعداً فى طائرة تحط به فى أكثر مناطق العالم تحرراً، وانعتاقاً، من سطوة القرون الوسطى. أعرف أننى سعيت إلى المرأة، تلبية لاحتياج انسانى، متجاوزً أى موقف فكرى أو فلسفى أو أخلاقى منها. احتياج انسانى، تصبح معه المرأة، شرطاً أساسياً لتحقيق العافية النفسية والجسدية، وتميمة لطرد أمراَض الوحدة والكآبة، التى تأتى نتيجة الانتقال من بيئة إلى أخرى، ومن مناخ إلى مناخ، ومن أوطان نعرفها وتعرفنا، إلى أوطان نعرفها ولا تعرفنا. ولكننى سعيت بنفسية تحمل ندوب الجراح القديمة التى تصيبنا بها مجتمعات القبائل الصحراوية التى جاءت تسكن المدن، وتصنع شكلاً مشوهاً للعلاقات التى تحكمها قوانين الفضاء الصحراوى، بينما هى تحيا داخل مكعبات الاسمنت. كانت هذه اللعبة التعويضية هى التى تسيطر على سلوكى

وأنا أسعى لتحقيق علاقة سريعة تكلفنى الكثير من الاستجداء وإذلال الذات، وما أن أجد استجابة من إحدى النساء، حتى أكون قد استنفدت قدرتى على التسول، وجئت أنتقم للحظات الضعف التى بدرت منى. أتحول من شحاّذٍ للحب إلى رجل لا همّ له إلا المكابرة والعناد، سعياً لترميم الانهيار، وتعويضاً لمواقف الإذلال، مما يصل بالعلاقة إلى طريق مسدود. وبرغم أن الخيبات الكثيرة أورثتنى شيئاً من الحذر فى التعامل مع النساء، وجعلتنى أدرك أن لمثل هذه العلاقات قواعد وتقنيات يجب حفظها واتباعها، فأننى مع ليندا لم أكن أحتاج إلى شيء كهذا. اكتشفت أن باستطاعتى أن أكون عفوياً وصادقاً، وأجد مع ذلك من يحبنى ويتواصل معى. كنت فى علاقاتى السابقة كمن يتعلم السباحة، ويبذل جهداً مضنياً وهو يتشنج ويعض الماء ويضربه بيديه وقدميه ورأسه وصدره، دون أن يفلح فى البقاء طافياً، وما أن نسى خوفه وتشنجه، وأسلم نفسه للماء دون عناء، حتى صار قادراً على السباحة. وكنت فى أعقاب هذه العلاقات السريعة الفاشلة، أنقم على نفسى لأننى لم أستطع أن أتجاوز التربية التى أورثتنى تكويناً نفسياً لا يقوى على انشاء العلاقات

السوية. وما أن جاءت ليندا، حتى أذابــت هــذا الاحســاس. كشطت كل الأتربة التى تراكمت فوق الأنســجة والخلايــا، وطردت الأشباح التى تنوح فى خرائــب الــروح. عاطفــة ساخنة، تبخرت معها الهواجس والتحفظات، وتهــاوت تلــك الأسوار التى نقيمها حول أنفسنا لكى لا ينتهك الآخرون شيئاً ثميناً نطوى عليه صدورنا، ونحتفظ به لأنفسنا، ونقيم حولــه المتاريس والتحصينات خوفاً عليه من الأذى. تحررت مــن ميراث الخوف الغريزى وخرجت من أصدافى إليها. نبع من الماء والضوء تغتسل فيه الروح عارية بمثــل مــا يغتســل الجسد. معها رأيت لندن فى ضوء جديد، مدينة أخرى غيــر تلك المدينة التى جئتها غريباً وبقيت خلال إقامتى بها غريباً. أرى وجودى يتلاشى فى حضورها الشامخ فــأحس نحوهــا بمشاعر غامضة من الخوف والرهبة والكراهية والاعجاب. مع ليندا صارت لندن أكثر إنسانية ودفئاً، ومعها تعلمت حكمة صرت أرددها لنفسى وللآخرين »حاذر أن تدخل مدينة كبيرة دون أن تكون مسلحاً بامرأة تحبها«.

عندما وصلنا إلى البيت، وهرعت ليندا تعانق دونالــد، فتشت عن مشاعر الغيرة فى قلبى، فلم أجد فــى تعانقهمــا،

وتبادل القبلات بينهما، شيئاً يثير غيرتى أو كدرى، ولم أجد أيضاً أى احساس بتبكيت الضمير لأننى أقتحم حياة زوجية هانئة. بدا واضحاً الآن، أن كل طرف فى هذه اللعبة قد عرف دوره ومكانه فيها. صنعنا مثلثاً تتساوى أضلاعه، ووقفنا فى زواياه نراعى المسافة التى تحفظ له استقامته واتساقه. تقدمت لتحية دونالد، أبحث فى نظراته عن تفسير لموقفه من هذه العلاقة. إنه بلا شك يحب ليندا، ولم يكن ترحيبه بها الآن زائفاً، فهو مرتاح لفكرة أن ما بينى وبينها ليس إلا علاقة مؤقتة، وما أنا إلا رجل عابر فى حياتها، وستعود ليندا بكاملها إليه بعد أن تكون علاقتى بها قد استنفدت زمانها وأغراضها. من حقه أن يصنع وهماً ويسكن فيه هانئاً. إننى لا ألومه ولا أفتعل خصاماً معه. وسأسعى منذ اليوم لتعميق صداقتى به. قررت أن أكون عادلاً فى تعاملى معه هذا المساء، وطالما ارتضى أن تكون ليندا امرأتنا المشتركة ومصدر سعادة نتقاسمها معاً، فمن حقه أن يستفرد بها اليوم بعد أن أخذتها منه طوال الأيام الثلاثة الماضية. تركتهما وذهبت أُلبِّى موعداً مع عدنان فى حانة العناقيد. وجدت فى الحانة أحد المنتسبين لفرقة التمثيل يبلغنى بأن

مخرج الفرقة يبحث عنى. لعله أعد لى دوراً أكثر أهمية فى مسرحيته الجديدة، ولكننى سأبقى وفياً لرمحى ولن أتخلى عنه حتى لو كانت المسرحية عن حرب النجوم. دخـل عـدنان ليسمع طرفاً من الحديث الذى ورد فيه ذكر الرماح، فمضى يدندن ببيت عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى

وبيض الهند تقطر من دمى

قطعت حديثى مع الممثل وخاطبت عدنان بالعربية:

– لعلك تنبهت إلى ما ينضح به البيت من عنف وجنس لكى تدرك أن الموضوع الذى اخترته لرسالتى لم يكن عبثاً. إنه يدخل فى نسيج الأعمال الإبداعية قديمها وحديثها، وجئت أثبت به أسبقيتنا فى هذا المضمار.

– يا له من مجد تضيفه لأمتنا!.

– وبيت عنترة خير دليل على ذلك.

– اختلطت لديك المفاهيم فما عدت تفرق بين الجـنس والحب.

– إنك لو تأملت البيت بعينى ناقـد يعتمـد مـدارس التحليل النفسى لوجدت أن للرماح التى تنهـل مـن الجسـد

والسيوف البيضاء التى تقطر دماً والتى يذكرها الشاعر بتلذذ وهو يتذكر فم معشوقته، معانى جنسية لا سبيل إلى إنكارها. ولو تأملته بعينى ناقد يعتمد المدارس البنيوية لوجدت أن لكلمات »ذكرتك« و »تقطر« و »دمى« و »نواهل« و »منى« و »بيض« و »رماح« فيضاً من التداعيات الجنسية التى تجعل من رعشة الحرب ورعشة الجنس شيئاً واحداً.

سأل الممثل الذى يقف بجوارنا أن نترجم له ما نقول، فتطوع عدنان بتقديم ترجمة سريعة لبيت عنترة قضت على جماله وما فيه من حرب وجنس. تطيرت من سوء الترجمة واقترحت أن ننتقل إلى مكان لا نجد فيه من يعاتبنا عندما نتحدث بالعربية. قال عدنان ونحن نحتسى قدحين من البيرة فى حانة أخري:

– أذن فقد صرت تعرف أن هناك فرقاً بين الحب والجنس.

– ما أن اهتديت إلى الحب حتى صارت نفسى تعاف الاقتراب من جنس لا يرافقه الحب.

– كأنك لم تعرف حباً قبل اليوم؟

– ولماذا يجب أن أعرفه؟ أليس الحب هو هذه التجربة الفريدة النادرة التى لا تتكرر كثيراً فى حياتنا؟

– ولكن هل وجدتما طريقة آمنة وأكيدة تتخلصان بهـــا من الزوج. إنه عقبة فى سبيل هذا الحب. وأنا لا أنصح بالسم فهو وسيلة قديمة ما أسهل أن يكتشفها المحققون.

– ألا تتخلى عن طبيعتك الهازلة؟

– ولماذا تظن أننى أتكلم هازلا؟

أعرف الجرح الذى عانى منه عدنان لمدة طويلة. أحب امرأة من أهل هذه المدينة وتزوجها وأنجب منها طفلا. وبعد اكثر من أربع سنوات من الزواج ظهر فى حياتهـــا رجـــل آخر، ذهبت لتعيش معه بعد أن حصلت على طلاقهـــا مـــن عدنان. وبرغم أن ذلك حدث منذ عـــامين إلا أنــــه لا يـــزال يخوض أعتى المعارك أمام المحاكم لاستعادة الطفـــل الـــذى أخذته معها. إنه لا يستطيع أن يرى فى ليندا إلا نسخة أخرى من زوجته التى هربت مع رجل يسميه رفيقها فى الخيانة. لم أكن أوافقه على هذه النعوت. امرأة أحبته، وارتضت بالزواج منه. ثم لأمر ما انتهى حبها له فجـــاءت تصـــارحه بحقيقـــة مشاعرها وتطلب منه الطلاق. أمر مؤسف فى حق الطفـــل،

ولعله مؤسف فى حق عدنان أيضاً ولكنها حقائق الحياة التى ترغمنا على أن نتعامل معها دون حاجة إلى أن نسمى الأشياء بغير أسمائها. وإذا أراد أن يعتبر ما بدر من زوجته غشاً وخيانة، فإن علاقتى بليندا مبرأة من هذه التهم. إننى صادق فى عواطفى نحوها وصدقى شهادة لى بأننى لم أكن شريكاً فى مؤامرة تعتمد الغش أو الخداع. أوضحت له موقفى قائلاً إن زوجها لم يكن مرغماً على القبول بهذه العلاقة وطالما ارتضى بها فكيف يسمى ما يحدث غشاً.

- هل تصدق أن هناك رجلاً يرضى بشىء كهذا؟

- المشكلة أنه راض وانت الذى لا تريد أن ترضى.

- وهل تثق أنت بامرأة تخون زوجها أمام عينيه؟

- ما أسهل أن يتلون كل شىء أمامك بلون الخيانة.

إن ما بينى وبينها شىء فوق هذه المعايير التى يقيس بها الناس المشاعر والعواطف والعلاقات كما يقيسون البدل والفساتين، فوق تعاليم المؤسسات التى تريد أن تمسخ أشواق الإنسان وتطالبه بأن يتنكر لذاته الحقيقية ويرفض الإنصات لأى هاتف يصدر من داخله، لأن هذه هى الخيانة. خيانة لأنفسنا قبل أن تكون خيانة للآخرين. نتظاهر بما ليس فينا

ونسميه شرفاً وبراءة، ونضع ألْحفة سـوداء فـوق قلوبنـا ونمضى فى الحياة بقلوب عمياء يقودهـا التقليـد والأفكـار الميتة. ليندا لا تستطيع إلا أن تكون صادقة وشريفة. ولـذلك فهى لم تخبئ شيئاً عن زوجها. عرضت عليـه أن ترحـل فازداد تمسكاً بها. ألم تقتنع يا أخي؟

تنبهت إلى أننى أتكلم بصوت مرتفع. أتكلم غاضباً دون موجب لكل هذا الغضب. كلانا غريب ها هنا. ولعل غربتـه أكثر فداحة لأنه لا يدرى متى تنتهى. سألته أن يزورنا لنسهر بصحبة ليندا التى أعجبها عزفه الشرقى، وسيعرف على وجه اليقين أننى أحب دونالد ولن أضع له سمًّا فى طعامه.

تعمدت أن أعود متأخراً" تلـك الليلـة إلـى البيـت، وخرجت مبكراً عندما جاء الصباح لكى لا ألتقى بهما. أردت أن أقضى النهار كله فى المكتبة أعد أوراقـاً حـان موعـد تقديمها إلى المشرف على رسالتى. قاومت هذه الرغبة التـى تطالبنى بأن أعود إلى البيت فى أثناء النهـار لأرى لينـدا. يجب أن أكون كريماً مع دونالـد، حريصـاً علـى الوفـاء بالتزامات الشراكة التى بيننا والتى تقتضى أن أتركها له أياماً بعدد الأيام التى قضيتها معها. انتهى دوام المكتبة فذهبت إلى

الحانة وخرجت مع الخارجين عندما دق ناقوس الختام. كان الطقس بارداً، وكنت أرتدى بلوفر زررتـــه حتـــى العنـــق، واتخذت طريقى سيراً على الأقدام، مبالغة فى الحرص على العودة المتأخرة إلى البيت. مشيت أصفر وأغنـــى بصـــوت مرتفع أغنيات بدوية لا يعرفها هؤلاء الناس الذين تقذف بهم الحانات إلى الطرقات فى منتصف الليل. انتبهـــت إلـــى أن شعرى صار طويلاً ويجب أن أقصه غداً أو بعد غد. ولكـــن ليندا تعرفنى بهذا الشعر الذى لم يزر دكاكين الحلاقين منـــذ أكثر من عام، وقد يتغير شعورها نحوى لو أننى أزلته وتبدل مظهرى. فكرة ساذجة، ولكن الحب كما بدا لـــى فـــى تلـــك الساعة المتأخرة من الليل، إنما يتغذى بالأفكـــار الصـــغيرة الساذجة. كان الطريق يمر بمنطقة خلاء، مجرد فضاء مـــن العشب يحاذيه فضاء من الماء، يتكدس فوقهما الظلام. وكنت فيما مضى من أيام أمرّ بهذه المنطقة ليلاً فتوقظ فى ذهنـــى مخزوناً من كلمات التحذير التى سمعتها فى طفولتى عنـــدما كان الأهل يمنعوننى من مغادرة البيت بعد الغروب خوفاً من أشباح الليل. ولكننى الآن أمتلئ بفرح غامض تبعثه فى نفسى الأصوات التى تصدرها جنادب هجعت تحت الأعشـــاب، أو

ذلك الغناء بكثافته الغريبة، الذى يصدر من ضفادع البحيرة. لم أقف مع الواقفين أنتظر الحافلة الليلية، وعندما جاءت وأنا ما زلت قريباً من المحطة لم أعد راكضاً لألحق بها. تركتها تمضى لأننى كنت سعيداً بالليل والظلام وهذا البرد الذى يلفح وجهى. ولم أكن وحيداً. كان يتهيأ لى أننى أحاور ليندا حواراً يتفق مع حضورها الأثيرى، وأخاطبها بكلام صامت كـذلك الكلام الذى نخاطب به طائراً جميلاً، كثير الألـوان، خفـق بأجنحته فوق رؤوسنا ساعة الرحيل، فأشـاع فـى أنفسـنا احساساً بالبهجة والأمان، أو نخاطب به زهرة لها تويج مـن نار، تألقت فجأة فى عتمة نهار ممطر، وأرسلت رعشة الفرح فى صدورنا. أو نستحضره لحظة أن تأتى موسيقى الفجـر، وتنداح فى يوم ربيعى، عبر نافذة مشرعة تغطيها ستارة من قماش أبيض شفاف. أو نناجى به أى شىء مـدهش جميـل تبعث رفقته البعيدة أبخرة دافئة تملأ القلب. دخلـت، عنـدما وصلت البيت، على أطراف أصابعى. أضأت النور ووقفـت أنتظر حدوث المعجزة. أن تتجسد ليندا أمـامى فـى هـذه اللحظة، أن تظهر فجأة من خلف باب مغلق وتأتى لمعانقتى. تأملت ساخراً من نفسى هذه المفارقة. أتعمد العودة متـأخراً

لكى لا أراها، وأدخل على أطراف أصابعى لكى لا أوقظها، ثم أقف وسط ردهة البيت، أمنِّى الخاطر بلقياها. ضحكت من سذاجتى. أطفأت النور وتلمست طريقى فى الظلام صـــاعداً إلى غرفتى. ودون أن أتوقف لأسأل من أين جاء هذا العبير الذى تعبق به الغرفة، أضأت النور أخلع أردية النهار وأدخل فى لباس الليل. وقبل أن أرتمى فوق السرير، انبثقت ليندا من بين الشراشف كأنها تنبثق من مملكة الحلم والأساطير، تفــتح ذراعيها وتعانقنى. ارتدت لباس نوم وردى، ووضعت فــوق جسمها عطر الأعشاب الصحراوية، وجاءت تباغتنى. لم أجد وسيلة لتصريف هذه الشحنة من الدهشة والفرح التى أثقلــت روحى، سوى أن أطلق صرخة بدائية، هاتفاً باسمها :

– ليندا.

– ما رأيك أيها البدوى؟

– إنك تقتليننى بلا شفقة ولا رحمة.

قلتها صادقاً. فقد جاءت هذه المفاجأة تفرغ الهواء مــن صدرى. ولاهثاً صرت أبحث عن هواء أتنفسه فلا أجد سوى عطر أعشاب الصحراء يلفحنى. عانقتها وكأننى أعانق نجمة هربت من سمائها وحطت فــوق صـــدرى، تمـــلأه وهجـــاً

واحتراقاً. احتفظت بها فى حضنى وكأننى أخاف أن تأتى يد من خلف ظلام الدنيا وتسرقها منى. قبلـت جبينهـا النقـى امتناناً، وعرفاناً بهذه النعمة، وتأملت مشدوهاً هـذا الوجـه وهاتين العينين وهذا القميص الوردى الذى احتوى ورداً أكثر بهاء وحسناً، وكأننى لا أصدق هذا المشهد، الذى كـان منـذ لحظات أمنية وحلماً. فاضت من جبينهـا وعينيهـا بـراءة الحقول المغسولة بضوء القمر ولكن الشفاه التى بللها (الروج) الندى لا تتحدث سوى لغة واحدة هى لغة الجمر. مدت يدها تدير جهاز التسجيل، فانسابت الموسـيقى، هادئـة صـافية، تضيف صمتاً إلى صمت الانخطاف والذهول. تصاعدت من الصدر سحابة ثقيلة من الأسى. أحـاطتنى ليندا بـذراعيها فأسندت رأسى على كتفها، وبكيت دون بكاء. أدركت أننـى أختزن حزناً كثيراً فى نفسى. لماذا وسط مهرجـان الغبطـة يباغتنى هذا الوجع؟

- تؤلمنى كثيراً تلك الأيام التى مضت من عمرى قبل أن ألتقى بك.

أقول لها ذلك مدركاً على وجه اليقـين أننـى لسـت مهموماً بتلك الأيام وإنما بالأيام القادمات، لأننى ولأمـر مـا

أحس بأن هذه الأنثى التى أذاقتنى من ثمار فردوسها الأرضى، سوف لن تكون لى غداً، وأننى كما قال زوجها، مجرد عابر طريق، مسافر وجد ظلاً لقيلولته قبل أن يأخذه الطريق مرة أخرى. ولسوف أستيقظ ذات يوم لأجد نفسى مرمياً فى الخلاء، مطروداً من بساتين هذه المرأة، وأن هذه الغرفة العابقة بالعطر والموسيقى، وهذه الجدائل المغسولة بماء الذهب، وهذا الفيض النابع من صفاء العينين ودسامة الجسد، أشياء طارئة فى حياتى وأنا طارئ فى حياتها.

وعندما احتوانا الفراش، واهتدى الجسد إلى الجسد الذى يناديه، أسلمنا أنفسنا إلى عبقرية الطبيعة تصوغ لحنها، وتكتب حوارها، وتؤسس أبجديتها الجديدة. جمر يتقد ويشعل الحرائق فى أردية الليل. تشابكنا تشابك الضوء بأغصان الشجر، وانطلقت الخلايا التى أمضها العشق والضنى، تعزف مثل طيور الفجر نشيد اللوعة والاشتهاء.

شهدت حياتى اندماجاً كاملاً فى حياة العائلة الصغيرة. أصبحت طرفاً ثالثاً يشارك الزوجين وجبات الإفطار والعشاء. أدفع حصتى فى مصروف البيت، وأتناوب معهما على غسل الصحون وشراء الحوائج من السوق، وأشارك

أحياناً فى إعداد الطعام عندما أسبقهما إلى البيــت، فأشــوى شرائح اللحم أو أقلى فطائر السمك. كمــا انتظمــت وتيــرة العلاقة الليلية بينى وبينها. صرنا نكتفى بالنوم معاً ليلتين فى الأسبوع. لم نحدد لهما موعداً ثابتاً، ولم يكن هــذا الموعــد يقتضى إلا أن تضع ليندا عطرها الصحراوى منــذ المســاء ليكون علامة تدل عليه. ننتهى من سهرتنا فنودع دونالــد إذا لم يكن قد ذهب إلى النوم، ونصعد إلى غرفتى. كــان هــذا النظام مفيداً لدراستى. أتاح لى وقتاً أنصرف خلاله إلى كتبى وكراريسى. لم أعــد بحاجــة إلــى أن أطــوف المــراقص والحانات، وأرود إلى الأندية الطلابية وجمعيــات التمثيــل، أتسول علاقة عابرة مع إحدى النساء، بعد أن تحققت لى هذه العلاقة الآمنة المستقرة.

ازددت اقتراباً من دونالد نتيجة حبنا المشترك لامــرأة واحدة. صرت أتردد كثيراً على مكتبه وأنتظره أحياناً حتــى ينتهى من عمله لنعود معاً إلى البيت، ونتوقف قليلاً بإحــدى الحانات نتحدث عن ليندا. فكلانا مغرم بالحديث عنها. ومــا جاء ذكر مكان نختاره لنزهتنا، أو غرض نشتريه لمائــدتنا، إلا وكان الهدف هو اسعاد ليندا. فكل شىء فى حياته وحياتى

يبدأ بليندا وينتهى بها. ولم أعد مسوقاً بذلك الفضول الذى يبحث عن سبب قبوله بهذه العلاقة. صرت أفهم منطقه، وأدرك ما يحتويه من تسامح وتجاوز للذات.

أخبرنى كيف بدأ بتحضير رسالة عن الديانة البوذية، ثم أهملها لأنه كان فى تلك الأيام مشغولاً مع إحدى الجمعيات الهيبية بالانتقال من مدينة إلى أخرى لحضور حفلات الموسيقى الدارجة، وأنه عاش أكثر من صيف بإحدى المنتجعات التى يقيمها أبناء الطبيعة، يعزفون الموسيقى، ويتقاسمون لفائف الأعشاب المخدرة، ويستمتعون بمشاع العلاقات الجنسية. وبرغم إهماله لتلك الرسالة، وانخراطه فى العمل مكتبياً بالجامعة، فإنه لم يتخل عن شوقه لدراسة البوذية. وهو مازال يطالع تعليمات بوذا، ويمارس بين الحين والآخر تمارين اليوجا، ويحاول الارتقاء إلى تلك الحالة من الصفاء والشفافية التى تسميها التعاليم البوذية »النيرفانا«، والتى تتيح للإنسان الاندماج بروح الكون.

– وكيف استطاع الهيبى القديم أن ينتظم فى مؤسسة الزواج؟

جاء السؤال عفو الخاطر، وإن لم يأت مبرّأً من الخبث.

- إننى لا أقيم اعتباراً للمؤسسات، ولكننى أعتبر نفسى محظوظاً لأننى فزت بامرأة مثل ليندا.

لم أقل شيئاً، فأضاف وكأنه أدرك معنى السؤال:

- وإذا اتسعت دائرة السعادة التى تصنعها ليندا لتشمل إنساناً غيرى، فإن ذلك لن ينقص من سعادتى شيئاً.

سألت ليندا فى أثناء لقائنا سؤالاً مفاجئاً:

- هل تحبين دونالد؟

كان السؤال لا معنى له، سؤالاً زائداً عن الحاجة، يأتى فى وقت ليس وقته، ويفضح احساساً بالخوف من شىء مجهول. ولعلها اشتمت فيه راحة الغيرة، فقد ابتسمت بغموض وهى تعيد إلى السؤال:

- وكيف تراه أنت؟

- إنه مأثرة للإنسانية.

- إذن فنحن الاثنان نحبه.

- سيكون أكثر جمالاً لو استطعنا أن ننسخ منك نسختين، واحدة له وواحدة لى.

– ألا تضيع قيمة اللوحة عندما تصبح نسخة؟

– شرطى الوحيد أن أحتفظ بالأصل.

– ها هو الأصل بين يديك، فلماذا تذهب بعيداً؟

نعم، نعم. إنه بين يدى الآن. أشمه وأضمه وأستمتع بتقبيله، أضيع فى عطره وأرحل عبر حقوله الذهبية. هذا الأصل الذى لا نسخة ثانية له فى الكون، فلماذا أذهب بعيداً؟ ولماذا ينصرف ذهنى للبحث عن حلول لمشاكل لم تنشأ بعد، ويشقى بهموم وأوهام يصنعها من الهواء؟ لأمتثل إذن لأوامر سيدتى، ولأمنح نفسى كاملة لدوامة العطر المستحضر من عشب البوادى، وموائد الجسد المصنوع من حدائق الصبح.

لم نكن نتحرك فى دائرة كبيرة من الأصدقاء. وهؤلاء الأصدقاء القليلون لم نعد نلتقى بهم بعد أن جاءت العطلة الصيفية وأفرغت المدينة من أهل الجامعة. صرنا نكتفى بأنفسنا، ونصنع كلما جاءت عطلة الأسبوع احتفالاً صغيراً لا يشاركنا فيه أحد. نذهب للنزهة خارج المدينة، أو نحضر مباراة بالمركز الرياضى، أو نشاهد فيلماً أو مسرحية. ونتناول العشاء أحياناً على صوت الموسيقى فى المطاعم التى تخصص حصة ومكاناً للرقص. لم ينقطع هذا البرنامج

إلا عندما أرادت ليندا أن تعتنى بوالدتها التى كانت تمرّ بأزمة صحية، والإقامة بجوارها فى البيت الريفى. ذهبت ليندا وتركت ضلعاً مكسوراً فى مثلث هذه العلاقة. وجدت نفسى أقضى اليوم الأول وحيداً فى مواجهة دونالد، فاتخذت غيابها عذراً لأن أغيب أنا أيضاً. ذهبت لقضاء أيام من شهر الصوم واحتفالات عيد الفطر مع أهلى فى طرابلس، وعندما عدت بعد أسبوعين كانت ليندا قد عادت إلى بيتها، فرجعت أتبارى مع دونالد فى خدمتها، واقتراح أماكن للنزهة نذهب كل أسبوع إليها. أتاح لنا الصيف فرصة أن نجوب الأراضى العالية ونبلغ أكثر هضابها ارتفاعاً، نلتقط الزهور البرية ونصنع بها تاجاً لها. أرادت ليندا فى أثناء إحدى الجولات أن نذهب معها لزيارة قصيرة إلى بيت أهلها. كان البيت قريباً من مكان نزهتنا. بيت صغير من طابق واحد، يتوسط مجموعة بيوت مبنية بالقرميد الأحمر، فوق تلة تشرف على سهوب خضراء، وتحيط بها الهضاب العامرة بأشجار السنديان وجداول الماء. لم أكن متحمساً لفكرة الدخول فى طقوس عائلية تفرض قيداً على انطلاقتنا وحريتنا، ولكننى وافقت ارضاءً لها. كان الأب رجلاً سبعينياً تفيض عيناه

الصغيرتان بالحيوية، وإن بدتا غير منسجمتين مع بنائه الجسمى العريض. قدمتنى له ليندا وما أن عرف اسم بلادى حتى بدأ بالحديث عن ذكرياته عنها أيام الحرب. كانت كلماته تنتمى إلى الماضى ولكنها لأمر غامض لم أستطع إدراكه، بدت كأنها نذير بما سوف يحدث فى أزمنة قادمة. انشغلت ليندا بتحضير الشاى الذى جاءت به مع قطع الجاتوه، وغاصت الأم فى كرسيها تنظر فى الفراغ. نحيفة، عليلة، رغم أنها أصغر سناً من زوجها. وجلس دونالد صامتاً يدخن غليونه. فى حين مضى الأب يقول:

– عشت عامين فى بلادكم، ولم أر منها إلا الرمال. لم أر مدناً أو بشراً، لم أر جبلاً أو نهراً أو شجرة. لم أر حقلاً أو أبنية أو سوقاً. لم أر من بلادكم إلا الرمال التى كانت تمتد على مدى الأفق، وتحيط بنا من الجهات الأربع، تتوهج تحت شمس شديدة السطوع والقسوة، ساكنة دائماً ولكنك لو أطلت النظر إليها لرأيت أنها تتحرك تحت كثافة الأبخرة التى يصنعها القيظ. ترتفع وتنخفض كأنها لهاث حيوان هائل يرقد خلف الأفق. وكان يسحرنى سكونها المتحرك وامتدادها الذى يوصل الأزل بالأبد. ويشيع فى قلبى الأمان وسط أجواء

الحرب ومواجهة احتمال الموت. ولذلك فقد كنت أكثر الناس اندهاشاً عندما خذلتنا تلك الرمال وتآمرت ضـــدنا. جـــاءت تتحالف مع رومل وتمنحه غطاءً لدباباته وجنوده، جاء رومل زاحفاً بجيشه علينا. جعل الريح خلف ظهره، وجـــاء يشـــن بمعاونة الرمال هجوماً كاد يفسد علينا الحرب العالمية كلها. كنا حلفاء بلادكم فى الحرب، فى حين تحالفت رمـــالكم مـــع أعدائنا.

وأضاف وهو يمد بصره عبر النافـــذة المطلـــة علـــى السهوب:

– إن رمالكم لا أمان لها. نعم لا أمان لها.

كان يتكلم واقفاً، ويسرد ذكرياته بانفعال وحماسة وكأنه يؤدى مشهداً مسرحياً. رأيت ليندا تنظر نحـــوى، فأشـــحت ببصرى بعيداً، ولا أدرى لماذا أحسست برعشة عندما قـــال جملته الأخيرة، وكأننى أخشى أن تكون الرمال قد اعتبرتنى ابناً عاقاً نسى ولاءه لها، وانتماءه لصحرائها، فـــادخرت لـــه عقاباً شديداً يوم يعود.

وكنت عندما أذكر كلماته بعد ذلك يتراءى لـــى كـــأن برامج النزهة وارتياد المسارح والملاعب، وما كنا نقوم بـــه

من نشاط يومى، لم يكن إلا ذريعة نختلقها لكـــى لا نتوقــف لحظة لمواجهة أنفسنا، كأننا نهرب بواســطتها مـــن شـــىء، نخشى لو توقفنا لحظة عن الحركة لجاء يهاجمنا ويفسد علينا متعة النسيان. لم يكن ذلك صحيحاً، فهى مجــرد تــداعيات أيقظها فى ذهنى حديث العسكرى العتيق الذى ظــل لاصــقاً بذاكرتى، وظل مشهده وهو ينظر نحوى بعينيه الســنجابيتين المشحونتين يثير فى نفسى احساساً بالإثم وكــأننى أتحمــل وحدى مسؤولية الرمال التى غدرت به بعد أن منحته الأمان. وبرامج النزهة ذاتها، صارت الآن تتضاءل، بعد أن انتهــى الصيف وعاد لأدنبره وجهها القاتم.

لم أعد أرى أحداً من الجيران الذين تعودت أن أراهــم يزورن أحياناً ليندا ودونالد للدردشة وتناول الشاى. تصورت أن ذلك جاء نتيجة ضيق الوقت الذى لم يعد يتسع لاســتقبال هذه الزيارات. ثم تدريجياً أدركت أن هناك سبباً آخر، إنهما عن عمد لا يريدان زواراً فى بيتهما خوف أن يشك أحد فى هذه العلاقة التى تربطنى بليندا وتصبح بالتــالى موضــوعاً لحديث جلسات الشاى فى البيوت المجاورة. ولكن هذه العلاقة التى يجهلها الجيران صارت معروفة لدى عدد من أصــدقاء

الحانة وزملاء الجامعة. أو هذا ما أنبأني به عدنان. التقيته بمقصف المكتبة، جالساً بصحبة امرأة هندية قال إن اسمها »انار« جاءت منذ بداية العام الدراسي للعمل بقسم الدراسات الشرقية، مدرسة للغة السنسكريتية. وما أن عرفت اسمى حتى بادرت بالقول:

– إذن فهو أنت؟

ضحكت دون تعليق، فقد ذهب فى ظنى، أنها تشير إلى رسالتى عن ألف ليلة وليلة، التى تعودت أن يستقبلها الناس ببعض الاندهاش. جلست أنصت لحديثهما حول الحياة الروحية، دون أن أسألها عن سبب الاستغراب. وجد عدنان فى لقاء امرأة تأتى من بلاد الأساطير والايمان بالقوى الغيبية الخارقة، مناسبة للحديث عن هذه الجمعيات الروحية التى تنتشر فى كل مكان، لكى تعيد التوازن إلى هذا المجتمع الذى احتفل بانجازات العقل، وتناسى جلال الروح، كما يقول عدنان. ومضى يدلل للمرأة الهندية على صدق كثير من النبوءات التى يقولها الوسطاء، وقدرة الطب الروحى على معالجة حالات عجز عنها الطب الحديث، وأخرج من جيبه

نشرة تصدرها هذه الجمعيات، تتحدث عن وسـيط روحـي تستعين به الشرطة فى حل الجرائم الكبرى. قلت ضاحكاً:

– عهدناك تسعى لتجنيد الناس فى جمعيتك السياسـية التى تبشر بما بعد اليسار، فإذا بك اليـوم تسـعى لاقنـاعهم بمزايا الحياة الروحية والجمعيات التى تبشر بما بعد الموت، فما الذى حدث؟

– الآن وقد رأيت النور، ما عدت أقـيم شـأناً لغيـر الروح.

كنت أرقب منذ زمن كيف بدأ عدنان يتخلى شيئاً فشيئاً عن ارتباطه العقائدى بجمعيات اليسار، ويمنح وقتـاً أكثـر لاهتماماته الروحية. كنت أتساءل بينى وبين نفسى عن سـر هذه الانقلابات التى تحدث فى قلوب الرجال. لا شك أنه تأزم كثيراً نتيجة الزوجة التى هجرته إلى رجل آخر، ووجد نفسه يعيش فراغاً كبيراً بعد انهيار حياته الزوجية، ولا بد أن هذا الفراغ هو الذى ذهب به فى هذا الاتجاه، ملتجئاً إلـى عـالم الأرواح التى تهيم فى الفضاء، باحثاً فيه عن تعويض لفشـل العلاقات التى تنشأ بين البشر الذين يعيشون فـوق الأرض. قلت متسائلاً:

- وأين ذهب رجل القضايا الكبيرة؟

- إنه لا يزال موجوداً. ولكن ما أسهل أن تصبح القضايا الكبيرة، قضايا هامشية أمام جلال الروح وعظمتها.

وأضاف متجهاً بالحديث إلى »انار«:

- سألته كثيراً أن يأتى ليرى بنفسه ما يحققه الوسطاء الروحيون من معجزات.

رأيت حماسة المرأة لحديث الأرواح، فلم أشأ أن أقول كلاماً يستفز إيمانها بها. قلت مجاملاً:

- لست ضد الوسطاء الروحيين ولكننى أخشى الضجر.

- تعال معنا هذا المساء ولسوف تكتشف أن حديث الأرواح أكثر إمتاعاً من أحاديث الناس.

- سأذهب شريطة أن تفى بوعدك لاحياء سهرة فى بيتنا.

رأى الصديقة الهندية تبدى رغبتها فى الاستماع إلى عزفه، فلم يماطل كثيراً، ووافق على هذا الشرط.

فى طريقنا سيراً على الأقدام إلى الجمعية الروحية، عرفت منه أن ما أدهش انار وهى ترانى لأول مرة، لم يكن

موضوع الرسالة الجامعية التى أكتبها، وإنما شيئاً سمعته عن طبيعة العلاقة بينى وبين زوجة صاحب البيت الذى أسكنه، وعرفت أننى أجاهر بهذه العلاقة التى يحيطها الناس فى كل المجتمعات بالتكتم الشديد.

– أتمنى ألا تكون أنت الذى أخبرها.

– لا أراك تقيم اعتباراً لما يقوله الناس، فما الجديد الذى يفاجئك إذا كان بعض الأصدقاء فى حانة العناقيد يتحدثون أحياناً عنك وعنها؟

– أعرف أنك منذ البداية ضد هذا النوع من العلاقات، فلا تبالغ فى وصف الأشياء.

– علمت أن أحد أصحاب دونالد فتح أمامه الموضوع بقوة، وسأله أن يطردك من بيته.

– هل حدث ذلك فعلاً؟

– هذا ما سمعته من صديق كان شاهداً لما جرى.

عندما وصلنا إلى مقر الجمعية، كنت حانقاً، أردد فى خاطرى قولاً قديماً يهزأ بكلام الناس، أخفف به وطأة الأسى الذى داهمنى. تمنيت لو أن عدنان لم يخبرنى عن هذه الأحاديث التى يتناقلونها خلف ظهرى. إن أموراً كهذه لا

تستطيع أن تنال شيئاً من بهجتنا، أو تترك أثــراً ســيئاً فـــى نفوسنا، طالما ظلت مجهولة لدينا. لعلهم كانوا يتكلمون عــن هذه العلاقة من قبل أن تبدأ، ولكن ذلك لم يضايقنى لأننى لم أكن أعرف به. وعندما عرفت اختلف كل شىء حولى. حتى الهواء الذى يدخل رئتى صار الآن أقل نظافة وأكثر ثقــلاً. وكأن هذا الحديث يتغذى على الهواء الذى أتنفسه. إننـــى لا أستطيع أن أكمم أفواه الناس ولا أستطيع فى ذات الوقــت أن أنسى ما يقولون. ربما لأننى جئت من بيئة تضـــع اعتبــاراً كبيراً لكلام الناس، لأنه يتحول أحياناً إلـــى خنـــاجر تجــز الأعناق، أو أعيرة نارية تخترق الصـــدور، عنـــدما يتصـــل بالشرف والنساء. أعرف أن الأمر يختلف هنا، وأن مثل هذه القضايا تصبح شأناً شخصـــياً لا يهـــمّ إلا صـــاحبه، فلمـــاذا يداهمنى هذا القلق الذى لا معنى له؟

كانت القاعة تمتلئ بنساء عجائز يستمعن إلى الوسيطة الروحية التى وقفت على المنصة تتلقى رسائل الموتى وتنقلها إليهن، وانعكست حالتى النفسية على ما أرى وأسمع، فبدا كل شىء فى هذه الصالة كئيباً يبعث على الضجر. بما فى ذلـــك هذه الوجوه التى هرب منها ماء الحياة، وغلفها وجوم يشـــبه

الغيبوبة وهى تتلقى الكلمات التى تأتى من عالم الغيب. كنت قد اكتشفت أن هناك امـــرأة صـــغيرة الســـن، ذات جمـــال ونضارة، تندس بين هؤلاء العجائز. انشغلت بـــالنظر إليهـــا متسائلاً عما جاء بها إلى هذه القاعة المليئة بالأشباح، عندما تنبهت إلى أن الرؤوس تستدير فجأة نحوى، وأن الوســـيطة تحدثنى وترفع يدها باتجاهى، نظرت إليها مذعوراً ونظـــرت حولى بأمل أن تكون الإشارة لا تعنينى، ولكن المرأة لا تعنى أحداً غيرى، فهى على اتصال بسيدة من قريباتى، انتقلت إلى الدار الآخرة محنية الظهر، وقد جاءت من تلك البلاد البعيدة تبغى ابلاغ رسالة لى. لم تذكر الوسيطة اسماً بحجة أنه اسم غريب لا تستطيع نطقه، ومضت تقول كلاماً غريبـــاً عـــن العاصفة التى أطاحت بالأشجار وهدمت الأبنية ولم يحمنـــى منها إلا معطف رماه على جسدى ولى صالح من أســـلافى، وأن هناك الآن من ينادينى نـــداء ملتاعـــاً، يطلـــب عـــونى ونجدتى، وأن أمامى سفراً قريباً إلى هناك، ولســـوف تشـــهد حياتى تغييراً يجب أن أستعد له وأتقبله برضا وايمـــان، لأن الحياة تمضى وفق ارادة عليا لا يملك البشر الفـــانون قـــدرة على ردها. أبلغتنى أننى سأقطع طريقاً يهبط بى من هضاب

خضراء، إلى أرض خلاء لا شجر فيها، وسأجد نفسى أعبر نفقاً طويلاً وأنا أحمل على ظهرى كيساً ثقيلاً. سيلوح لى ضوء فى آخر النفق، وسأرى بعد أن أصل إليه قنطرة، تفضى إلى مشهد لم أكن قد عرفته أو رأيته، حيث سأنزع الحمل عن ظهرى. تنفست بارتياح عندما رأيتها تنصرف عنى وتشير بإصبعها إلى جهة أخرى. لم أستطع أن أهتدى فى كلامها إلى شىء له معنى إذ ليس فى حياتى أنفاق ولا جسور ولا عواصف ولا أكياس ولا معاطف تنتمى لأسلافى الموتى، ولا أعرف أن هناك أحداً من أهلى ينادينى لأنهم يعرفون رقم هاتفى، فهو أيضاً يتحرك بسرعة الروح. قلت ذلك لعدنان الذى كان واثقاً من صدق أقوال الوسيطة، محاولاً أن يساعدنى فى اكتشاف المعانى العميقة لكلماتها. لم أبحث عن هذه المعانى، ولم أعبأ بعلامات الخيبة التى ارتسمت على جبينه وهو يفشل فى تحويلى إلى مريد لجمعيته الروحية. كما لم يستطع هذا الاتصال الغريب بعالم الأرواح أن ينسينى أشباحاً أخرى تنقل كلاماً جارحاً يتناول سيرتى وسيرة ليندا. سحابة من القلق أقامت فى صدرى لا تغادره،

وكأن ما يقوله الناس سوف يصبح نهار الغد فرماناً سلطانياً يمنعنى من أن أرى ليندا أو أقترب منها.

عدت إلى البيت لأجد ليندا مضمخة بعطر الأعشاب الصحراوية، علامة على أنها أعدت نفسها لعرس الليلة. قررت أن أصرف ذهنى عن التفكير فى أى شيء آخر، عدا هذه المرأة، وانتظار لحظة الالتقاء بها فى غرفة مغلقة. قلت لها بشيء من الاستخفاف إننى ذهبت بصحبة عدنان إلى الجمعية الروحية، وتلقيت رسالة من عالم الموتى. سألتنى بلهفة لم أتوقعها عن فحوى هذه الرسالة، فأخبرتها بأنه كان كلاماً غامضاً لم أعرف له معنى. جاء دونالد، وجلسنا لتناول شرائح اللحم التى أعدتها ليندا. كانت تضع الأطباق وتعبر عن رغبتها فى أن تحضر جلسة ترضى فضولها لمعرفة هذه العوالم الغريبة الغامضة، لكنها لا تستطيع الذهاب بمفردها، ودونالد لم يكن يرضى أن يأتى معها. لأنه لا ينشغل بغير القوى الكامنة فى الإنسان ولا يعبأ بالقوى الأخرى. بقيت فى أثناء العشاء أرقب دونالد علنى ألمح تغييراً فى مشاعره نحوى أو معاملته لى، بعد أن كان هدفاً لانتقادات ذلك الصديق. كان وجهه يطفح بالمودة وهو يحدثنى بحماسة عن

كتاب جديد جاءه بالبريد، يتناول جزءاً مهماً من حياة بــوذا. وبعكس الكتب الأخرى التى تصرف اهتمامها لشرح التعاليم البوذية، فإن هذا الكتاب يتناول تفاصيل حياة بوذا الشخصية، ويسرد مراحل عمره المبكرة قبل أن تأتيه رســالة التنــوير تحت شجرة التين المقدسة. لم أكن أعرف كثيراً عن بوذا أو عن علاقته بالتين المقدس، ولكن ما عرفته تلك اللحظة هــو أن قلب دونالد لم يتغير نحوى، وأن رسالة التنوير التى حاول أن يبلغها له صديقه تحت سقف حانة العناقيد لم تجــد لديــه سوى الاهمال والنسيان. أكملنا العشاء وانتقلنا للجلوس أمــام التلفاز، حيث دخن دونالد غليونه، ثم أخذ كتابه الجديد، ودخل غرفة نومه. وما أن أوصد الباب خلفه حتى سألتها أن تــأتى لإنقاذى. اكتشفت وأنا أصل بها إلى غرفتــى أن كــل ذلــك الضيق قد تبدد الآن. فى كل مرة تحتوينى معها هذه الغرفة، أشعر كأنها المرة الأولى، بدهشة الاكتشاف التــى ترافقهــا، وعنف الصبوات فى بدء تفجرهــا. إن كــل ظــلام العــالم الخارجى، لا يجرؤ على أن يتسلل إلى خلوتنا، وكل أنــواع الفتور وبرود العواطف، التى تداهم العلاقات عندما تصــبح روتيناً مألوفاً وآمناً، لم تستطع "أن تتسرب إلى علاقتنا. ليقل

هؤلاء الناس ما يقولون، فإن ذلك لن يزيدنى إلا شوقاً إليها، ورغبة فى الالتصاق بها، والانصهار معها روحاً وجسداً، لكى لا يجد الكلام مسافة بيننا يتسرب منها.

سكت هدير الدماء فى العروق، وعاد الكون ينعم بهدوء عميق، لا تزيده أصوات الأشجار التى يعبث بها الريح إلا سكينة وصمتاً. وأنا أتمدد فوق السرير بجوارها، أمرر سبابة عاشقة بين نهديها وأهبط بها إلى سرتها ثم أعود صاعداً بها إلى المحطة الأولى، أداعب حلمتيها. استيقظت فى رأسى هواجس النهار، فقلت أخاطبها وأخاطب نفسى:

– هناك من يتحدث عنا.

وضاحكة قالت ليندا:

– تقول ذلك بلهجة بطل فى مسرحية اغريقية يتحدث عن تعليمات أصدرها زيوس، رب الأرباب. لقد انتهى عصر آلهة الأولمب الذين يقررون مصائر البشر، وأضحى الإنسان حراً.

– إذن فأنت على علم بما يقولون.

– أعرف أن هناك من هو على استعداد لأن يتحدث منتقداً أى إنسان، سواء فعل شيئاً أم لم يفعل.

أخبرتها بكل ما قاله عدنان، وما أحسست به من كـــدر نتيجة لذلك. انكفأت تضع حلمتيها على صـــدرى، وتمـــرر شفتيها على وجهى. انهمر الشعر الكستنائى يغطينى، ويصنع سقفاً للكون أكثر بهاء واشراقاً. أغمضنا أعيننا. تبادلنا قبلـــة أعادت للدماء هديرها. تبدد السكون الـــذى شـــمل الكـــون. تلاشت الهواجس والظنـــون. دارت الكـــرة الأرضـــية دورة سريعة مجنونة. ارتطمت البحار بالبحار، وتطاير البشر فـــى الفضاء كذرات الغبار. قالت ليندا ونحن فـــى ذروة العنـــاق والانتشاء:

- أطردهم جميعاً من ذهنك، فإن كلامهم لن ينال مـــن حبى لك ذرة واحدة.

نجحت ليندا فى أن تطرد سحابة الأسى من ســـمائى. وجاءت ليلة الفن الشرقى، فتحلقنا حول عدنان الـــذى أحنـــى رأسه فوق العود يداعب أوتاره. اتكأنا فوق الوسائد نرتشـــف النبيذ. ونعلق أعيننا بأوتار العود، ونصـــنع بجلوســـنا فـــوق الأرض طقساً يكمل شروط هذه الليلة الشرقية. وجاءت انار ترتدى سارياً هندياً، تضيف به لوناً آخر إلـــى ألـــوان هـــذه السهرة.

كان الموشح الأندلسى الذى بدأ بــه وصــلة العــزف والغناء، بطىء الايقاع غير قادر، برغم عذوبته، أن يستولى على انتباه آذان لم تألف هذا اللون التقليدى. أحــس عــدنان بذلك فانتقل إلى تقديم ما يحفظه من أغانى سيد درويش. وما أن بدأ يعزف »طلعت يا محلــى نورهــا« حتــى صــاروا يصفقون مع الايقاع ويتمايلون طرباً. لم يكن صوت عــدنان يشبه أصوات المطربين طلاوة، إلا أن غنــاءه كــان مليئــاً بصدق الانفعال وحرارته، واستطاع بما يتقنه من تلوين فــى الأداء وتنويع فى الطبقات والمقامــات أن ينســينا خشــونة الصوت ويأخذنا معه فى رحلة البهجة التى يصنعها الحضور الحى لفنان العرض.

انطلق يرسم بفنه صورة أخرى لليل اسكتلندا، يــزرع فى سماء هذا الليل شمساً عربية، ويســتدعى عالمــاً أكثــر سطوعاً، ويشملنا جميعاً فى لحظة الانعتاق من أسر الواقــع إلى فضاءات الحلم والذكرى. أكمل الأغنية، وارتــاح قلــيلاً يرتشف جرعة من كأسه قائلاً:

– أشعر بأن سيد درويش يحل فى بدنى، إنه هو الذى يغنى الآن.

ورداً على سؤال المرأة الهندية قدم تعريفاً قصيراً بمكانة سيد درويش فى تاريخ الموسيقى العربية. ثم أخذ العود ليعزف »سالمة يا سلامة« بلحنها الايقاعى الراقص، الذى فتح شهية ليندا للرقص. أفسحنا لها مكاناً بيننا، وقمت بالبحث عن قطعة خشب استعملتها آلة ايقاع أنقر عليها، وأردد مع عدنان مقاطع الغناء:

- سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة.

ولا أدرى لماذا، أحسست فجأة بوخز مؤلم فى صدرى. كان قد داهمنى هذا الصباح واعتبرته شيئاً طارئا عندما انتهى سريعاً. لم أشأ أن أتوقف عن ضرب الخشب، أو إظهار أى شعور بالألم، يثير قلق الحاضرين. رأيت عدنان ينظر نحوى مستنجداً، يريدنى أن أضع حداً لهذه الفوضى بعد أن صرت أضرب الخشب بعنف وتشنج. جلست صامتاً، أضع يدى تحت قميصى أدلك بها صدرى وأرقب أنار التى قامت تشارك فى الرقص، نشرت ذراعيها وصارت تسبح سباحة فى الهواء. رقصت برأسها بمثل ما رقصت بأصابع يديها. لم يختف الألم من صدرى وإن تناقص قليلاً. أمرته أن يتحول إلى ركبتى أو ساقى أو ذراعى، فسيكون ذلك أكثر

احتمالاً. لم يفعل فقررت اهماله. واصلت متابعة الرقص والغناء دون أن أغفل عن دونالد الذى أبدى اهتماماً بالمرأة الهندية منذ بداية اللقاء، عندما عرف أنها تتخصص فى اللغة السنسكريتية التى كتبت بها التعاليم البوذية. وكنت أتساءل عما إذا كان اهتمامه بها اهتماماً علمياً صرفاً أم أن له غرضاً آخر. انتهت حصة الرقص وعدنا ندس رؤوسنا فى عود عدنان. أبقيت يدى موضوعة على صدرى حتى بعد أن زال الألم، خرف أن يعود إذا رفعتها. وكنت أحياناً أهمس للينـدا بترجمة الكلمات التى يغنيها عدنان. ضحكت كثيراً عندما ترجمت لها كلمات الأغنية التى انتقل إليها والتى تقول »خفيف الروح بيتعاجب، برمش العين والحاجب« وصارت تغمز بعينيها وتحرك حاجبيها وتبالغ فى اظهار هذا التعبير المضحك الذى أثار انتباه دونالد وانار فأعدت عليهما الترجمة. ضحكنا ثم عدنا لمتابعة الغناء، بينما ظل عدنان مستغرقاً فى عوالمه وكأنه لا يغنى إلا لنفسه. انتقل من وصلة غنائية إلى أخرى، ومن »على قد الليل مايطول« و »الحلوة قامت بتعجن« إلى »زورونى كل سنة مرة« التى غناها بشجن وأسى، وجعل الجميع يستمعون بخشوع إليها،

وكأنهم يحضرون قداساً دينياً. حتى إذا ما انتهى وضع العود جانباً، وأخذ منديلاً يمسح به العرق الذى تقصد غزيراً مــن وجهه وعنقه، قائلاً:

- والآن تصبح على خير يا شيخ سيد.

هتفت أناديه لكى يبقى، ولكن الشيخ سيد غادر الغرفة، كما أراد له عدنان الذى أرجع العود إلى جرابــه، وجلــس للحديث والشراب. وفى حين مضى يشرح للينــدا مقامــات الموسيقى العربية والفرق بينها وبين الموسيقى الغربية، كان دونالد قد انصرف انصرافاً كاملاً إلــى الاهتمــام بــالمرأة الهندية، مستغرقاً معها فى حديث أشبه بالمناجاة، يتهامســان ويتضاحكان ويكتفيان بنفسيهما عن بقية الحاضرين. لا أدرى إذا كان هذا الحديث الهامس قد أقلق ليندا، فقد رأيتها ترمقهما بنظرة سريعة ثم تعود إلى حديثها مع عدنان. جلست أضــع يدى على قلبى وأراقب الموقف من بعيد. لم أشــأ أن أنتقــل للجلوس بجوارهما وأفسد بالتالى حميمية هذه اللحظــة، ولــم أجد فى نفسى ميلا للاعتقاد بأنه يلعب لعبة ماكرة يقلب بهــا المناضد علينا، أو يفتعل الاعجاب بهذه المرأة افتعالاً من أجل التعبير عن كبرياء جريح، أو وسيلة يثأر بها لنفسه. أن بينه

وبين هذه المرأة القادمة من الهند شيئاً مشتركاً يجعله ينجذب إليها، ويحتفى بها. ولعله بطريقة لا واعية يريد أن يحقق توازناً يعوض به اختلال العلاقة مع زوجته. لا أدرى إن كنت مصيباً عندما أحضرتها للسهر معنا، فهى امرأة وحيدة. وجاءت حديثاً إلى هذه المدينة، ولا بد أنها ستغتبط بهذا الاهتمام الذى يبديه نحوها دونالد بكل ما تعرفه عن أسرار العلاقة التى بينى وبين زوجته. بقيت أتأملها وهى تستند إلى الحائط وتضع مرفقها فوق الوسادة وتحنى رأسها نحو دونالد. ارتدت سارياً أزرق يكشف عن جزء من خصرها العارى، ووضعت فى عنقها عقداً من العقيق يضيء بشرتها النحاسية. على مشارف الثلاثين من عمرها. فى وجهها امتلاء ونضارة. وفى عينيها جمال هادئ وديع دونما فتنة أو إثارة. لم أجد فيما أرى شيئاً يستفزنى لأنه لو صدق حدسى ونشأت علاقة حب بينهما، فسيكون بإمكانه عندئذ أن يذهب بها إلى حانة العناقيد ويريها لأصحابه. وإذا كانت زوجته تذهب مع رجل آخر، فها هو يخرج مع امرأة أخرى تحقيقاً للعدالة التى يريدونها. ولكن ماذا عن ليندا؟ ألن تثير هذه العلاقة غيرتها، فتسعى إلى استرداد زوجها، ولو على حساب الحب الذى

بيننا. كنت قلقاً. وكنت أريد أن أرقب باهتمام تطور هذه العلاقة بين دونالد وانار. ولكن طارئاً حدث فى اليوم التالى، صرف ذهنى عن هذه القضية، وأغرقنى فى نوع آخر من الأسى، جاء يداهمنى دون انذار. استيقظت فى الصباح مفعماً بحيوية لم أعهدها فى نفسى لحظة أن أغادر عالم النوم. وكأن سهرة الليلة الماضية زودتنى بفائض من الفرح لا يستنفد نفسه مع اللحظة الهاربة. وقفت أمام النافذة أرقب الصباح وأستنشق عبير الأرض، عندما جاء صوت ليندا ينادينى لأرد على هاتف من طرابلس. ركضت هابطاً الدرج، سعيداً بهذا الهاتف الذى جاء بعد انقطاع دام أكثر من شهرين. أمسكت بالسماعة لأجد صوتاً يبلغنى بعد مقدمات غامضة أن والدى قد مات. انطلق الخنجر من طرابلس، ومزق السماء فى ومضة خاطفة، ووصل إلى صدرى. عاودنى على الفور وجع القلب الذى أحسست به البارحة. بقيت ساهماً، واجماً، والخنجر مرشوق فى صدرى. تشنجت أصابعى على مقبض الهاتف وأنا أسمع كلام الرجل دون أن أتبين منه شيئاً. أقفلت السماعة. كنت فى حالة ذهول، غير قادر على الوقوف أو الجلوس أو الحركة أو البكاء أو الكلام. حاولت أن أستعيد ما

قاله الرجل من كلمات لم أنصت لهـا، فوجـدتها ملتصـقة بذاكرتى التصاق الكلام بشريط التسجيل. إنه يقول إن والدى مات منذ صباح الأمس. حاولوا الاتصال بى فلم يجدوا أحـداً بالبيت. أكملوا دفنه، وأقاموا له جنازة تليق برجل عاش فـى سلام مع نفسه ومع الآخرين. وقد ظل يذكرنى فى لحظاتـه الأخيرة ويدعو لى بالصلاح. لعل القريب الذى هاتفنى كـان مازحاً أو كاذباً، أو لعله كان يتحدث عن رجل آخر غير أبى. صعدت إلى غرفتى وتهالكت بجوار الحائط أبكى وأضـرب الجدار بعنف لعلنى أجد سبيلاً لتصريف هذه الشـحنة مـن الحزن التى ضاق عن احتوائها صدرى. هل حقاً مات؟ كيف أستطيع أن أصدق ذلك؟ وهو الرجل الذى كان يذهب بقدميه إلى الموت، يصارعه وينتصر عليه. قضى جزءاً من عمره ماشياً فوق حقول الألغام، يقابل الموت فى كل لحظـة، دون أن يجرؤ الموت على الاقتراب منه. كانت حقول الألغام التى تركتها الجيوش المتصارعة فـى أثنـاء الحـرب العالميـة الأخيرة، تملأ الصحراء، حيث كان الناس الذين تضيق بهـم مجالات الرزق الأخرى، يشتغلون بتفجير قنابلها وبيع حديدها لوكالات تجارية، تتنافس على شراء الحديد وتصـديره إلـى

الخارج. وما أن ينتهى العمل فى حقل من الحقــول، حتـــى ينتقل بنا إلى مناطق أخرى، وحقول لم تتفجر بعد. كان سيد نفسه. لم يرض أن يخدم أجيراً لدى أحد. وفى حين كان يعز العمل، وتضيق فرص الرزق، فإن رزقه ظل جارياً، ينتزعه انتزاعاً من بين مخالب الموت. كان زمن بؤس ومجاعــات. وكنا ننتقل من بارية إلى أخرى. حيث تنتشر المناحات فـــى كل مكان نذهب إليه، لأن إنساناً ما، أكلته الألغــام. وكانـــت أمى تجلس باكية فى خيمتها تنتظر خبراً فاجعاً كلما ســمعت لغماً يتفجر.. إلى أن جاء الخبر ذات عشية، وعقب انفجـــار هز الأرض كالزلزال، بأن حقلاً يعمل به والدى قـــد تفجـــر بكامله، وأن أشلاء الضحايا تمزقت وتناثرت فى كل مكـــان وبات من المتعذر التعرف على هوية الموتى. توافد على بيتنا المعزون، وارتفعت عقائر النساء بالنواح، يمزقن أثـــوابهن، وينشبن أظافرهن فى وجوههن حتى تنبجس منهـــا الـــدماء. كنت صغيراً فى الخامسة أو السادسة من عمـــرى، لا أدرك حقيقة ما حدث. ولكن مشهد النســـاء النائحـــات، الـــداميات الوجوه، ومن بينهن أمى وأختى، كـــان يفزعنـــى، فـــانهمر بالبكاء. يظننى بعض الرجال أبكى موت أبى، فيأخذون بيدى

ويبعدوننى عن النساء النائحات قائلين إن أبى لن يغيب إلا بضعة أيام، وسيعود حاملاً معه، كما يفعل دائماً بعد أن يبيع الحديد، سلة مليئة بالغلال واللحوم والحلوى، التى يشتريها من سوق الواحة القريبة. كنت قد ابتعدت عن الخيمة بصحبة أطفال آخرين عندما رأيت أبى قادماً من بعيد. لم يكن يحمل فاكهة ولا غلالاً، ولكننى فرحت بمجيئه وذهبت راكضاً أخبر "أمى. ما أن رأتنى، وسمعت ما أقول، حتى ازداد عويلها، وارتمت متشنجة فوق الأرض. أبعدونى عنها، وهم ينهروننى قائلين بألا أعيد مثل هذا الكلام لأن أبى لن يعود الآن. ولكن أبى عاد فعلاً من موته. ظهر عليهم فجأة حاسر الرأس، مقطوع القميص، تغطى الأتربة شعره وثيابه، وكأنه خرج لتوه من القبر. كانت الدماء تسيل من جراح فوق ذراعيه وهو يقف غاضباً وسط المعزين. تحول نواح النساء إلى خوف ورعب، فى حين تحلق حوله الرجال ينظرون إليه باستغراب ويسألونه عما حدث. صاح يطرد المعزين، ويأخذ عصا يضرب بها النساء النائحات، فليذن بالفرار، حافيات الأقدام، حاسرات الوجوه والرؤوس. وكان ذلك آخر عهد له بالعمل فى حقول الألغام. ترك الصحراء، كما ترك الواحة

التى ضمت قبور أجداده، بعد أن شحت مواردها ولم يعد لديه من أهله القريبين من يشده إلى البقاء فيها. وسافر بنــا إلــى طرابلس، حيث اكترى لنا غرفتين فى بيت من بيوت المدينة القديمة، يضم خمس عائلات أخرى. اشترى بما لديــه مــن مدخرات قليلة قطعة أرض بور خارج المدينة، وظل يقضى بها نهاره كله، يحرث تلك الأرض، ويحفر لها بئراً إلــى أن صارت بستاناً. وظل هذا البستان مصدر الرزق الذى منــه نعيش وبفضله واصلت تعليمى. كما ظل والدى يعمــل فــى تعميره حتى بعد أن حاصرته الأبنية والمنشآت الصــناعية، رافضاً أن يتنازل عنه برغم اغراء المــال إلــى أن اقــاموا بجواره مدبغة للجلود، كانت رائحتها مصدر كدر دائــم لــه، وكان يعود كل يوم إلى البيت غاضباً، ساخطاً، ويشتبك كــل صباح فى عراك مع من يلقاه من أصحاب المدبغة وعمالها. وهروباً من تلك الرائحة، باع البستان، وظل لمــدة طويلــة متذمراً من البقاء بلا عمل، مع أنه لم يعد بحاجة إليه، بعد أن توفيت والدتى، وانتقلنا للإقامة مع أخى الأكبر الــذى صــار مقاولاً. أتراه حقاً طواه ذلك الموج الأســود الــذى نســميه الموت؟ هل تقوض ذلك البناء الذى ظل بــرغم الشــيخوخة،

شامخاً، ومتيناً كالقلاع القديمة، وانطفأت تلك الجـذوة التـي تشتعل فى عينين تحيط بهما الظلال والتجاعيد التـي تشـبه كتابة بالطلاسم السحرية، وهمدت الدماء التى تجرى فى تلك العروق النافرة الزرقاء التـي تمتـد كالحبـال فـوق يديـه وذراعية؟ لعله لم يمت. لعله سـيأتى الآن إلـى سـرادقات العزاء، يطرد المعزين ويلاحق بعصـاه النسـاء النادبـات فيخرجن إلى الشارع بلا أحذية ولا ملاحف. كـان يحبنـي كثيراً. تيتم صغيراً، وحرم نعمة التعليم، فأراد أن أكون وريثاً لأبيه الذى كان معلماً للقرآن، وجده الذى كان إماماً وقاضياً. اختارنى لكى أعيد إلى بيت »الإمام« سمعته الجليلـة كبيـت للعلماء والفقهاء. ومن ناحية أخرى فقد كان خائفاً أن ينتصر جدى لوالدتى الذى كان فى بداية حياته قاطع طريق، قبل أن يهتدى على يد جدى الأكبر، ويشتغل بتجارة القوافل، إلى أن مات فى الصحراء. لا شك أنه ذهب إلى مقره الأخير وفـي قلبه حسرة لأننى لم أحقق له حلمه. أراد أن يهبنـي لرسـالة أسلافه، فألهب ظهرى بالسياط يدفعنى إلى طريق المدرسـة القرآنية التى كنت أهرب منها. لم أكن وأنا أودعه منذ أشهر مضت، أدرك أن الموت كان قريباً إلى هذا الحد. كان وهـو

يتجاوز الخامسة والسبعين، قوى البنـــاء، يـــوازينى صـــحة وعافية. كان يكره المرض. نسأله أن يرتاح ويبقى نائماً فـــى السرير إذا أحس ببرد أو زكام، فيهزأ بنا قائلاً بأن هـــذا مـــا يريده المرض. يريد أن يراك خائفاً متخاذلاً، لا تقوى علـــى المقاومة، لكى يأتى، ويرتمى فوقك، ويبقيك طريح الفـــراش. ومهما أمسى مريضاً، فإنه ما أن يأتى الفجر، حتـــى يـــذهب لأداء الصلاة بالمسجد، ثم يمضى مـــن هنـــاك إلـــى عملـــه بالمخبز. وها قد جاء طائر الموت، يلاحق الرجل الذى قاومه طويلاً، ويطويه أخيراً تحت جناحيه الكبيرين الأسودين.

لم أهبط لتناول وجبة الافطار، فجاءت لينـــدا لتعـــرف السبب. وما أن رأتنى حتى أدركـــت أن المكالمـــة الهاتفيـــة حملت لى همًّا كبيراً. جلست بجـــوارى تواســـينى. أســـلمت رأسى لأحضانها باكياً، ثم انتشلته وكأننى أخشى أن يرانـــى والدى من خلف الحجب، أبكيه بهـــذه الطريقـــة، فيســـتنكر سلوكى. قالت وهى ترانى أفتش عن تذكرة العودة التى أحتفظ بها:

– هل يقتضى الحال أن تسافر؟

– نعم. سأسافر اليوم إذا استطعت.

لم أسافر إلا فى اليوم التالى. جاء الليل وانصرف الزملاء الذين جاءوا مع عدنان لمواساتى. وخرجت من مجلدات الكتب الأسطورية أشباح فرسان وسلاطين ينظرون نحوى بعيون مطفأة. انهار الحائط الذى كان يحمينى، ويمنع عنى رعب الكائنات الظلامية. أيقنت أن وجع القلب الذى أحسست به بالأمس، لم يكن وجعاً، بقدر ما كان احساساً بالفجيعة جاء يداهمنى لحظة موته. تذكرت تنبؤات الوسيطة، وتساءلت إن كان حديثها عن الإنسان الذى ينادينى، والسفر القريب إلى وطنى، قد جاء ليتوافق صدفة مع هذه الأحداث. لعل النبوءة لا تنقل الأحداث قبل وقوعها، وإنما هى التى تصنع الأحداث وتصوغها حسب مشيئة المنجمين.

ما أن وصلت إلى طرابلس حتى سألتهم أن يأخذونى مباشرة إلى قبره، ويتركوننى لحظة معه. توسلت إليه بعيون دامعات أن يسامحنى لأننى لم أحضر لتوديعه، ولم أستطع تلبية ندائه قبل الرحيل، ولأننى عندما كان ينام ليلته الأولى فى قبره، كنت مشغولاً عنه بالرقص والنبيذ، والغناء والنساء. أحببته بمثل ما خشيت بأسه وقسوته. كان هوسه أن يرى أحد ولديه عالماً من علماء الدين، يدفعه إلى أن يعاملنا بشراسة

أحياناً. لجأ مع أخى عثمان الذى يكبرنى بتسعة أعوام إلـــى حيلة أخيرة ظنها ستكون علاجاً نهائياً لإهماله ونفـــوره مـــن الدراسة الدينية. نصب له مشنقة وسط الغرفة، ووضع الحبل حول عنقه، وأراد أن يشنقه عقاباً على هروبه من الدروس. وعندما صار أخى يصرخ رعباً فك الأنشوطة عـــن عنقـــه وهدده بأنه سينفذ وعده إذا تكرر إهماله وهروبـــه. ومـــا أن وجد أخى، الذى كان صبياً فى السادسة عشرة من عمره، أنه نجا من الشنق، حتى فر هارباً من البيت ولم يعد إليه، إلى أن عرفنا فيما بعد، أنه انضم للعمل بأحد المعسكرات فى مدينـــة أخرى. وبرغم هذا الدرس الذى أتعبه حتى ســـقط مريضـــاً، فإنه ما أن استرد صحته حتى أعاد محاولاته معى. يقـــودنى كل صباح إلى الفقيه، ويوصيه بأن يستخدم كل الوسائل التى فى حوزته لتأديبى، بما فى ذلك فلقته، وعصاه المصنوعة من أخشاب الجنة. اكتشف والدى بعد مرور أكثر من عام أننـــى أعيد سيرة أخى، وخشى أن ألقى مصيراً كمصيره، فتخلـــى مرغماً عن أحلامه فى استرجاع أمجاد العائلة الدينية، متجهاً باللوم إلى والدتى، قائلاً إن أباها قد انتصر على آبائه، وسرق أولاده منه ومنهم. اكتفى بأن زوّج أختى، من فقيه أعادها إلى

الواحة التى ننحدر منها، وتركنى ألتحق بالمدارس الحديثــة. كان يفرح بنجاحى ويقيم وليمة لأصحابه كلما ظهرت النتيجة ويسألنى أن أقرأ لهم من كتب المقرر الدينى، ويجد فى ذلــك تعويضاً عن خيبة أمله فى أن يرانى فقيهاً.

أسندت رأسى إلى رخام القبر متوهماً أننى أتكئ علــى كتف الأب الغائب. أخذتنى شبه اغفاءة، رأيته فــى أثنائهــا يركب جواداً مصنوعاً من السحب البيضاء، يطارد به طيف امرأة تركض فى حقول السماء، تصورتها ليندا. صحت به: »كلا ليست هى المذنبة، وإنما المذنب أنا، فلا تظلــم امــرأة بريئة«. كنت أقف وسط مرج أخضر، مزهــر، لــه شــذاً كالعطر يملأ المكن. رأيته يهبط عن جواده ويســير نحــوى كأنه يطفو فى الهواء، عقد ملامحه ورفــع يــده متوعــداً. وضعت ذراعى أمام وجهى، أتقى ضرباته. ثم تنبهــت إلــى شهادة دراسية كانت معى. أخرجتها مسرعاً ودفعت بها إليــه كى أشترى رضاه. أخذ الشهادة ينشرها أمام وجهه، ومــا أن رأى اسمه مقروناً باسمى حتى انبسطت ملامحه المعقــودة. طوى الشهادة فى يده وعاد باسماً إلى سحابته. أفقــت مــن اغفاءتى فوجدت أن الشمس توشك على الاختفاء ولون الشفق

يصبغ عالم الأموات بعتمة ملونة. اندهشت عندما وجدت أن الأريج الذى يشبه العطر والذى كان يضوع من حقول الحلم مازال معلقاً فى فضاء المقبرة.

قال أحد المعزين من كبار السن. ممن عرفوا والدى وعاشروه فى سنواته الأخيرة:

- كان والدك رجلاً حكيماً، ولابد أنه ترك لك كلمة تعينك على مواجهة تصاريف الزمان.

ترك والدى كلاماً كثيراً ما زالت أصداؤه تتردد فى ذاكرتى، ولكن من أين لى بصيرة الرجال النابهين، لكى أهتدى إلى الكلمة الثمينة التى خبأها تحت ركام الكلام؟ علنى أهتدى إليها ذات يوم أما الآن فسأواصل البحث عن العنف والجنس فى أساطير الليل والنهار، مسافراً بين مدن الماضى والحاضر، وبقلب انسان يطمح أن يصل ذات يوم إلى مدينته الموعودة.

بقيت أسبوعين مع حديث الموت والأحزان وذكريات الرجل الراحل. وعندما بدأت أسمع تلميحاً عن الإرث وتقسيمه، عافت نفسى هذا الحديث، وأخذت حقيبتى عائداً إلى شطآن بحر الشمال.

أدنبره مرة أخرى.

القلعة التى تشبه خرافة من الحجارة، مثقلة بتراثها المصنوع من نشوة الانتصارات ومن أحزان الملوك المهزومين، معلقة فوق صخور الجبل البركانية، مهيمنة بقوة على فضاء المدينة، وكأنها ملامح وجه كائن أسطورى، يشرب الريح، ويراقب البشر.

السحب الداكنات صنعت سقفاً أسود، يغطى المدينة، ويلامس أبراج القلعة، ونشيج الأمطار التى تتساقط منها دون انقطاع.

الشوارع المغسولة اللامعة، التى تتحول إلى أودية للريح، والأشجار التى ترقص فى عنف، ترفع رؤوسها ترتشف حبات الماء، وتنشئ حواراً صاخباً مع الريح والمطر.

لم ينطفئ الشوق إلى المرأة التى صارت وطناً للقلب، ولكن الروح مثقلة بأحزان الموت ورحيل الرجال الكبار. وصلت قبل انقضاء موسم العطلات وأعياد الميلاد. فألقيت بنفسى فى دوامة الحياة التى تمنحها هذه المدينة لقاطنيها. وألقيت بجسمى بين أحضان المرأة التى بادلتنى حباً بحب،

أدفئ القلب بنار عواطفها، وأجد فى عطرها الشرقى بلسماً لأوجاع الليل. صرت أتجنب الانفراد بنفسى، خوف أن تهاجمنى فى أثناء بقائى وحيداً ذكرى الرجل الراحل. جددت صلتى بفرقة التمثيل، وعدت لملاقاة زملاء الجامعة بحانة العناقيد، حيث نار المدفأة الكبيرة الموقدة بالفحم والحطب. ما أن يأتى المساء، حتى أترك المكتبة وأهبط زقاقاً ضيقاً يفضى إليها، فهى تقع عند سفح الهضبة، فى الجزء القديم من المدينة، الذى كان سوقاً لأعلاف الماشية يحمل حتى الآن اسم »سوق التبن«. لم تكن هذه الحانة سوى خرابة قديمة، جاء أحد المدرسين بالجامعة واسمه »لارى«، فرمم خرابها، ودهن بالطلاء جدرانها، وابتنى لها سقفاً من الخشب، وجمع عدداً من براميل النبيذ الفارغة، اتخذها مناضد ونثر حولها الكراسى، ثم أقام هذه المدفأة التى لا تنطفئ نارها طوال مواسم البرد. وجعل الحانة منتدى لأصدقائه من طلاب ومدرسى الجامعة حتى أسماها الناس حانة المثقفين. جاء إليها الزبائن من مختلف المهن والفئات الاجتماعية، واكتفى أهل الجامعة بزاوية قريباً من المدفأة. جرت فى يده النقود، فهجر »لارى« مهنة التدريس بالجامعة، وتفرغ للاستمتاع بمباهج

الحياة، يقضى أغلب أشهر السنة متنقلاً مع صـــديقاته بـــين أسبانيا وجنوب فرنسا. يعيش عيشة الأثرياء ويفكر فى انشاء حانات أخرى بتلك البلاد.

كان يتخذ مجلسه بجوارنا عندما يكون قد عـــاد مـــن سياحاته. وكنت أتبادل معه الحديث أحياناً. قال ضاحكاً وهو يرانى أدخل الحانة، ارتعش برداً وأقطر ماءً.

– ما الذى جاء بك من بلاد الشـــمس الســـاطعة إلـــى صقيع هذه المدنية التى تلعنها العواصـــف؟ دع عنـــك هـــذه الشهادات التى لا تجلب نقوداً، وارجع إلى بلادك وافتح حانة هناك قبل أن يفوت الأوان.

أرادنى الأب الراحل فقيهاً، وهذا الصديق ينصحنى بأن أكون خمّاراً، وأنا ممزق بين الاختيارين، أبحث عن طريـــق للمصالحة بينهما. أردُّ ساخراً:

– هذا ما كنت سأفعله لولا أنهم فى بلادنا لا يبيحـــون إنشاء الحانات.

ينظر نحوى مستغرباً كأنه لا يصدق أن هناك بشراً فى الدنيا يحتملون الحياة بلا حانات. يسأل إن كـــان مـــا أقولـــه

صحياً. وعندما يعلم أننى جئت من بلاد تمنع قوانينها تناول الخمر، تغمر ملامحه علامات الفزع قائلاً:

- ولكن لماذا سمحت لوالديك بأن ينجباك هناك؟

كان يعلق فوق الجدار الذى نجلس بجواره اعلاناً كتب بخط عريض، يتوجه به إلى مدرسى الجامعة، يرحب فيه بأى أستاذ يريد أن يتحرر من عبودية وبؤس هذه الوظيفة، ليعمل ساقياً فى حانة العناقيد، وسيمنحه راتباً يوازى ضعف ما يتقاضاه من الجامعة، مضافاً إليه الإكراميات التى يتلقاها من زبائن الحانة. وكان أهل الجامعة يردون على استفزازه ساخرين من تحوله الفاجع، من أستاذ فى علم اللغة إلى بائع للخمور، ويتندرون على الأعوام التى قضاها فى التحصيل العلمى لكى ينتهى إلى مهنة لا تحتاج لأية مؤهلات.

- أن يفيق الإنسان متأخراً ويتدارك العمر الضائع، أفضل من أن يبقى سادراً فى غفلته كما تفعلون. لا تتحدثوا أمامى عن الرسالة التى تؤدونها. انظروا إلى »جاك« عامل المراحيض فى جامعتكم. إنه يأتى إلى هنا هارباً من افرازاتكم، باحثاً مثل هؤلاء الناس عن لحظة سعادة أنا الذى أقدمها له. فأية رسالة فى الدنيا تعادل هذه الرسالة.

ثم يتحسر قائلاً:

– لم ينصفنى أحد سوى عمر الخيام.

ويرى صديقته الإسبانية التى يسميها »الكاردينال« قادمة نحوه، وهو يحادث نساء الجامعة، فيقطع حديثه ملتفتاً إليها:

– ها قد جاءت وريثة محاكم التفتيش الإسبانية.

يحيط خصرها بذراعه، ويقول مداعباً:

– يبدو أننا جميعاً نحب العبودية، وإلا ما الذى يجعلنى أعشق امرأة تحاصرنى مثل جيش الغزو؟

ويلتفت إلى امرأة تجلس فى مكان بعيد:

– ماذا لو استجبت لإغراء تلك المرأة البدينة التى تكشف عن نصف صدرها؟

– سأفعل لك هكذا.

وتمرر اصبعها على عنقه.

– وماذا ستفعل أنت لو أننى أحببت الرجل الوسيم الذى بجوارها؟

– سأفعل شيئاً يفوق ما فعله شمشون الجبار.

لن يفعل أى منهما شيئاً من ذلك. ولكن دونالد الذى يجلس قريباً منهما، يشيح بوجهه بعيداً وكأنهما يقصدانه بهذا الحديث. وبرغم أن المرأة الهندية كانت تأتى للالتقاء به فى الحانة. إلا أن العلاقة بينهما لم تتطور إلى أكثر من ذلك. شغلتنى فرقة التمثيل عن حضور وجبة العشاء فى البيت، وتوقفت برامج النزهة التى كنا نقوم بها، وتفككت بالتالى العلاقة التى ربطت بيننا نحن الثلاثة، إلا أن ما يربطنى بليندا ظل موصولا لا ينقطع. ما أن تحين ليلتى معها، حتى أسعى متلهفاً للقائها، وقد جاءت ترتدى عطرها، وتحمل عاطفة مشتعلة لا تنطفئ.

عدت متأخراً إلى البيت، فوجدتها تجلس صامتة، تضع يدها على خدها، والتلفاز مطفأ أمامها. أحسست بالاثم لأننى لم أعد أمنحها وقتاً يملأ هذا الفراغ الذى صنعته لها، عندما انتزعتها من محيطها وعلاقاتها. ردت على تحيتى بفتور، وقامت تصحبنى إلى غرفتى قائلة بأن عطرها الشرقى قد نفد. لم يكن هذا ما يقلقها، ولكنه دونالد.

– ما الذى حدث له؟

– قضى ليلة البارحة خارج البيت ولم يعد إلا صباحاً.

- هل عرفت منه السبب؟

- جاء ثملا فنام غير عابئ بالذهاب إلى العمل، ثم خرج وأنا غائبة فلم يعد حتى الآن. إنها المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك.

ولكن هذه الكآبة التى تنشر ظلالا على وجهها، ورنة الحزن التى تغلف كلماتها. هى أيضاً أشياء جديدة على روحها وطبيعتها. وإذا كنت قد تآلفت مع هذه الحالة التى أجد فيها نفسى أتقاسم حبها مع زوجها، ولا أرى فى غيابه ليلة عن البيت ما يستوجب القلق، فلعلها تدرك بحس المرأة، ما لا أستطيع إدراكه، وترى فى هذا السلوك نذيراً بنهاية الأوقات الجميلة.

أردت أن أقول لها كلاماً عن حاجة الإنسان أحياناً إلى أن يهرب من رتابة الشيء المعتاد، وينفذ من قبضة الروتين الذى يأكل الروح، فيخرج قليلاً عن أساليبه المألوفة بحثاً عن الجديد، وكسراً لهذه الأطواق التى لا يكسرها إلا لكى يعود مرة ثانية للاحتماء بها. ولكننى بدلا من ذلك قلت:

- لعله يحتاج إلى رعاية أكثر من جانبك.

كنت فعلاً أشفق على دونالد، وأراه جديراً بأن يبقى مشمولاً بما كان يسميه، دائرة السعادة التى تصنعها ليندا. ولكنها نظرت بفزع نحوى.

– أتقول أنت هذا الكلام؟

ودون أن تنتظر جواباً، ركضت خارج الغرفة. لم أجد فى الجملة التى قلتها ما يستحق هذا الغضب، ولا أظن أن لتوترها سبباً آخر سوى هذا التغيير الذى طرأ على سلوك زوجها فجاءت تحملنى تبعاته. لا أدرى ما الذى كانت تريد أن تسمعه منى. لعلها انتظرت منى اقتراحاً بأن نغادر البيت ونترك له حياته يفعل بها ما يشاء. أو لعلها وجدت فى كلامى تشابهاً مع ما يقوله أعداء هذه العلاقة، والاتهامات التى يسوقونها، وهى ترانى ألومها، وكأننى أتكلم من خارج العلاقة لا من داخلها. وأغضبها أن أنكر عليها شيئاً كانت تعتقد بأننى آخر من يجب أن ينكره عليها. أو لعل السبب شىء لا علاقة له بهذه التخمينات وإنما بهذا العطر الذى نفد منها والذى أصبح شيئاً لا تكتمل طقوس هذه العلاقة إلا به. بقيت جالساً أبحث عن تفسير لنوبتها العصبية المفاجئة. لا شك أنها عانت كثيراً بسبب هذه العلاقة، ورأت فيما قلته

استهتاراً بكل تضحياتها. إنها المرة الأولى التـــى أرى فيهـــا ليندا تخرج غاضبة منى. هبطت السلالم لاحقاً بها. وجـــدتها أقفلت غرفة النوم وراءها. وقفت لحظات أمام بابها المغلـــق، دون أن أطرق الباب أو أناديها. وبوهن وإعيـــاء، صـــعدت السلالم عائداً إلى غرفتى.

قبل هذه الرحلة القصيرة التى أوجبها موت الأب، لـــم "أكن أقف لأطرح أسئلة على نفسى، متفحصـــاً مشـــاعرى، محاولا تعميق مداركى حول ما أفعله وأختاره. وجدت نفسى مبعوثاً على حساب الدولـــة، بعـــد أعـــوام مـــن الانتظـــار والملاحقة، فجئت فرحاً بفرصة الانفلات من قبضـــة الحيـــاة المضغوطة داخل المجتمع الصـــغير، المتحصـــن بأســـواره العالية. لم أسأل عندما جئت، إذا ما كان العالم حقـــاً واســـعاً ورحباً كما كنت أقرأ عنه فى الكتب. لأننى لم أكن أريد سوى جرعة من سوائله السحرية التى تروى جفاف الجسد وتطفئ عطش القلب. وجدت موضوعاً مثيراً ومسلياً عـــن العنـــف والجنس والأساطير فى كتب الشرق والغرب، فاتخذته سبيلاً للحصول على الشهادة التى يطالبوننى بها ثمناً لأيام الانعتاق القليلة هذه. ارتديت لبرد الشتاء كنزة ثقيلة، وحـــذاء ثقـــيلاً،

وشالاً أحيط به عنقى. وقاومته بأقداح الشراب والتماس الدفء قرب المواقد والنساء. ولكننى الآن، وأنا أجد نفسى بمفردى، فوق سرير واسع، ووسط غرفة يضرب شباكها المطر، وتغرد فوق سقوفها الريح المحملة بأملاح بحر الشمال، تحيط بى كائنات الأساطير التى تهجع داخل النصوص، ممنوعاً من أحضان المرأة التى عندها تنتهى رحلة القلب. فى هذه الليلة التى يشتد فى الخارج ظلامها، تسطع فى ذهنى انعكاسات شمس الصيف القاسية فوق أرض المدينة القديمة المرصوفة بحجارة ملساء. تنثال على الذاكرة صور ومشاهد من أعوام الطفولة والصبا. أطياف نساء خلف الشبابيك تعشقتهن وتعذبت بحبهن فى صمت، أو وجه صبية، وقفت أسابيع أنتظره، ليظهر من بين ظلفتى باب باهت الزرقة، يرتعش لدى مرآه الجسد حباً وشبقاً. تطل وجوه أب وأم وذوى قربى، رجال ونساء عاشرتهم زمناً ثم رحلوا عن الدنيا. أكتشف فى هذه اللحظات أنهم ما زالوا يقيمون فى منازل القلب. وأننى حتى لو ادعيت نسيانهم. فإننى أنقلهم معى، يسافرون فى دمى ويدفعون بأسئلة حارقة إلى حلقى عن معنى الأهل والانتماء والجذور. عن قيم وتقاليد نتربى

عليها ثم نثور ضدها. نفكُّ، فى لحظة زهو بأنفسنا، ارتباطنا بها ونعلن القطيعة معها. ثم نكتشف أن الأمر لا يحتــاج إلا إلى مواجهة حقيقية مع النفس، لندرك أن حبالاً تمتــد مثــل الكوابل المحفورة فى قاع البحر، تشدنا إليها، وتعيدنا مهمــا طوحت بنا الأسفار إلى حقيقة من نحن ومن نكون. قوة لهــا مفعول أجهزة التحكم الآلى على المدى البعيد، تستطيع متــى تشاء أن توجه حركتنا وتحدد مسارنا، مهمــا توهمنــا أننــا خرجنا عن مجالها المغناطيسى وانتزعنا هامشاً لأنفسنا يتيح لنا أن نمارس حريتنا واختيارنا وتمردنا. لم يكــن ســهلا أن أحقق توازناً مع هذه البيئة التى تتباين أساليب الحياة فيها مع الأساليب التى تربيت عليها. وأضعت وقتاً ثميناً قبل أن أبتكر لنفسى شفرتها السرية التى تهتدى بها فى سلوكا وتعاملهــا. جئت أول ما جئت ملفوفاً بقماطى المشرقى، فوجدت نفســى جسماً غريباً لا يحقق توافقاً مع ما حوله. اجتهــدت فــى أن أشترى قبولاً بالمبالغة فى التشبه بهؤلاء الناس وإظهار الولاء لقيمهم وأساليبهم. كنت كمن يأتى من أفريقيا بقشرته السوداء ويضع فوق رأسه باروكة من الشعر الأشقر الناعم الطويــل، ويمضى فى الشارع متباهياً بها، مدعياً انها شعره الحقيقــى.

ثم اهتديت بعد ذلك إلى حل يضمن لى تحقيق هذا المقدار من التواصل الذى احتاجه لعافيتى النفسية. فصرت لا أرى نفسى إلا حجراً متدحرجاً لا تنبت حوله الأعشاب. لا أطرح أسئلة حول ما يجب أن أفعله أو لا أفعله، ولا أقيم محاكمات للذات وأبحث عن تبرير أو إدانة لسلوكى. إن عقلى وضميرى لا ينكران هذه العلاقة التى تربطنى بليندا، لأننى لا أقيسها بمقاييس المجتمع الذى جئت منه، فأنا الآن أعيش بعيداً عنه. ولا أقيسها بمقاييس المجتمع الذى أعيش فيه، لأننى لا أنتمى إليه. إننى أقيسها بمقاييس أبتكرها بنفسى للتعامل مع نفسى ومع الآخرين. مقاييس الحجر المتدحرج فوق هذه الحقول. إننى أعيش الآن حياة مؤقتة، أعبر خلالها تلك المنطقة الحرة التى تقع بين تخوم دولتين. أرض »اللا أحد«، التى تمتد بين نقطتى حدود، حيث لا سيطرة لأى قانون إلا قانونى الشخصى، ولا ولاء لأية راية إلا الراية التى أصنعها لنفسى. وعندما تداهمنى هذه اللحظات التى تريدنى أن أمزق رايتى وأعلن الولاء لراياتها، أدفعها برفق عنى، وأنظر إلى ساعتى قائلاً إنه لم يبق من الوقت إلا بمقدار ما أنتهى من هذه الأوراق.

- أريد أن تجعل من هذا البحث إضاءة لعبقرية الخيال عند العرب، وكشفاً للحظة الحضارية التى أبدعت هذا النص.

هكذا يقول الدكتور هاورد. يقول ذلك بلهجته الاكسفوردية التى تصدر من قاع الحنجرة، والتى تذكرنى بممثلى المسرحيات الكلاسيكية، فأتظاهر بالإنصات والاهتمام. إنه الوحيد الذى يأخذ موضوع الرسالة مأخذاً جدياً ويكثر من الحديث عن مسؤولية الباحث فى الاهتداء إلى أسرار العمل الفنى، والنفاذ إلى عمق القضايا التى يطرحها. أراجع معه الفصول التمهيدية التى تتناول بالمقارنة جذور هذا الأدب فى الثقافتين العربية والغربية، من أشعار أوفيد إلى معلقة أمرؤ القيس، ومن آثار المركيز دوساد إلى كتب الجنس العربية التى ترجمت إلى الإنجليزية، وصولاً إلى ما تقوله مدارس علم النفس عن أثر الجنس فى نشأة المجتمع والدين والحضارة. أكتب الملاحظات التى يقولها، والمراجع التى يزودنى بها، وأذهب عائداً بالأسطر التى كتبتها، محاولاً أن أبحث عن الدلالات خلف الوقائع، وعن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلف هذا الأدب، وأنفذ من سطح الإثارة والتسلية إلى القضايا الجادة التى يريدها الأستاذ.

أتخاصم مع نفسى، ثم سرعان ما أسعى للتصالح معها، متيحا للحياة من حولى فرصة أن تمضى فى مسارها، بعد أن توهمت أننى استوقفتها لحظة قصـــيرة للمســـاءلة. أنصـــت للأصوات المتنازعة بداخلى وكأننى متفرج ينصت لحشد من الشخصيات التى تتجادل داخل عرض مســـرحى، محتفظـــاً بمسافة بينى وبينها، ثم أمضى وأنا أحمل تلك المســـافة بـــين نفسى ونفسى. لست أدرى إن كان ما أقوله من تفسيرات هو مجرد أشكال لخداع الذات أو أن هذه المصالحة التى وصلت إليها هى حقاً مصالحة أو مجرد هروب من الصراع وتجميد له. ولعل تصالحى فى الأيام التالية مع ليندا لم يكن تصـــالحاً وإنما محاولة أخرى لتجميد الصراع الذى بدأ يصيب حياتنـــا المشتركة بالتصدع والشقوق. لم يقتض الأمر إلا أن نختـــار ركناً معتم الإضاءة فى مطعم ينزوى بشارع خلفى يتخصص فى تقديم الأطعمة البولونية، حيث لا احتمال لأن نلتقى بأحد من معارفنا. نتناول العشاء، ونرتشف كؤوس النبيذ، ونستمع إلى صوت الموسيقى مخلوطاً بإيقاع المطر، ونستمتع بـــوهم أن بإمكاننا أن نعيد لحظات البهجة إلى علاقة تنشـــأ وســـط غبار حيطان تتهاوى وتنهار، نحتفل بعودة الصـــفاء بيننـــا،

ونعاود الاختلاء فى غرفة نوم مغلقة، ونتصور فـــى غمــرة الفرح الذى جاء بعد هذه الخصومة القصيرة أن حياتنا عادت من جديد قارباً يمضى فوق سطح بحر هادئ، ولكن للبحـــر منطقاً لا يعترف بما تريده القوارب أو يشـــتهيه البشـــر. إذ سرعان ما أفقنا على الحالة اليائسة التى وصل إليها دونالـــد. صار الرجل يسرف فى شرابه وغيابه عن البيت والعمل. لا أراه إلا غارقاً فى صمته، عائداً مخمـــوراً مـــع الصـــباح أو خارجاً عند المساء ليشرب. أرادت ليندا بإصرار ومعاندة أن تخرجه من أزمته. لم يبق فى وقتهـــا وقـــت لعلاقتنـــا. وإذا وجدت هذا الوقت، فهو لقاء سريع، يـــتم بـــلا طقـــوس ولا عطور، ولا يستمر سوى لحظات قصيرة. تريد أن توهمـــه بأنها توقفت عن لقائى، وأنهت علاقتها بى، إلى أن تراه يعود طبيعياً كما كان. لم أكن مطمئناً لذلك. أحسست أن ما نفعلـــه الآن هو ما يمكن أن نسميه غشاً، وما يسميه قاموس العلاقات الشرعية »خيانة«. كانت علاقتنـــا تكتســـب نظافتهـــا مـــن وضوحها. وهى الآن بعد أن صارت وقتاً مسروقاً، ولقاء يتم فى الخفاء، من وراء ظهر دونالد وخداعاً له، فأنهـــا تأخـــذ

شكلاً تآمرياً، عامراً بالتوتر، ومفرغاً من بهجة وعفوية العلاقة المفتوحة.

كانت فرقة التمثيل تستعد لإحياء ليلة شكسبيرية تضم مشاهد من مسرحيات هاملت وماكبث وعطيل والعاصفة وتاجر البندقية والملك لير وروميو وجولييت. حشد من المشاهد والشخصيات التى اقتبسها مخرج الفرقة من هذه المسرحيات، وأراد تقديمها فى سهرة واحدة عند نهاية العام الدراسى.

لم أكن أملك قامة وبناء شخصية مثل »عطيل«، ذلك المحارب العظيم الذى يجب أن يظهر فوق المسرح وكأنه قلعة تتحرك. ولكن المخرج عندما رأى أن لى بشرة أكثر سمرة من الآخرين، وشعراً يشبه فى سواده وخشونته شعر الزنوج، ولَكْنَةً متميزةً لن تكون غريبة عندما ينطق بها مغربى أسود فى بلاط الملوك البيض. اختارنى لتقديم الدور. حاولت الهروب من دخول هذه المغامرة قائلاً:

– أنت تريد أن تنقلنى فجأة من جندى يحمل الرمح إلى قائد لجيوش البندقية، وهى ترقية تخالف كل التقاليد العسكرية.

أفهمنى بأنه مجرد مشهد صغير يدوم لمـــدة عشـــرين دقيقة، وأشعرنى وهو يشرح سبب اختياره لى، بأنه قادر على أن يجعل أى ممثل خامل الموهبة يتألق فـــى الـــدور الـــذى يختاره له. أعجبنى غروره الذى يعفينى من المسؤولية فقبلت الدور. كان مشهداً يأتى فى ختام المسرحية عندما يقوم عطيل بقتل ديدمونة ثم يقتل نفسه نـــدماً. أعـــاد المخـــرج إعـــداده وأضاف إليه حواراً من مشاهد أخرى بين عطيل وديدمونة، واحتفظ بجمل قصيرة يقولها بعض الممثلـــين فـــى نهايتـــه. وكانت الممثلة التى اختارها لتشاركنى أداء المشـــهد، امـــرأة صغيرة الحجم، بحيث أبدو أمامها كبيراً ومهيباً فـــى أعـــين المتفرجين. كنت أعرف ساندرا من قبل، فهى إحدى ممثلات الفرقة الرئيسيات. شاهدتها تقوم بأدوار مختلفة فى طبيعتهـــا، فتتقن القيام بها. امرأة صغيرة، ولكن التناسق فـــى تكـــوين جسمها يجعل الناظر إليها لا ينتبه إلى حجمها الصغير. فهى تبدو بشعرها الزعفرانى الذى يتهدل بتجاعيدة وفوضاه، حول وجهها، واخضرار عينيها، واحمرار بشرتها، أشـــبه بدميـــة بعثت فيها الحياة. كائن رهيف، جميل، أود لو أضعه فـــوق كفى وأتفرج عليه.

قلت لها ونحن نبدأ تمارين القراءة:

- أشعر بالحرج وأنا أقف أمام نجمة كبيرة مثلك.

- أمهلنى قليلاً حتى أفوز بالأوسكار، ثم قل هذا الكلام.

لم تكن هواية التمثيل غريبة عنى. مارستها منذ أن كنت طالباً صغيراً، وأسهمت فى تأسيس فرقة بالجامعة شاركت فى أعمالها إخراجاً ومثيلاً. ولكننى جئت إلى هذه الفرقة عارفاً حدودى. جئتها لا بهدف التمثيل وإنما بهدف أن أكون قريباً من هذه البيئة التى أحبها، ساعياً إلى توسيع دائرة علاقاتى فى مدينة لم أكن أعرف بها أحداً، راضياً بأن أبقى عضواً هامشياً يساعد فى إعداد المناظر وسد الفراغات فى بعض المشاهد المسرحية. استعدت مع هذا الدور ذلك الإحساس المدهش الذى تبعثه فى نفسى لحظة الخروج من شخصيتى والدخول فى شخصية أخرى، أحاول أن أتمثل حياتها، وظروفها، وعلاقاتها، ناسياً حياتى، وظروفى، وعلاقاتى. ووجدت فى صحبة عطيل، هذه الصحبة القصيرة العابرة التى لا تستمر سوى دقائق معدودة، صحبة غنية ممتعة، لما فى هذه الشخصية المركبة من تنوع، وخصوبة

فى المشاعر والانفعالات. مشهد صغير ولكنه احتوى جوهر المسرحية وبؤرة الصراع فيها. عطيل مركزاً ومختصــراً. قرص الطعام الذى يختزل المأدبة الكبيرة. ســأوهم نفســى بأننى فعلاً أقرب إلى عطيل من كل هــؤلاء البشــر الــذين خذلوه. جاءوا به من بلاد المغاربة ليصنع لهم مجداً. فكافأوه بهذا الموت العبثى المأساوى. واظبت على تمارين القــراءة، والبقاء لحضور التمارين على المشــاهد الأخــرى. كانــت ساندرا تؤدى دورين آخرين فــى مســرحيتى »هاملــت« و »روميو وجولييت«، فكنت أنتظرها أحياناً حتى تفرغ منهما. صرت ألجأ إلى هذه الأجواء الخيالية المسرحية، هروباً مــن حالة الكآبة داخل البيت. لم يطرأ أى تبدل على حالة دونالد، ولم يترك أى أثر فى نفسه ذلك التحفظ الذى أبدته ليندا فــى علاقتها معى. تفلح أحياناً فى أن تمنعه من الشراب، أو تدفع به دفعاً إلى معاودة الذهاب إلى المكتبة. ولكن ذلك لا يستمر طويلاً. إذ ما يلبث أن يتمرد على وصايتها ويعود إلى كأسه، وغيابه عن البيت والعمل. اقترحت لينــدا أن نمتنــع عــن الاختلاء ببعضنا فى حضوره وغيابه، لكى نكون صــادقين

معه ومع أنفسنا. وافقت على اقتراحها، وقلت وأنا أرى الأسى يلون كلماتى، ويمنحها صوتاً لا يشبه صوتى:

- سأصلى لله ليخرج من محنته فى أقرب وقت. لأن محنته صارت محنتى.

- ليس ما يعتريه سوى حالة طارئة. سأنتظر أن يبرأ منها، وسأستقل بحياتى عنه.

كانت تقول ذلك بانكسار وهى تضع عينيها فى الأرض، لعلها تأخرت قليلاً فى اتخاذ هذا القرار الذى كان اختياراً متاحاً ومعقولا قبل أن يحدث لدونالد هذا الانهيار. أما الآن فمن يدرى متى تنتهى أزمته. كان يوم »أحد«، وكان الوقت صباحاً وناقوس كنيسة قريبة يقتحم بدقاته القوية هدوء هذه الجلسة.

ودونالد الذى عاد منذ ساعة مضت، يهجع الآن فى غرفته. ولذلك جاء صوتها خافتاً وهى تحدثنى عما استقر عليه رأيها. أبديت خوفاً من المستقبل، فقالت هامسة:

- يجب أن نفكر معاً فيما يجب أن نفعله.

أدركت ما تقصده. فهى عندما منعت عنى جسدها لم تمنع قلبها من أن يبقى وفياً ونابضاً بدفء العاطفة التى

جمعتنا. تساءلت بينى وبين نفسى، عن الوقت الذى سيمضى قبل أن ألتقى بعطر أعشاب الصحراء. تذكرت أنه نفد منذ أيام. هذا العطر الذى لا يشبه العطور الأخرى. سأتدبر قارورة جديدة منه عندما يحين الوقت. أما الآن فأنا منفى عن حديقة هذا الجسد، ولن أستطيع الاقتراب منه، حتى يسترد السيد دونالد مداركه الغائبة.

جلست أنظر فى بلاهة إليها. كأننى أتأمل حلماً جميلاً يهرب الآن منى. لكن المرارة التى أحسست بها أذابتها حرارة اللهجة التى تكلمت بها ليندا عن مستقبل علاقتنا بعد أن ينتهى ارتباطها بدونالد. قلت مسرعاً:

– سأبحث منذ الآن عن مكان ننتقل إليه.

– لن يكون ذلك صعباً عندما يأتى موعده.

وصامتا ضممتها إلى صدرى. قبلتها قبلة سريعة وخرجت. قبل أن أصل إلى الباب سمعتها تستوقفنى:

– لدى فكرة أرجو ألا تسىء تفسيرها.

امتلأ رأسى بدوى صفارات الإنذار وأنا أقف أستمع لفكرتها.

- لو افترضنا لمجرد الافتراض. أن دونالد رآك تذهب إلى حانة العناقيد بصحبة امرأة أخرى. ألن يسرع هـذا فـي إخراجه من أزمته.

- كم مضى من الوقت على قراءتك لأقاصيص عصر الفرسان؟

- ما أقصده مجرد زميلة تتناول كأساً معك فى الحانة حيث يستطيع دونالد أن يراك.

خرجت دون أن أوافق على فكرتها. قـائلاً بـأننى لا أطمئن إلى هذا النوع من اللعب.

أرادت ليندا أن تذهب به لقضاء إجازة خارج الـبلاد، تتيح له وقتاً ومجالاً لكى يراجع نفسه ويعود إلـى طبيعتـه. ولأنها لم تكن تملك موارد لمثل هذه الرحلة، فقد اكتفت بـأن ذهبت به إلى الريف، ليقيم أياماً معها فى بيت أسرتها.

سافرت ليندا، وكان ناتج الطرح كبيراً، بين وجودهـا فى البيت وغيابها عنه. تحول البيت إلى فراغات، وأركـان معتمة، وهدوء مخيف يشبه الهدوء الذى نـراه فـى مشـهد سينمائى يمهد للجريمة. والغرفة التـى يسـتعملونها مخزنـاً بجوار غرفتى، لم أشعر إلا الآن بأنها ظلـت دائمـاً مقفلـة

وخاوية كأنها مقر للأشباح. خوف لا مبرر له يداهمنى أثناء الليل ويجعلنى أترك النور مضاء فى ردهة البيت وكأننى أخشى أن تهاجمنى الأشباح. أصنع ضجيجاً وحركة و"أكثر من الدخول إلى المطبخ والحمام، والغناء لنفسى بصوت مرتفع، وكأننى أريد أن أملأ الفراغ الذى تركته ليندا. كان وجودها موازياً لوجود البيت ذاته. حضور يملأ المكان كله. ولذلك جاء غيابها فادحاً. لم تكن ليندا، فقط عطراً شرقياً ترتديه فيوقظ فى دمى شوق الرحيل إلى مدينة أسطورية لها شكل امرأة تشبه ليندا. لم تكن فقط فيضاً من الحنان والأنوثة يقدم لى تعويضاً سخياً لسنوات العمر التى أكلتها رياح وأملاح المدن الصحراوية، ولم تكن فقط جسداً شهياً، أجد فى معانقته والاستماع إلى غنائه الليلى، حلاوة تذيب مرارة الغربة ووحشة الليل. وأهرب إليه من الشتاء فأجد لديه شمساً لا تغيب. كانت ليندا خيمة لروحى، وبيتاً لجسدى فى مدينة جئتها مسافراً لا أحمل خيمة ولا متاعاً سوى جسدى. بدا لى أحياناً، ووسط مناخ التوتر الذى ساد البيت فى الأيام الأخيرة، ان عاطفتى نحوها أصابها ما يصيب عواطف البشر من ضعف وضمور. ولكننى اكتشف الآن إلى أى مدى أنا

مسكون بها، وأدرك أن ما يربطنى بها لم يزدد مع الأيام إلا قوة وعمقاً. عرفت قبلها نساء كثيرات. وتعلق قلبى بزميلات فى الجامعة، كنت أراهن من بعيد، وأحبهن حباً صامتاً قاسياً، دون أن أجرؤ على البوح بعاطفتى نحوهن. ولهذا فإن ليندا هى المرأة الوحيدة التى منحتنى حبها، وأطعمتنى من أشجارها فاكهة لم يطعمها لى أحد سواها. لست أدرى إلى متى سيطول غيابها. ليتها حددت وقتاً ولم تتركه زمناً مفتوحاً، معلقاً بحالة زوجها. لو قالت عاماً كاملاً، لأمكننى أن أنام هذا العام فلا أستيقظ إلا يوم مجيئها. ولكنها عادت. بعد أربعة أيام فقط عادت. سمعت قبل أن أغادر السرير صوت سيارتها تقف أمام البيت، فقفزت راكضاً لاستقبالها. وجدتها تقف فى مدخل البيت تنزع معطفها.

- الآن وقد عدت فلن أتركك تغيبين عن نظرى أبداً.

قالت بعد أن فرغنا من التحية والعناق:

- هل ينقصك شىء؟

- تعرفين أنه بغيابك ينقصنى كل شىء. لأنه لا شىء آخر يعنينى فى الدنيا. فهيا أعيدى لى حياتى المؤجلة، وقولى بأنك عائدة لكى تبقى معى.

- احتجت إلى ملابس جئت آخذها. أو قل هذا هو العذر الذى سوغ لى المجىء. لأننى ما جئت إلا لكى أراك.

تناولت يدها، ووضعت يدها فى يدى ونحن نجلس متقابلين، بيننا طاولة الطعام، وفوق رؤوسنا ساعة الحائط التى توقفت عن العمل، وتوقف طائرها الذى يصفق بجناحيه عن الحركة.

- إذن ضعى يدك فى يدى ودعينا نتعاهد ألا يترك أحدنا الآخر.

أسبلت رموش عينيها وابتسمت فى أسى. إننى أحاول أن أقفز فوق الواقع وأهرب منه إلى الأمام. ولكن طريق الهروب ليس سالكاً. فثمة إنسان تضرر من هذه العلاقة، وواجبى أن أنتبه إلى ذلك، فأنا لست مبرأ من مسؤولية ما حدث له.

- هل قال شيئاً عن سبب أزمته؟

نعم. هذا هو السؤال الذى كان غائباً. سلمنا منذ البداية بأننا السبب فى أزمته، وتعاملنا مع هذا الافتراض كأنه الحقيقة الوحيدة. فلماذا نستبعد وجود عامل آخر. لعله اكتشف فجأة إنه ابن سفاح، أو أن أباه الذى ظنه قديساً كان يدير

عصابة للقتل. أو لعل بوذا زاره أثناء الحلم وتبرأ منه، فهرب إلى كأسه حزيناً يائساً.

- إنه لا يتكلم. حاولت ليلة البارحة أن أخرجه عن صمته فقذف بالكأس فوق الأرض. أزعجتني هذه النوبات العصبية التي صارت تنتابه. تركته حيث هو، وما أن جاء الصباح حتى جئت لكي أراك.

مضت لحظة صمت حبلى بالاحتمالات، قبل أن تقول:

- أعتقد أنني حامل.

كانت تطرق برأسها، وترسم بإصبعها إشارات لا معنى لها فوق طاولة الخشب. نظرت إليها صامتاً أحاول أن أستوعب معنى ما قالته.

- لا أدرى كيف وقع ذلك. لم أكن أرغب فى أن أرى شيئاً كهذا يحدث لى فى هذا الوقت بالذات. لعلنى نسيت أن أتناول إحدى تلك الحبوب، فقد جاء هذا الحمل مفاجأة لى.

- هل هو..

لم أكمل السؤال، فقد أدركت ليندا ما أقصده.

- لا أدرى أن كنت أنت أباه أم دونالد، إننى لا أعرف.

غابت داخل غرفتها لاحضار ما تريده من ملابس، وبقيت بمفردى أتأمل ما قالته. سواء كنت أنا أباه أم لم أكن. فإن أحداً لا يريده الآن. إنه يأتى ليجعل كل شىء أكثر تعقيداً. سألتها عندما عادت:

– هل ستحفظين به؟

كان سؤالاً فجاً ومباشراً. إننى فعلاً أتمنى لو أنها تتخلص منه الآن طالما أنه فى أيامه الأولى.

– لم أكن أريده أن يأتى. أما الآن وقد جاء..

أما الآن وقد جاء فهو يجب أن يبقى. هذا ما تريده ليندا.

لعل الكتب الكثيرة التى تتحدث عن عاطفة الأمومة لم تكن كلها عبثاً. أما عاطفة الأبوة، فمن أين لى أن أعرف إذا كان هذا الجنين ابن أبيه، أو ابن سفاح جاء من صلبى. لعلها تعرف من يكون أباه، ولم تشأ أن تقول. لعله جاء برغبتها وتخطيطها. رأت بيت الزوجية يتقوض فأرادت أن تنتزع من بين الأنقاض طفلاً، يكون لها وحدها، وتتولى مسؤوليته بمفردها، وامتنعت أن تحدد له أباً لكى لا يأتى فيما بعد من يطالب بحقه فيه. ظلت واقفة تحتضن كومة من الألبسة:

- إنك لست ذاهبة بهذه السرعة.
- يجب أن أشترى أغراضاً من مركز المدنية.
- سأرافقك إلى هناك.

قلت لها ونحن نشرب القهوة بمقصف المجمع التجارى:

- هل أخبرت دونالد بأنك حامل.
- لن أستطيع أن أخبره وهو على هذه الحالة.

كنت أتساءل بينى وبين نفسى، الآن وقد صار بينهما طفل، حتى لو لم يكن حقاً ابن أبيه، ألن يحدث هذا تبدلا فى طبيعة العلاقة التى تربط بينهما ؟. تبادلنا كلاماً قليلاً وصمتاً كثيراً، ثم افترقنا. ما ظل يقلقنى بعد ذهابها هو أن هذا الطفل الذى يأتى فى هذه الفترة الحرجة، ودون أن يطلب أحد مجيئه، والذى يأتى حسب رواية أمه، عنوة إلى الدنيا، فارضاً وجوده فرضاً، مخترقاً موانع الحمل، وقافزاً كالجنود المظليين فى أزمنة الحرب، فوق كل الحواجز التى تسد عليه الطريق. هذا الطفل الوافد لتوه من العدم، هو الذى سيأخذ منى المرأة التى أحبها. هو العامل الجديد الذى يدخل على الأحداث ويجعلها تأخذ مساراً لن يكون لصالحى.

لم أتحرر من هذا الخوف القابض على عضلات القلب، إلا عندما وجدت نفسى أخوض صراعاً كى أخرج من شخصيتى لأدخل شخصية عطيل. أبدل همومه بهمومى، وأضع ديدمونة مكان ليندا. كنا قد بدأنا تمارين الحركة. وكانت ساندرا تتمدد فوق لوح من الخشب وهى تأخذ مظهر ديدمونة وقد هجعت إلى مخدعها. نشرت شعرها فوق الوسادة وأغمضت عينيها، وحافظت على انفراجة صغيرة بين شفتيها، متمثلة تعليمات المخرج الذى أرادها أن تبدو وكأنها تحلم أحلاماً سعيدة، فهكذا يجب أن يراها عطيل. همدت فى جسمها الحياة إلا من حركة النهدين وهما يرتفعان وينخفضان شهيقاً وزفيراً تحت كنزة الصوف. وأدخل أنا مرتدياً شخصية عطيل، أحمل قنديلى وأقول مناجاتى. وما أن خطوت أولى خطواتى على المسرح حتى استوقفنى المخرج لإبداء الملاحظات. قطع انفعالى، فقلت مدارياً حرجى، مستغرباً هذا الاعتراض على ادائى:

- إننى لم أبدأ بعد.

قال بلهجته التى تضفى خطورة على كل شىء مهما كان تافهاً:

– هذا هو لب المسألة. تظن أنك لم تبدأ طالما أنك لم تباشر قول الحوار. ولكننى أقول أنك بدأت من قبل أن تخطو خطواتك الأولى على المسرح. إن دخولك معناه أن حياة كاملة تدخل إلى المسرح. إنه عطيل يدخل الآن ويحمل معه الحروب التى خاضها والطفولة التى عاشها والتجارب التى صنعت منه هذا الرجل. كل هذا يجب أن أراه قبل أن تقول كلمة واحدة. لا أريد أن أرى خليلاً، طالب الدراسات العليا. أريد أن أرى عطيلاً، عطيلاً كله يظهر على المسرح الآن. أما أنت يا ساندرا..

تركته يقول ملاحظاته لساندرا التى يريدها أن تبدو مثل الأميرة النائمة كما تصورها الأساطير الشعبية. وانشغلت بالتفكير فى وسيلة لاحتواء هذه الشخصية الكثيرة التعقيد. سأنسى مسألة »الغيرة« التى يجعل منها الدارسون مفتاحاً لشخصيته. سأنسى قصة الصراع بين الأبيض والأسود التى يقول بها آخرون. سأنسى الخديعة والخذلان والحب الذى يحمل بداخله بذور الدمار. وسأبحث عن الولاء الممزق بين عالم قديم هجرناه، وعالم جديد لم نحقق تواصلاً معه. عن

هذه الهوة، التى سقط فيها عطيل، بين عالمه وعالمهم، زمانه وزمانهم، لونه ولونهم، رؤيته للحياة ورؤيتهم لها.

اقترح المخرج، بعد أن انتهى المشهد، أن نأخذ ملاحظاته ونبحث عن مكان غير هذا المكان لإجراء تمارين إضافية، لأنه سيكون مشغولاً بإخراج المشاهد الأخرى. وسيلتقى بنا مرة كل أسبوع.

لم تكن غرفة المكياج التى ذهبنا إليها مكاناً ملائماً لإجراء التمارين. فما أن بدأنا حتى جاء من يقاطعنا بحثاً عن مقص أو مرآة أو شريط لاصق. ولم تكن ساندرا تملك غرفة مستقلة ببيت الطلبة يمكن الانتقال إليها. ومن هنا جاءت فكرة أن نذهب لأداء التمارين فى غرفتى.

ما أن وصلت ساندرا إلى مدخل الغرفة حتى انهمكت ضاحكة. رأتنى أنظر إليها مستغرباً، فقالت من خلال الضحكات المتتابعة:

– معذرة، لا أستطيع أن أمنع نفسى من الضحك.

كانت الكتب التى تتناثر فوق الأرض بجوار الوسائد، والأطباق العامرة ببقايا جبن وزيتون وبيض فوق طبلية أستعملها للكتابة ومائدة للطعام، تصنع قدراً من الفوضى أثار

شهيتها للضحك. ولم أكن أشعر بالحرج، فقد صرت أعـرف شيئاً عن طباعها بعد هذه العشرة القصيرة. امـرأة تشـتعل فضولا وحيوية، ورغبة فى الحوار والمجادلة. لها قدرة على التقاط الجانب المضحك مما تسمعه وتشاهده، لترمى بعد ذلك بتعليقاتها اللاذعة دون أن توفر أحداً. وببطء دخلـت ترفـع الكتب من فوق الأرض وتتفحص أغلفتها التى تزينها صـور الجوارى والسلاطين. رأيتها تلتفت نحوى وتهم بـأن تقـول شيئاً، فقطعت عليها فرصة التعليق قائلا بأنها كتـب تتصـل بموضوع دراستى عن ألف ليلة وليلة. اتجهت إلـى النافـذة تفتحها وترفع ستائرها قائلة:

- والآن دع النور والهواء يدخلان هذه المغارة.

ثم سألتنى وقد جاءت دفعات الهواء تعبث بشعرها:

- وهل لا بد أن يجلس ضيوفك فوق الأرض؟

أوضحت لها وأنا أدعوها للجلوس فوق السرير، إننـى اختصاراً للمصاريف، لجأت إلى الطريقة التى تعلمتهـا فـى مدرسة الجامع، عندما كنت أكتب وأقرأ لوحى، جالساً فـوق الأرض، مستغنياً عن المكتب والصالون وقطع أثاث أخـرى لا يحتاجها مسافر مثلى.

– لست مقيماً هنا كما تعلمين. ما أنا إلا عابر طريق. وما هذا المكان إلا محطة على الطريق.

ولكن هذه الكلمات التى قلتها لأضع بها حداً لفضولها، لم تزدها إلا شهية للحديث.

– ليس هناك شىء دائم وشىء مؤقت. ليس هناك إنسان مقيم وآخر زائر. طالما أنك تعيش هذه المرحلة من عمرك هنا، فأنت مقيم وأنت دائم. لأن هذه الأيام قد تكون هى عمرك كله. إننى امرأة تنتمى إلى هذه البلاد، فهذا أسمى نفسى وأنا أقيم فى غرفة مشتركة ببيت الطلبة. هل أسمى نفسى زائرة وأعتبر أن حياتى فى هذه البلاد حياة مؤقتة؟ أليس وجودنا فى الحياة كله وجوداً مؤقتاً؟ إذن فلا شىء يدوم سوى المؤقت كما يقول الفرنسيون.

سألتها أن تشرب كأساً مكافأة لها على هذه الأفكار. اعتذرت لأنها لا تشرب الكحول قبل الفراغ من العمل الذى أمامها. صنعت لها كوباً من الشاى الأخضر المخلوط بالنعناع.

– أنت تحب أن تكون مختلفاً.

- لست صاحب فضل فى اختراعه. هكذا نشرب الشاى فى بلادنا.

أردت أن أناقشها بمنطق يتفق مع منطقها فقلت لها:

- إننى أحمل بداخلى تقاليد قبائل البدو التى أنحدر منها. يحمل البدوى بيته فى قلبه، لأنه لا بيت له. وكذلك أنا. لقد غيرت مسكنى مراراً عديدة، خلال هذه الفترة القصيرة التى أقمتها معكم.

- لا تخطئ فهمى. فليس خطأ أن تقوم بفعل مهما كان بسيطاً تعلن به هويتك، وتؤكد به ذاتك وشخصيتك. وتستمد منه إحساساً بالاستقلال. نوع من آليات الدفاع العفوى، وأنت تعيش بعيداً عن محيطك الطبيعى، داخل بيئة تحس بأنك غريب عنها. إن هذا الكوب من الشاى يقول ذلك.

- إنك تتحدثين عن غربة لم أشعر بها فى يوم من الأيام. فمن أين تجيئين بهذه الأفكار؟

- لن أقول أن اختيارك لألف ليلة وليلة موضوعاً لرسالتك، يحمل فى حد ذاته بعض الدلالات، وإن كثيرين ممن يفشلون فى التعاطى مع الواقع يلجأون إلى اختيار

مواضيع تتصل بالخرافات والميثولوجيا. لن أقول إنك منهم لأن هذا يقتضى أن أعرفك أكثر.

- شكراً كثيراً. إنك لم تدخرى شيئاً تقولينه فيما بعد. ماذا لو عرفت الجانب الذى اخترت دراسته؟

- لا تقل إنك ستكتب عن المرأة فى ألف ليلة وليلة. فقد صار هذا الموضوع هو تقليعة هذه الأيام. المرأة، المرأة، المرأة. كأنهم صدقوا المثل الفرنسى الذى يقول »فتش عن المرأة«، فصاروا يفتشون عنها فى أرفف الكتب ورماد التاريخ وحواشى المخطوطات القديمة، حتى أصابونا بالضجر. فلا تقل بالله عليك أنك فعلت مثلهم.

- ليس تماماً. فهو موضوع يختلف قليلاً عن المألوف. وها أنا أحذرك منذ البداية. إنه يتصل بالعنف والجنس فى هذه الحكايات.

أحنت رأسها تسألنى أن أعيد الكلمات التى قلتها. أعدت عليها عنوان الرسالة بصوت أكثر ارتفاعاً، مبالغة فى استفزازها. أرسلت ضحكتها الصاخبة وهى تجلس فوق السرير وترتمى بجسمها إلى الخلف وإلى الأمام وكأنها أحد المجاذيب فى حفلة زار.

- يا له من موضوع يتفجر قوة وصـــخباً وتحـــدياً، لا يتصدى له إلا من لديه قدرة على اقتحـــام أوعـــر الطـــرق وأكثرها مشقة وهولاً.

أضافت وهى تطفئ لفافة تبغها الرابعة أو الخامســـة، فهى تدخن بمثل ما تتكلم:

- ما أفلحك فى اختيار الواجهات الكبيرة التـــى تنبـــئ على الفور أنك تريد أن تخفى وراءها شيئاً تخشى أن يكتشفه الناس عنك. لن أستطيع أن أقول لك ما هو، ولكن يكفـــى أن أقول أنك إنسان يخجل من ضعفه. ويحاول أن يظهر بمظهر يوحى بالقوة لكى لا يكتشف الناس هذا الضعف. لعلك نشأت فى بيت كان خالياً من الحب. لم تكن أمك تطيق أباك، ولـــم يكن أبوك يطيق أمك. أو لعل أمك لم تكن تجد وقتاً للاعتناء بك عندما كنت رضيعاً فلم تمنحك ما يكفى من الحب الـــذى يزرع الثقة بالنفس. لا أدرى كيف لم يقل لك أحد من قبل أن هناك ضعفاً فى كل الناس، وأن لا أحد يخلو مـــن ذلـــك إلا سوبرمان بشخصيته الأسطورية، فلماذا الخجل؟

- ما أعظم قدرتك على قـــراءة العنـــاوين وفنـــاجين الشاى.

- وأستطيع أن أقرأ شيئاً آخر. ستكون عطيلاً ممتازاً لو نسيت عطيلاً وتذكرت نفسك. لا حاجة بك لأن تبحث عما يعانيه عطيل وتحاول تشخيصه ومحاكاته. ابحث عما تعانيه أنت. عن الأبيض والأسود فى نفسك أنت، قبل أن تبحث عنه فى شخصية عطيل. وسيأتى تمثيلك رائعاً.

أرهقتنى أسلوبها الراكض فى التحليل والتفسير، فقررت أن أكسب ودها ببعض كلمات المجاملة:

- لا شىء يجعلنى أستمر فى تأدية هذا الدور إلا يقينى بأن ممثلة موهوبة مثلك سوف تنقذ المشهد من السقوط.

- ستجد أنت شيئاً من نفسك فى عطيل. أما أنا فلن أجد شيئاً من نفسى فى ديدمونة. إن ما أغدقه عليها المؤلف من نقاء وشفافية، يجعلها كائناً نادر الوجود بين البشر. لقد وضعها شكسبير هناك مثل نجمة بعيدة تضىء لنا جزءاً من الصراع الذى يدور فوق الأرض. سأكون أكثر انسجاماً مع أوفيليا، لأن جنونها يعجبنى.

ظلت الجملة الأخيرة التى قالتها ساندرا تتردد فى ذهنى. إن بها هى أيضاً شيئاً من الجنون الذى يعجبنى. قالت وهى تخلع نعليها، وتتمدد فوق السرير استعداداً لبدء التمرين:

– دعنا لا نظلم غرفتك. إنها أفضل كثيراً من غرفة المكياج.

أبدت ساندرا اقتراحاً بأن نستفيد من فرصة غياب أهل البيت وننتقل لأداء التمرين فى بهو الطابق الأرضى الذى يشبه فى اتساعه مسرحاً حقيقياً يتيح مجالاً للحركة ويساعد على اتقان المشهد. لم أجد داعياً للاعتراض. فصرنا نستخدم الردهة للتدريب، ونذهب فى نهاية الأسبوع إلى المخرج ليرى ما وصلنا إليه.

كان المشهد يقتضى أن يقبل عطيل ديدمونة وهى نائمة. وكنت خلال هذه التمارين أقبلها فى خدها، مؤجلاً القبلة الحقيقية إلى ليلة العرض. وفى إحدى هذه الجلسات وجدت نفسى أترك الحذر وأنتقل بالقبلة من خدها إلى شفتيها. لا أدرى لماذا فعلت ذلك، أو كيف واتتنى الشجاعة لأن أفعله. ربما جاء ذلك نتيجة ما نشأ بينى وبين ساندرا من ألفة، وما رأيته فى طبعها من استهتار بالتقاليد التى يحافظ عليها الناس فى معاملاتهم. أو لعل السبب هو اندماجى فى تأدية الدور ورغبتى فى أن أعبر تعبيراً صادقاً عما يعتمل من عواطف فى صدر عطيل. أو لعل الربيع الذى يجلس

الآن فى الحدائق المجاورة، حاملاً إلينا بهاء الشمس وعطــر الأرض، هو المسؤول عن هذا الانفلات من نظام متفق عليه. رأيتها ممددة فوق الأريكة. ترتدى قميصاً أبيض يكشف عن ذلك الجزء الشهى من صدرها، والنهدان بشكلهما الــدائرى يرتفعان وينخفضان تحت ارتعاشة القميص. كائنان صغيران يرسلان دعوة صامتة للغواية. التصق البنطلون الجينز بثنيات الجسد وتعرجاته، يرسم التفاصيل رسماً دقيقاً، ويصنع منهــا أمواجاً زرقاء فى لوحة رسام يحتفل باللون والضوء. فاح من جسمها عطر نسائى لم أتبين شذاه المسكر إلا عند اقترابــى منها، وهى تأخذ وضع أميرة الأساطير النائمة فى خــدرها. وقفت متأملا تلك المساحة بين العنق والصدر التى صــارت تتوهج تحت دائرة الضوء التى صنعتها نافذة بعيدة، وأنظــر إلى ذلك الوجه الغاطس فى أسرار صلواته الصامتة. تناثرت من حوله خصلات الشعر صانعة تكويناً فوضوياً وانتشــرت زعفرانية اللون مشوبة باحمرار، كــذوائب النــار تحــرق الأريكة وتحرق صدرى. رمت بذراعها الأيسر فــى كســل واستهتار بعيداً عن الجسد النائم واســبلت الــذراع الآخــر بجوارها واراحت الأصابع النحيلة ذات الأظــافر المخضــبة

بالمنيكيور فوق فخذها الذى يعانق فخذها الثانى عناقاً مهلكاً قاسياً. مستغرقة فى أداء دورها. تغمض عينيها فى اغفاءة وهمية، عامرة بالأحلام السعيدة، لا ترى شيئاً مما يعصف بى من مشاعر وانفعالات. تأملتها بنظرة تحاول أن تحتوى كل هذا البهاء النائم، ثم أحنيت جسمى فوق جسمها. اقتربت بوجهى من وجهها. امتزجت أنفاسى بأنفاسها. تلقيت عبيرها الذى انسكب رعباً وهلاكاً فى شراييني. ولم أعد أرى شيئاً سوى شفتيها. شفتان قرمزيتان، تتوهجان عنفاً وجنساً. ترتعشان وتتنفسان وتكتسبان وجوداً مستقلاً عن بقية جسمها. حبتا فاكهة، نضجتا، وحان زمن قطافهما، ثم صدر أمر إلهى بتحريم الاقتراب منهما.

- »آه يا أبرع نسق صنعته الطبيعة بروعتها«.

وجدت نفسى أغمض عينى كمن يريد أن يلقى بنفسه إلى التهلكة، وأطبق بفمى على فمها.

- »يا نفساً عاطراً، تكاد تغرى العدالة بأن تكسر سيفها، قبلة أخرى وأخري«.

أقول ما يقوله عطيل وأقبلها.

- »قبلة أخرى وهى الأخيرة. ما كانت حلاوة قط فاتكة مثل هذه«.

رفعت رأسى ووقفت. بقيت جامداً للحظة، استمرئ هذه النشوة، وأنا لا أصدق أننى قطفت هذه الفاكهة المحرمة دون أن ينالنى عقاب مريع. أنتبه إلى أن هذا الشعور العذب، لا يناسب الغضب الدموى الذى يهز كيان عطيل. فأعود لإلقاء خطابه حانقاً، أتوقع فى كل لحظة أن تقوم من رقادها ساخطة على مافعلت. ولكنها لم تقل عندما استيقظت إلا الحوار الذى تقوله ديدمونة. أكملنا التمرين بطقوس القتل التى ينتهى بها المشهد، فقلت لها بعد أن قمت من موتى وقامت من موتها:

- يبدو أننى اندمجت فى التمثيل حتى نسيت نفسى.

هزت كتفيها وكأن مسألة أن أقبلها فوق شفتيها شىء لا يختلف عن طريقتى السابقة فى تقبيل خدها. إننى لم أخرج على النص أو أخترع قبلة لا وجود لها. فهذا ما يفعله عطيل وما أمر به كاتب المسرحية. وهى ترى أننا بلغنا مرحلة تقتضى أن نقوم بأداء المشهد كاملاً، تفادياً لأى ارتباك ليلة العرض. ولا أدرى لماذا اعتبرت هذه القبلة مرحلة جديدة فى

علاقتنا، وإن حاجزاً تحطم الآن ليفضى بنا إلى علاقة أكثـــر حميمية. ولكن ساندرا تعاملت معى بأسلوب الممثلـــة التـــى أعدت نفسها ليكون التمثيل حرفتها، ولا تراه خروجاً علـــى أداء هذه المهمة أن تمارس الحب إذا اقتضى دورهـــا ذلـــك، دون أن تخلط بين الحياة وبين التمثيل. وصرت فيما تلى ذلك من تمارين أقبل فمها الشهى الجميل دونما حرج. أرتدى قناع عطيل وأقبلها. بحب وشوق أقبلها. بشبق وعنف أقبلها. فلست إلا إنساناً مسخراً لخدمة هذا الدور، متمثلاً شخصـــية هـــذا المحارب القوى العنيف. إذا ما انفعلت فإن عطيل هو الـــذى ينفعل. وإذا ما أبديت حماساً ولهفة وقبلتها بشهية كبيرة قبلـــة طويلة تزيد شفتيها احمراراً، فإن عطيلاً هو الذى يريد ذلك. وكان عطيل دائماً يأتى. من خلف حجب التاريخ والأسطورة يأتى. ليكون عونى على ارتشاف هذه القطرات اللذيذة مـــن شفاه ديدمونة.

ظلت ليندا تهاتفنى مرة كل أسبوع. لم يكن فى البيـــت الريفى هاتف حتى أستطيع الاتصال بها، فلم يعد بإمكانى إلا انتظار هاتفها. كنت أخبرها بشوقى إلى رؤيتها، وأهدد بأننى سأكترى سيارة وأذهب إليها إذا لم تسرع بالمجىء. تعـــدنى

بأن تنتزع وقتاً لزيارتى، ثم تتأسف فى المكالمة التالية لأنها لم تستطع أن تترك دونالد خشية أن تضيع النتائج التى حققتها معه بعد أن بدأ يألف حياة الريف ويبرأ من إدمانه. مضت أسابيع خمسة على غيابها، وهى تنوى البقاء معه أياماً أخرى حتى تراه قد تماثل للشفاء تماماً. لم أخبرها بما أقوم به من تمارين مع ساندرا، وتركت ذلك إلى حين عودتها. لم أتوقف عن التفكر بها. وأهجع إلى غرفتى ليلاً فأشتاق إلى صحبتها، وأنتظر بلهفة يوم رجوعها، ولا أرى البيت إلا مغارة موحشة وهى غائبة عنه. عدا تلك اللحظات التى أجد فيها ساندرا بجوارى، تمنحنى تعويضاً، يسد للحظات قليلة، هذا الفراغ الذى تركته ليندا فى حياتى.

جاءت هذه الأنثى الصغيرة، بهمجية شعرها الزعفرانى، واخضرار عينيها، وتوقد أفكارها، توقظ فى نفسى شهية قديمة للنقاش، وتعيد إلى الحياة ذلك الجزء من عقلى الذى أحلته على التقاعد منذ أن خبت جذوة الفكر الحارقة التى كانت تدفعنى إلى تقليب كل الأحجار، ومناقشة البديهيات بدل التسليم بها، وطرح الأسئلة التى تفضى إلى أسئلة أخرى. ونصب المحاكمات للبشر والآلهة على السواء.

استسلمت لطمأنينة العقل المستقيل، ورضيت بمنطق الأشياء المألوفة، أرهن لها نفسى، وأدور مع الدائرين فى طواحينها. وهاتفاً، الأمان، الأمان صرت أهادن الصمت، وأدير وجهى إلى الناحية الأخرى كلما رأيت شيئاً لا يعجبنى. تـأتى هـذه الفتاة الآن لكى تذكرنى بتلك المرحلة القديمة، عنـدما كنـت مثلها فى بداية العشرينات من عمرى. كسرت قشرة الطفولة والصبا، وبدأت رحلة اكتشاف الناس والحياة. أناقش وأجادل وامتلئ بالأوهام التى تغذيها كتب تسـعى لاعـادة صـياغة العالم. حاولت أنا أيضاً إعادة صياغته، وعندما فشلت، تركت له نفسى يصيغها كما يشاء. تنازلت مثل نبى لم يجـد مـن يؤمن به، عن رسالتى، ورضيت بهزيمتى، وعدت مسـرعاً إلى صفوف الذاهبين إلى المعبد، ممن أنكرت عليهم ديـنهم، أنضم إليهم وأعبد ما يعبدون. كانت ساندرا تختلـف قلـيلاً عنى، فهى لا تأتى محملة برسالة إلى العالم كما كنـت أرى نفسى. أو تملك إحساساً بالدور الاجتماعى والتاريخى الـذى يجب أن تؤديه. إنها لا تحمل رسالة نحو أحد سوى نفسـها. فهى تلميذة مخلصة للأدب الفرنسى الـذى تتخصـص فـى دراسته بالجامعة، تعلمت منه التأكيد على الذات، والاحتفـال

بمعنى وجود الإنسان فى الحياة. وأطروحات الوعى المقموع الذى يسعى لأن يكسر القشرة التى تسجنه ويعبر عن نفسه بالأسلوب الذى يتفق معه، كما تقول مردده أفكار الوجوديين. وصارت مثل متمردى الروايات الوجودية لا ترضى بخبرة الآخرين بديلا عن الانغماس فى التجربة والمغامرة، ومعرفة الأشياء عن طريف الخبرة الشخصية. وكنت كثيراً ما أفكر فيهما معاً. ساندرا وليندا. محاولا أن أهتدى إلى شىء جوهرى يجمع بينهما، صار مركز جذب واستقطاب لعاطفتى قبل أن أدركه إدراكاً واعياً. ساندرا، التى تصغر ليندا سبع سنوات وتصغرنى ثلاثة عشر عاماً، تبدو دائماً أكبر من عمرها وأكثر نضجاً. كتاب أنيق مبهج لا يمل المرء قراءته، والاستمتاع بما فيه من صور وألوان وأفكار. امرأة مصنوعة من جمر مواقد الفكر، قادرة على إطلاق الشرارات التى تضىء الذاكرة والوجدان. فى حين كانت ليندا، بأنوثتها، وثراء عواطفها، وردة من ورود الحديقة، تشرب الريح والمطر، وتستمتع بسقوط ندى الفجر، اقرب إلى الأشياء الجميلة فى الطبيعة وأكثر تمثيلاً لها وتعبيراً عنها. ساندرا، امرأة تستفز العقل وتوقظ فى النفس توقاً إنسانياً إلى التحرر

والانعتاق، واكتشاف المناطق المجهولة خلف مظاهر الأشياء المألوفة. وليندا امرأة اللحظات الحميمة، التى تجيد لغة القلب، وتدخر فى جسمها فاكهة لكل المواسم، وشمساً لليل الشـــتاء. إن قدراً من التورط العاطفى مع ممثلة تشـــاركنى دوراً فـــى مشهد مسرحى، لهو ضرورة يفرضها أداء المشـــهد، حيـــث ينتهى الأمر عند ذاك الحد، وستبقى ليندا هى البيت، الذى ما أن يأتى المساء، حتى يأوى إليه القلب. هكذا وجدت نفســـى مرة أخرى، قادراً على إجراء هذه المصالحة بين المـــرأتين، يتقاسمان عاطفتى، ويتجاوران دون صراع فى منطقة مـــا، على حافة الظل، بين الحلم والواقع.

كنت أقوم مع ساندرا بتدريبنا المعتاد فى بهو البيـــت، عندما فتحت ليندا الباب ودخلت إلى البهو. كنت فـــى تلـــك اللحظة قد وصلت إلى ذروة المشهد، حيث يباشر عطيل قتل ديدمونة. أخذت الوسادة ووضعتها فوق وجه ساندرا. وبجسم يهتز انفعالا، وملامح تمتلئ غضباً، وذراعين ويدين وأصابع تمتلئ تشنجاً، صرت أتظاهر بأننى أقتلها، كاتما أنفاسها تحت الوسادة. وهى تتظاهر بأنها تتلوى ألماً ومعانـــاة لســـكرات الموت. تطلق صرخاتها المكتومة، وتحـــاول المقاومـــة دون

جدوى. كنت مستغرقاً فى أداء الدور فلم أنتبه إلى ليندا وهى تدخل البيت، حتى وجدتها تقف قريباً منى وقد فــرت مــن وجهها الدماء وامتلأت ملامحها رعباً وهى تصيح:

- يا إلهى ما الذى تفعله بحق الشيطان.

أدركت أنها فوجئت بمشهد القتل وحسبتنى أقتل هــذه الفتاة بالفعل. رميت بالمخدة وهرعت إليها، أمسك بها قبل أن تتداعى فوق الأرض، فى حين قامت ساندرا مــن مرقــدها لتقول معى فى نفس واحد:

- إنه تمثيل. مجرد تمرين على مشهد مسرحى.

أجلسناها فوق الأريكة وهى ما تزال فى حالــة مــن الذهول والفزع. أحضرت لها كوباً من الماء تبلل به حلقهــا. وجلست ساندرا بجوارها تشرح لها ما نقوم به من تدريبات. أمسكت كوب الماء بيد مرتعشة، تأخذ رشفات منه، وتقــول بأنفاس متقطعة:

- إذن فهو مجرد تمثيل. شكراً للسماء أنه لــم يكــن حقيقة.

قلت لها بعد أن رأيتها تضع كوب الماء فوق الطاولــة بيد أقل ارتعاشاً:

- كيف ذهب بك الظن إلى حد أن حسبتنى قاتلاً؟

- وكيف لا أحسبه حقيقة وأنا أراك تقوم بخنقها وعلى وجهك ملامح وانفعالات القتلة. لا شك أننى لم أكن لأفــزع كل هذا الفزع لو أن أحداً أخبرنى مــن قبــل، بــأمر هــذه التمارين.

كان ما فعلته إثماً كبيراً فى حقها. أجلب امــرأة إلــى بيتها، وأمثل معها مشاهد الحب والعنــف دون أن أخبرهــا، وأجعل من غرفة جلوسها مسرحاً دون أن أطلب اذنها، ثــم أختار لحظة القتل لكى تتفق مع موعد مجيئها، فكيف لا يأتى عتابها قاسياً كحد السكين. قدمت لها ساندرا، وقلت رداً على عتابها:

- إنه مجرد مشهد صغير لا يســتحق أن أقــوم لــه بالإعلان والدعاية.

- ما رأيته لم يكن مشهداً صغيراً. كــان حلقــة مــن حلقات الجحيم.

خرجت ساندرا، وجاءت ليندا تسألنى أن أعينهــا فــى إدخال الحقيبة التى لا تقوى على حملها. أدركت أنها تضــع اعتباراً للجنين الذى فى بطنها، وأنها عادت لكى تبقى.

بدت مرهقة، تكسو ملامحها علامات أسى ظننته جاء نتيجة المشهد الذى أفزعها. ولكن أثر الأرق فى عينيها، والشحوب الذى طرد الاحمرار من وجنتيها، وزوجها الذى لم يأت معها، كل ذلك ينبئ بأن هذه الكآبة ليست طارئة أو جديدة عليها. كآبة لم تفلح فى إزالتها هذه الضحكات السريعة التى أطلقتها، ساخرة من خوفها لحظة دخولها البيت.

– من أين جاءتك هذه القدرة على تقمص دور القاتل؟

قلت مازحاً، أحاول أن أطرد سحابة البؤس المعلقة فوق رؤوسنا:

– يبدو أننى لم أتحرر من ميراث ذلك الإنسان البدائى، الذى كان يخوض صراعاً قاسياً من أجل البقاء، فلا يجد غير القتل واستخدام العنف سبيلاً إلى ذلك. إن هذا الجانب المظلم من نفسى يبقى مقموعاً حتى يجد فرصته للتنفيس عن طريق التمثيل.

لعل كلماتى لم تكن طرداً للبؤس وإنما استدعاء له. ولعل ما أقوله هازلاً يلمس جانباً من الحقيقة. فليس عبثاً أن الممثل غالباً ما يجيد تمثيل نقائضه فى الحياة، لأنه يعبر عن جانب مقموع فى نفسه. هل أقول لها الآن، إن جدى لأمى

كان قاطع طريق يصنع من امعاء ضحاياه قرباً يحمل بها الماء فى الصحراء. كان والدى ينسى أن هذا القاتل هو أيضاً جدى، فلا يذكر إلا العلماء من اسلافه لكى يعيد سيرتهم إلى الدنيا. ولكن أليس للجد القاتل حصة فى حفيده؟ أليس من حقه هو أيضاً أن يجد امتداداً له وإحياء لذكراه ؟.

تركت الرجل العالم والرجل القاتل يتصارعان، وقلت لأصل بالفكرة إلى نهايتها:

- من يستطيع أن يجزم، بأن ذلك الرجل البدائى، قد مات وانتهى وجوده الفاعل فى سلوكنا وتفكيرنا؟

اكتشفت أننى أستعير أسلوب ساندرا، وطريقتها فى تحليل المواقف دون أن أدرى. ترى ماذا تقول ليندا بشأن هذه الفتاة المرسومة بأكثر الألوان إثارة وسطوعاً، والتى أخفيت عنها علاقة العمل التى جمعتنى بها؟ ألا يجعلها ذلك تشك فى براءة هذه العلاقة؟ كانت هى التى اقترحت أن أبحث عن امرأة أخرج بها إلى الحانات لكى يشاهدنا دونالد فيتعافى من مرضه. هل ما زالت تؤمن بهذا الأسلوب علاجاً للزوج ؟. لعله لو جاء اليوم، وشاهدنى مثلها، أخنق امرأة فى بيته، لأعادت له الصدمة عقله الغائب.

أوت مبكراً إلى غرفة نومها، ولم أعـرف منهـا، إلا عندما جاء الصباح وجلسنا نتناول إفطارنا، كيف أن دونالـد خرج من بيت أهلها ولم يعد. أخبروها بـأنهم رأوه يركـب حافلة تتجه إلى مدينة »جلاسكو«. فأخذت سيارتها، وذهبـت وراءه، تبحث عنه فى الحانات والفنادق المجـاورة لمحطـة الحافلات، دون أن تلقاه. عادت للبحث عنه فى اليوم الثانى، وفى اليوم الثالث أخذت حقيبتها وعادت إلى بيتها.

- ظننته أصبح أفضل حالا.

- هذا ما كنت أظنه أنا أيضاً. لكنه فجأة رحل.

- لعل له أهلا يذهب إليهم.

- لا أهل له سوى أخت هاجرت مع زوجها وانقطعت صلته بها.

ثم أضافت، كأنما تخاطب نفسها:

- لا أدرى كيف يعيش الآن. ليس لديه ما يكفى لشراء فرشاة أسنان.

صمت ثقيل كالرصاص حل بيننا. لم أكن أنظر إليهـا عندما تتكلم. وكانت هى تقول كلماتها فـى جمـل قصـيرة متقطعة، وتتناول إفطارها ببطء ودون شـهية. هـى أيضـاً

تتحاشى أن تنظر نحوى. تمسك بكأس الشاى وتبقيه قريباً من فمها وتطيل النظر إليه. أخذت الإبريق أسكب منه شاياً لنفسى. لم أنتبه إلى أننى نسيت أن أضع السكر. أخذت الرشفة الأولى فأحسست بأمعائى تصعد الى حلقى. قلت طالباً لها ولنفسى استراحة من الحديث عن دونالد:

- وكيف حال الجنين؟

انتقلت من موضوع ثقيل، إلى موضوع أكثر حرجاً.

- إنه بخير. أو هكذا كان عندما أجريت فحصاً منذ أسبوع. لا أدرى مدى تأثير مفاجأة الأمس عليه. لعله يجتازها بسلام.

رأتنى مرتبكاً، فسألتنى بسرعة:

- متى ستقدمون عرضكم؟

- فى ختام العام الدراسى.

- تحتاجون إلى شهر آخر تقريباً.

- ستة أسابيع على وجه التحديد.

- تأخذون وقتاً طويلاً. فى التدريب أعنى.

- ليس طويلاً عندما تعرفين أننا نقوم بتجربة واحدة فى الأسبوع، ولأنها لا تكفى، نلجأ للتمارين الإضافية.

كان واضحاً أن التواصل بيننا يعانى مشكلة مـــا. وان هناك شيئاً يفسد صفاءه ووضوحه. وما هـــذه الانقطاعـــات ولحظات الصمت، والقفز من موضوع إلى آخـــر، إلا دليـــل على ذلك. غاب دونالد وبقى ظله يطاردنا. وباحثاً عن سبيل لحسم هذا الموضوع قبل أن يفضى بعلاقتنا إلى الهلاك، قلت لها:

– سأذهب معك للبحث عنه.

– ليس هناك من سبيل إلا انتظاره هنا. فهو لابـــد أن يعود.

توالت الأيام دون أن يظهر دونالد أو تأتى منـــه أيـــة أخبار. كنت قد توقفت عن دعوة ساندرا إلى البيت. مكتفيـــاً بالتمرين الأسبوعى الذى أجريه معها بحضـــور المخـــرج. عادت ليندا. ولكن البيت لم يستعد بهجته القديمة. الروح التى ظننت بأنها ستعود بعودتها إليه، ظلت غائبة. استلمت لينـــدا عملا مؤقتاً بوكالة تتولى الإعداد للدورات الصيفية. وذهبـــت فى مشاوير كثيرة إلى مكتبة الجامعة، تملأ ورقاً تبـــرر بـــه غياب زوجها، لكى لا يجد نفسه عاطلاً عندما يعود. لم تكن تسهر خارج البيت، ولم يكن أحد يزورها أو تزور أحداً، عدا

ممرضة متقدمة في السن تأتي إليها، تحمل جهازاً لقياس الضغط، أو شيئاً مما تحتاجه النساء الحوامل من حبوب وأغذية مركزة. وظلت تقوم بزيارة إلى بيت أهلها كل يوم أحد، أملا في أن تسمع شيئاً عن دونالد. كنت أحرص ألا أتركها بمفردها. أستيقظ مبكراً لألتقي بها على مائدة الإفطار، وأعود أحياناً كثيرة في المساء لأبقى بجوارها. لم أجرؤ خلال هذه المدة أن أعانقها أو أقبلها أو أشير إلى ذلك الجانب المؤجل من علاقتنا. كانت الرغبة لا تفارقني، ولكنها مثل الرغبة التي تراود رجلاً يلتقي بامرأة مثيرة لا يعرفها، ويدرك أنه لن تضمه معها غرفة نوم واحدة. كنت أكتفي بمتعة أن أكون قريباً منها، وأنتظر يوماً تزول فيه هذه الغيوم وتعود فيه هذه المدينة المقفلة في وجهي، مدينة أملك مفاتيحها وأتجول حراً بين أشجارها وفوق أرضها المباركة. ها هو دونالد يحقق انتقامه. وبمثل ما أفسدنا عليه حياته، جاء هو أيضاً يفسد حياتنا. نعيش بأمل أن يظهر وقد تعافى وعاد إليه عقله، حيث تستطيع ليندا أن تترك له بيته وتتحرر من زواج أثبتت الأيام فشله، لنبدأ مرحلة جديدة في علاقتنا، لا تخالطها أوجاع الضمير الذي يتوق إلى البراءة. ولكن دونالد لا يظهر

مريضاً أو معافى، كأنه أدرك مقصدنا، وأراد أن يعاقبنا، فاختفى هذا الاختفاء الغامض، ليترك حبنا معلقاً بين الأرض والسماء، لا يجد مساحة أرض صغيرة، يبنى خيمته فوقها.

وبعد غياب امتد لأكثر من شهر، ظهر دونالد. كان عدنان هو الذى أخبرنى بظهوره عندما ذهبت للقائه، عشية الأحد، بحانة العناقيد. كان عائداً لتوه من أحد الملتقيات السياسية. وجدته يضع شارة فوق صدره، لم أتبين من كتابتها سوى » لجنة التنظيم«.

– ما أكثر الشارات التى ترتديها. لا أراك إلا وأنت تحمل شارة تختلف ألوانها عن الأخرى، فإلى أى تنظيم تنتمى هذه الشارة الكئيبة الزرقاء؟

– دعك من هذا الآن. إن الطلاب العرب ينتقدونك لأنك لا تحضر لهم اجتماعاً.

– متى أراك دون أن تحمل لى انتقاداً. ألهذا كنت تبحث عنى؟

– أعدنا إحياء جمعية أصدقاء القضايا العربية، وكنت أريدك أن تكون معنا. من العار أن تمتلئ القاعة بالاسكتلنديين ويختفى العرب.

- دعنى أصنع لكم الأصدقاء على طريقتى الخاصـــة. تعرف أننى أترك السياسة لرجالها.

- وعلى أى نوع من الرجال تريدنا أن نحسب الســيد خليل الإمام؟

- يمكنك أن تحسبنى على رجال الأدب. فهو مجـــال رحب كريم لا يضيق باللاجئين إليه.

- حتى لو اعتبرناك كبير الأدباء العرب وحامل رايتهم إلى النار. متى كان الأدب ينفصل عن السياسة؟

- انتهى الزمان الذى كان فيه الناس يخلطــون بــين مختلف المهن. يعزفون الموسيقى ويعالجون الفلسفة ويهتمون بتحضير الأرواح ويشتغلون أيــام الآحــاد بالخطابــة فــى المهرجانات السياسية. أفق يا عزيزى. نحن نعــيش عصــر التخصص.

- العنف والجنس. ما أنبل هذه القضية التى اخترت أن تكرس لها حياتك، ونبذت من أجلها القضــايا الأخــرى. لا أدرى كيف لا تخجل من هذا التخصص؟

- كأنك لم تقرأ فرويد لتعرف أن كل شيء في حياتنا يبدأ بالجنس وينتهي إليه. هل تريد أن أحدثك الآن عن الدافع الجنسي وراء نشاطك السياسي؟

- ولماذا لا تتحدث عن المركيز دو ساد، طالما أنك أصبحت سادياً مثله. عرفنا الآن ضحيتك الأولى، فمن سيكون ضحيتك الثانية بعد دونالد. ليتك تراه لتعرف حجم جنايتك.

- لابد أنك رأيته. قل بسرعة، أين هو؟

- إنه ينام مريضاً في بيت أنار.

سألته أن ينتظرني وخرجت أكترى سيارة أجرة تأخذني إلى البيت. لم تكن ليندا قد عادت من زيارة أهلها. انتظرتها قليلاً داخل البيت. لم أطق البقاء فخرجت لأجلس على عتبة الباب أنتظرها. مر الوقت بطيئاً ثقيلاً. وما أن رأيت سيارتها قادمة حتى ركضت إليها وفتحت الباب قبل أن تقف قائلاً:

- هيا بنا إلى دونالد.

- ما لذي تقوله؟

- ستجدينه الآن ببيت أنار.

أفهمتها أن هناك قسماً بنادى المدرسين يخصصونه لإقامة الأساتذة الزائرين، وان انار تقيم مؤقتاً هناك. سألتها أن تتركنى قريباً من حانة العناقيد. فى حين ذهبت هى للقاء زوجها العائد من غيبته.

عرفت من عدنان أن العلاقة التى نشأت بين دونالد وأنار، لم تكن منذ البداية، إلا شفقة منها على رجل لم تستطع تعاليم بوذا أن تمنحه أجنحة يرتفع بها فوق مشاكل الواقع. أو لعله ارتفع قليلاً، ثم ما لبث أن ارتطم بالأرض. حاولت المرأة إسعافه، ورأته نافراً من بيته فمارست تأثيراً عليه بحيث واصل حياته مع زوجته، وأفلحت فى إقناعه بأن يذهب معها إلى الريف، وعندما رأته يغيب كل هذه المدة، ظنت أنه تجاوز أزمته وشفى من أسقامه، إلى أن فوجئت به منذ يومين، يدق بابها مع الفجر، ثملاً، ومريضاً، يطلب مأوى.

رجعت مبكراً إلى البيت أنتظر ليندا. رأيتها تعود بمفردها، وقالت دون أن أسألها، بأن دونالد رفض أن يأتى معها. انهارت فوق الأريكة بجوارى، تضع رأسها بين كفيها وتبكى بكاء صامتاً. واحتراماً لحزنها، جلست صامتاً حتى أكملت بكاءها. دخلت بعد ذلك إلى غرفتها وأحضرت حقيبة

فارغة، صارت تملأها بالبدل والقمصان وما يحتاج إليه من أغراض أخرى. رأيتها تعتنى اعتناء كبيراً بوضع كل قطعة فى الحقيبة، وتسرح قليلاً وهى تتأمل القميص أو البدلة أو المنامة التى بين يديها، عندما كانت تتولى بنفسها انتقاء وشراء كل ملابسه وحاجاته. انتهت من إعداد الحقيبة، ونقلتها إليه. أدركت وأنا أراها تفعل ذلك، إن دونالد لن يطأ هذا البيت مرة أخرى.

لم يبق على تقديم العرض المسرحى غير أسبوع واحد. فصرنا يومياً نقوم بتدريب شامل على كل المشاهد وبكل ما يقتضيه العرض من ملابس وديكور وموسيقى وإضاءة، وبرفقة الممثلين الثانويين الذين يشاركون معنا فى أداء المشهد بجملة أو جملتين. كما انشغلت مع الفرقة فى أداء مهمات أخرى كان من بينها أن أطوف الكليات والمكتبات لتوزيع نشرات الدعاية. أخرج مبكراً ولا أعود إلى البيت إلا آخر الليل، فلا أرى ليندا إلا صدفة وللحظات قصيرة جداً. أعطيتها فى إحدى هذه المرات بطاقة لحضور الحفل، وعرفت منها أن دونالد ترك بيت انار، وذهب ليقيم بفندق للبحارة قريباً من الميناء، بعد أن أنهى عمله مع المكتبة وأخذ

مستحقات نهاية الخدمة، وقرر أن يستقر هناك. أسعدنى أن مرحلة قد انتهت بكل ما رافقها من قلق وانتظار، وإن مرحلة جديدة أذنت بالمجىء الآن، وجب أن نستعد لها ونعيد ترتيب الأشياء بما يضمن الاستقرار والأمان لعلاقة الحب التى بيننا. لم نتبادل سوى كلمات قليلة، مؤجلين الحديث عن المستقبل إلى أن تنتهى مشاغلى مع الفرقة. رأيتها مقبلة نحوى بوجه يضيئه الابتسام. فوقفت صامتاً أنظر إلى وداعة عينيها، وأنصت إلى كلماتها وهى تتمنى لى حظاً طيباً، اقتربت منى، فلم أجد حرجاً فى أن أضمها إلى صدرى، وكأننى ألتقى بها، بعد غياب طويل أمضنى وأرهقنى.

– حمداً لله، لقد انتهت الأيام الصعبة.

قبلتها قبلة سريعة على جبينها، وخرجت عائداً إلى الفرقة.

كان مسرح »الكولوسيوم« الذى استأجرته الفرقة لتقديم العرض لليلة واحدة، مسرحاً كبيراً ينتمى إلى الطراز الكلاسيكى بسقوفه العالية ذات النقوش والنمنمات. جاءت ليلة العرض وامتلأت طوابقه الكثيرة ومقصوراته التى تمتد على الجانبين، بالمشاهدين الذين ارتدوا ملابس السهرة، وجلسوا

يتابعون هذه الجولة عبر عوالم شكسبير. حان موعد المشهد الذى أقوم بتقديمه، فوقفت وراء الكواليس أستمع إلى دقـــات قلبى التى اختلطت بالأنين الفاجع لموسيقى العرض. انفرجت الستارة عن غرفة نوم تسبح فى نور هادئ، وديدمونة هاجعة إلى مخدعها، الذى أضفى عليه الإخراج فخامة تليق بمشـــهد الموت المأسوى الذى سيكون ميداناً له. وضعت طلاء أضفى سمرة داكنة على الوجه والذراعين والساقين والنصف الأعلى من جسمى الذ"ى بقى عارياً إلا من قطعة قمـــاش كـــالحرام. وتمنطقت بحزام جلدى عريض ترصعه أزراز بلون الذهب، وتنورة بيضاء تصل إلى الركبتين. شعرى الذى أبقيته طويلاً صار الآن مبعثراً كثير التجعدات بفضل المكياج. فى حزامى خنجر له مقبض من فضة، وسيف له غمد كثير النقوش، وفى قدمى صندل له خيوط جلدية تلتف علـــى الســـاقين. جعلتـــه مرتفعاً لكى أبدوا أكثر طولاً من طولى الحقيقى. حان موعد دخولى، فوقفت لاهث الأنفاس، متهيباً من الـــدخول. رأيـــت زميلاً يتولى إدارة المسرح، يضع فى يدى شمعدان ويدفع بى إلى الدائرة التى تستقطب عيون كل هؤلاء المشاهدين. لم أكن أريد أن أنظر إليهم أو أشعر بوجودهم، ولكن عطـــور كـــل

النساء اللاتى يشاهدن العرض، تتجمع الآن لتصنع غمامة كثيفة من عطر هجين يغمر المسرح ويغمرنى. أحاول أن أنسى العطر والنساء، فلا أذكر سوى النجوم والقناديل وديدمونة، التى يخاطبها عطيل فى مناجاته:

- »إنه السبب. إنه السبب أيتها النفس.

لا تجعلينى أسميه لك أيتها النجوم الطاهرة.

إنه السبب. ولكننى لن أسفك دمها، ولن أخدش ذلك الاهاب الأبيض كالثلج. الأملس كرخام التماثيل. ولكن يجب أن تموت، وإلا فأنها ستخون المزيد من الرجال.

اطفئ النور، ثم اطفئ النور.

إذا أطفأتك أيتها الخادمة اللاهبة، فإن بوسعى إذا ما ندمت أن أستعيد نورك من جديد.

ولكن إذا أطفأت نورك أنت، يا أبرع نسق صنعته الطبيعة بروعتها، فأننى لا أعرف أين تلك النار البروميثية التى بوسعها إشعال نورك من جديد.

إن أنا قطفت الوردة، لا أستطيع أن أهبها نمو الحياة ثانية، ولا بد لها من ذبول. ..

سأشمها فوق الشجرة.

يا نفساً عاطراً، تكاد تغرى العدالة بأن تكسر سيفها

قبلة أخرى، وأخري

هكذا، كونى حية تموتين، فأقتلك وأحبك بعدها.

قبلة أخرى، وهى الأخيرة. ما كانت حلاوة قط فاتكة كهذه. يغلبنى البكاء، ولكنها دموع قاسية. هذا الحزن علوى. يضرب من يحب، ها هى تستيقظ«.

تستيقظ ديدمونة لتؤدى معى دورها. ينتهى الحوار ويحين موعد قتلها. امسك بالوسادة وأضعها فوق وجهها، خائفاً، ما تزال تراودنى فكرة أن أترك المسرح وأخرج هارباً. فأقهر الخوف بالمبالغة فى الانفعال. أخذت أضغط بالوسادة محاولاً أن أنسى نفسى وأنسى خوفى وأنسى الجمهور الذى صار وحشاً له آلاف العيون تراقبنى. ولم أنتبه إلا بعد لحظات إلى أننى فعلاً أخنقها، وأننى أضع كل قوتى فى هذين الذراعين المتشنجين وهما يدفعان بالوسادة لكتم أنفاسها. وإن ساندرا وهى تقاوم وتتألم وتتلوى فوق السرير وترفع يدين تشجنت اصابعهما تحاول أن تدفعنى عنها، لا تفعل ذلك تمثيلاً، وإنما تفعله رعباً، وخوفاً من أن أقتلها. أدركت فظاعة ما أفعل، فتركتها وانهرت فوق

سريرها أبكى بكاء أكثر حرقة وصدقاً من بكـــاء التمثيـــل. تابعت أداء المشهد مع ممثلى الأدوار الثانوية، وقلت كلماتى الأخيرة ثم غرست السكين فى صــــدرى، وارتميـــت فـــوق صدرها ميتاً. بدأت الستارة تطبق ببطء على مقدمة المسرح، ودوت القاعة بالتصفيق الذى استمر طويلاً. كنت متلهفاً لأن أرى التصفيق ينتهى ويتم إقفال الستارة، لكى أتأكد مـــن أن ساندرا لم تصب بأذى. تنفست بارتياح عندما رأيتهـــا ترفـــع رأسها، تتحسس عنقها، وتفرغ سعالاً حبسته فـــى صــــدرها. وضعت يدى فى يديها أساعدها على النهوض، وسحبتها إلى زاوية وراء الكواليس وبعيداً عن أعضاء الفرقة الذين جاءوا يهنئون بما أصبناه من نجاح، أعتذر لهـــا عـــن غشـــامتى، وأسألها أن تحتفظ بما حدث ســـراً بيننـــا، لكـــى لا يتحـــول الاعجاب الى سخرية من سذاجة انفعالى. فقد بدا واضحاً أن تلك السذاجة المهلكة هـــى التـــى أعطـــت المشـــهد صـــدقه وحرارته، والهبت أكف المشاهدين بالتصـــفيق، وأبلغتهـــا أن الاعتذار الحقيقى، سيكون زجاجة شامبانيا أقدمها لهـــا بعـــد انتهاء الحفل. ذهبت أنزع المكياج وأرتدى ملابسى، ومـــا أن أكتمل تقديم العرض، وخرجنا جميعاً لتحية الجمهور، حتـــى

أخذت ساندرا، وذهبنا بصحبة امرأتين ورجلين ممن شاركوا فى أداء وإعداد المشهد، إلـــى مطعـــم ومـــرقص بمحـــاذاة المسرح.

أمرت بإحضار الزجاجة الموعودة، فجاءت تضفى جواً احتفالياً على جلستنا، بسبب ما يقام لها من طقوس. أحضرها رئيس الخدم ملفوفة فى دثار من قماش أبيض، وجاء بكؤوس صغيرة من الكريستال لا تستعمل إلا لشربها، كما جاء بسطل الثلج المفضض والمخصص لحفظها. ثم مضى ينزع الورق المذهب الذى يغطى عنقها، ويفتحها فتحدث تلك الفرقعة التى قابلناها بالتصفيق وصيحات الابتهاج. تناثر الزبد مـــن فـــم الزجاجة، وفاضت رغوتها فى الكـــؤوس، فـــدفعنا بالكـــأس الأولى إلى ساندرا ورفعنا كؤوسنا تحية لها. انتهت الشمبانيا فتحولنا إلى النبيذ، وجاءت أطباق المأكولات الخفيفة ترافـــق الشراب، فقضينا وقتاً فى الأكل والشراب والرقص. حانـــت الساعة التى يقفل فيها المحل أبوابه قبل أن تنتهى رغبتنا فى السهر. فاشترينا شراباً، ذهبنا به إلى غرفتى، نواصل إحيـــاء هذه الليلة التى كنا نحن نجومها. سعداء بأنفسنا، مغمـــورين بتلك اللحظة السحرية التى يصنعها التواصل مـــع جمهـــور

يتحمس إعجاباً وتصفيقاً لنا. انتهت سهرتنا وكنت ثمــلاً، لا أحفل بمن ذهب أو بقى. نمت حتى منتصف النهار، وعنــدما أفقت وجدت يداً يخضب أظافرها الطلاء الأحمــر، ترتمــى فوق صدرى. تتبعت الذراع فوجدته ينتمى إلى جسد امــرأة تلتحف بشراشف غطت جسمها ووجهها. رفعــت الغطــاء، فاكتشفت أنها ساندرا، تتمدد عارية فى سريرى، فتشت فــى ذاكرتى لأتبين ما حدث بينى وبينها فى هذا الفــراش، فلــم أستطع أن أذكر شيئاً. تركتها نائمة، وذهبت أضــع جســمى تحت الماء. عندما رجعت كانت هى قد استيقظت، وأخــذت منشفة أحاطت بها جسمها، وخرجت إلى الحمام. فــى حــين انصرفت أنا لإعداد الشاى. كنت مازلت لم أتحرر بعد مــن تأثير ما شربته من خمور كثيرة، لكــى أســتطيع أن أعــى وأتدبر معنى أن تنام ساندرا فى فراشى. لم أنتبه إلى دلالة ما حدث، إلا عندما سمعت ساندرا تتبــادل التحيــة مــع لينــدا وتسألها أن تعيرها شيئاً لم أتبين ما هو، ثم تهبط إلى الــدور الأرضى، لا ترتدى سوى تلك المنشفة، لتأخذه منها. خرجت من المطبخ لأراها تصعد الدرج حاملة آلة تجفيــف الشــعر، تدندن لحناً راقصاً، وتحــاول أن تضــبط إيقــاع خطواتهــا

واهتزازات جسمها مع إيقاع اللحن. أردت أن أصـرخ فـي وجهها مستنكراً ما فعلته. ولكننى تمالكت نفسى. من أين لها أن تعرف طبيعة ما يربطنى بليندا، سوى أنها زوجة صاحب البيت الذى أسكنه. رجعت إلى المطبخ لأجد سـخان الشـاى يغلى فوق الموقد، احترقت أصابعى وأنا أفرغ الشـاى فـي إبريق الخزف. اندلق الشاى وسقط الإبريـق مهشـماً فـوق الأرض. تركته مرمياً هناك وعدت إلى الغرفة. كان صوت آلة تجفيف الشعر، يتابعنى ويوخز رأسـى كـالابر. كيـف سأفسر لليندا الالتباس الذى وقع. لن تصدق أن مجىء هـذه المرأة الى غرفتى وقضاءها الليل معى، لم يكـن إلا حـدثاً عرضياً. بدا الأمر وكأننى أتعمد اهانتها. ولعلها تتساءل لماذا لم أفعل شيئاً كهذا بعيداً عنها ؟، ولماذا أصر على احضـار هذه العشيقة الجديدة، الصغيرة السن، الكثيرة الألـوان إلـى بيتها ؟. وربما تظن بأننى ما أرسلت إليها ساندرا وهى تغطى عرى جسمها بمنشفة الحمام إلا رغبة فى استفزازها. جاءت ساندرا لارتداء ملابسها. ارتميت فوق السرير، وتظـاهرت بأننى لا أزال متعباً أريد النوم. خرجـت وبقيـت بمفـردى أحاول أن أهتدى إلى طريقة أعالج بها الموقف قبل أن يتحول

إلى كارثة. يجب أن أذهب إليها الآن، وأشرح لها ما حدث بكل تفاصيله. إن علاقتنا تبدأ الآن مرحلة جديدة بعد أشهر من العناء والانتظار، فلا حاجة بنا إلى هموم نصنعها بأنفسنا لإيذاء أنفسنا. كان البيت صامتاً. وعندما هبطت أبحث عنها، كانت ليندا قد غادرت البيت. بقيت طوال اليوم ملازماً غرفتى. مستلقياً أغلب الوقت فوق السرير. أضع أمام وجهى كتاباً لأقرأه، فأجد أن بصرى ترك الكتاب ومضى يحدق فى السقف. انتظرت ليندا فلم تعد، إلى أن غلبنى النعاس وأفقت صباحاً على رنين جرس الباب. تواصل الرنين، دون أن يقوم أحد بفتح الباب. نهضت متثاقلاً لأفتحه، وقبل أن أصل إليه، رأيت ثلاثة رجال وامرأة يفتحونه ويدخلون. قدم لى أحد الرجال بطاقة الزيارة وهو يعتذر:

– أرجو المعذرة. ظننت أن لا أحد بالبيت فاستخدمت المفتاح.

قرأت البطاقة التى تحمل اسم وكالة »كالادونيا« لبيع وشراء العقارات.

– جئت أرافق هذه العائلة لمعاينة البيت. لا بد أنك السيد الذى يقيم بالطابق الأعلى. أخبرتنى عنك صاحبة

البيت. إنها سيدة محظوظة. ما أن وصلت إلى الوكالة حتى وجدت هؤلاء الناس الذين يبحثون عن بيت بهذه المنطقة. وفى الحقيقة فأن فئة الباحثين عن سكن لا تنتهى من الدنيا. أحزاب كبيرة تنتهى، وفئات اجتماعية تذوب وتنقرض، ولكن فئة الباحثين عن سكن باقية. يذهب أناس ويأتى آخرون. ولكن لا يهم. هناك دائماً وكالة »كالادونيا« التى لا تهدف إلا لخدمتهم. إنه بيت ممتاز. بيت حديث البناء جداً. ولكن هذا البهو الفسيح ينتمى إلى عصر أكثر فخامة، عندما كانت الأرض. ..

إننى لا أفهم ما يثرثر به هذا الرجل. هل قررت ليندا فجأة أن تعرض بيتها للبيع. لا بد أن الأمر كذلك. وهذه العائلة جاءت الآن تتفقد البضاعة. إنها عائلة تليق ببيت كهذا. رجلان وامرأة، كما كان الحال معنا. لم أستطع أن أحدد من منهما الزوج ومن منهما العشيق. لعل العشيق هو هذا الشاب الصغير الذى يلتصق القميص بصدره مليئاً بنجوم العلم الأمريكى وخطوطه. ولكن المرأة تتقدمه فى العمر حتى لتكون أمه. يبدو أن هذه هى التقليعة الآن. صغيرات يتعشقن كبار السن. وكبيرات يتعشقن الصغار. أعجبتنى الابتسامات

التى يعلقونها فوق وجوههم وكأنهم يشاهدون معرضاً للرسوم الساخرة. ها هى غرفة نوم ليندا مباحة أمامهم يطوفون بها، يقيسون طولها وعرضها، ويشاهدون السرير والوسائد، وأدوات زينة ليندا، والمرايا التى لم تعكس فيما مضى إلا صورتها وصورة زوجها. كم هى مهينة هذه الزيارات. تمنيت لو أننى أستطيع أن أمنعهم من معاينة غرفتى، فهى أيضاً ستكون مباحة أمامهم، يعاينونها ويضحكون من أثاثها وفوضاها. صعدت أرتدى ملابس الخروج وأترك لهم الغرفة مفتوحة دون أن أعتنى بتنظيمها. فوجئت وأنا أغادر البيت بأن مندوب الوكالة علق لوحة كبيرة أمام الباب تحمل عبارة »بيت للبيع«. لابد أ ن الشيطان نفسه هو الذى استخدم حافره فى كتابة هذه الأحرف البشعة. بيت للبيع. ذكريات للبيع. حب للبيع. حجار ة للبيع. علاقات قديمة للبيع. كل شىء خاضع للعرض والطلب. والدنيا كرة تدور، فلا ثبات لشىء. دورة تنتهى وتعقبها دورة أخرى. زيارة قصيرة إلى وكالة كالادونيا وتنتهى فصول القصة. تأتى اليافطة ويأتى الباحثون عن بيت للشراء، وتبدأ قصة أخرى. لقوة السوق منطقها الذى لا يعبأ كثيراً بأوهام البشر وعواطفهم. كالادونيا، كالادونيا.

لك التمجيد والسلام أيتها الحقيقة الوحيدة الثابتة فـــى ســـوق البيع والشراء.

ولكن لماذا؟ لماذا تفرط ليندا فى بيـــت لـــم تملكـــه إلا بالشقاء والاستدانة. ليتنى أعرف طريقاً إليها هذا الصباح لكى أمنعها من ارتكاب هذه الحماقة. طوفت عبر شوارع المدينة بلا هدف. كنت قلقاً. كارهاً نفسى. لا أعرف سبيلاً أســلكه. أذهب إلى المكتبة فلا أطيق البقاء. واذهب إلى قسم الدراسات الشرقية وأسمع ثناء على الحفل الذى قدمناه فلا يزيل الثنـــاء شيئاً من تعاستى. يحين موعد الغداء، فأشترى بحكم الروتين طعاماً، تعافه نفسى لأن عاملة المطعم كانت تسعل وتمخــط. وجدت عندما عدت مساءً إلـــى البيـــت، لينـــدا وبصـــحبتها الممرضة، كانت الممرضة تقيس لها الضغط، وتواصل معها حديثاً بدأ قبل وصولى، عن ضرورة أن تتجنب المواقف التى تجلب لها الكدر والانفعال الشديد. بقيت واقفاً، ودون أن أنظر إليها مباشرة، كنت أستطيع أن أرى وأعرف إلـــى أى مـــدى هى مريضة. لم يكن ما بدا على وجهها إجهاداً أو تعباً هـــذه المرة. كانت ليندا مريضة كأقسى ما يكون المرض. عندما لا يسرق لون بشرتنا أو يسرق الوميض من أعيننا، وإنما يسرق

ملامحنا ويحيلها إلى ملامح أخرى. لم أكن غافلاً عما ارتكبته فى حقها. ولكننى الآن أرى بشكل أكثر وضوحاً وقسوة، بشاعة ما حدث. حتى لو كان ما تعانيه، مرضاً جاء نتيجة أسباب أخرى. فإننى لا أستطيع إلا أن أفكر فى نفسى كمسؤول عن هذا الأذى الذى لحق بها. لا أدرى ماذا يكون شعور ذلك الأسير الذى يلقونه فى حفرة ثم يطلقون عليه أسداً جائعاً. ولكننى لا أعتقد أنه كان أكثر تعاسة منى وأنا أواجه هذه المشاعر السوداء التى تهاجمنى وتنهش جوفى. خرجت الممرضة وتركتنى وحيداً معها. فكرت فيما يجب أن أقوله تبريراً لموقفى. ولكن الكلمات ما أن تصل إلى فمى حتى تبدو باهتة لا معنى لها. لا تبرئنى وإنما تؤكد إدانتى فأتوقف عن قولها. اخترت لجلوسى كرسياً يحاذيها، فذلك أقل قسوة من أن أواجهها، ولكننى لم أستطع أن أتفادى رؤية الأسى الذى يغطى وجهها والذى كان يربكنى فلا أعرف كيف أفتح الموضوع. تناهى لى صوتها واهناً ضعيفاً وهى تقول:

– كان لابد أن أعرض البيت للبيع. ولكن من حقك أن تبقى مقيماً به.

صرخت محتجاً ومستنكراً. كان صراخاً صامتاً يمزق صدرى دون أن تقوى حنجرتى على نقله. سمعتها تقول:

- سأقيم ببيت أهلى. فلا شك أن دونالد بحاجة إلى أن يستعيد ما دفعه فى هذا البيت. طالما أنه لم يعد يريده.

كان البيت قد بدأ ينهار. فلا أرى إلا ركاماً، وأتربة، وغباراً يتساقط فى صمت وحزن. حاولت أن أرفع رأسى من دوامة الغبار وأقول شيئاً أفسر به ما حدث نهار الأمس، بدلاً من هذا الصمت. وقبل "أن أتمكن من الكلام وقفت ليندا واتجهت صوب غرفتها. قالت قبل أن تختفى خلف الباب:

- يمكنك أن تفتح التلفاز إذا أردت. أما أنا فيجب أن أنام الآن. لا تنس أن تطفئ الأضواء فيما بعد.

فى اليوم التالى سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتى. تفاءلت خيراً عندما وجدت أنها ليندا جاءت توقظنى من نومى. أفسحت لها الطريق ودعوتها للدخول. قالت وهى ماتزال واقفة أمام الباب:

- لم أشأ أن أسافر دون أن أقول وداعاً.

- ليندا.

- وأتمنى لك التوفيق فى دراستك.

- ليندا أرجوك. لا تقولى هذا الكلام وكأننا لن نلتقى بعد اليوم.

- ربما نلتقى، من يدرى.

- دعينى أخبرك بشىء واحد وهو أننى لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنك، وسأذهب معك إلى أى مكان تشائين. امنحينى فرصة لأشرح لك.

- نسيت أن أهنئك على نجاحك فى دور عطيل. ما أشد براعتك فى التمثيل.

- لحظة واحدة أرجوك.

- يجب أن أمضى. يمكنك الاحتفاظ بآلة تجفيف الشعر التى استعارتها صديقتك فلا بد أنها ستحتاج إليها فى المرات القادمة.

كانت تهبط الدرج وأنا أهبط وراءها.

- يجب أن تعرفى أننى لن ألتقى بها بعد الآن. انتهت علاقة العمل التى جمعت بيننا. لم يكن وجودها هنا إلا استمراراً لسهرة أقمناها احتفالاً بالعرض المسرحى وامتدت حتى غلبنى النعاس. صدقينى بأننى فوجئت بوجودها فى اليوم التالى كما فوجئت أنت.

- ولماذا أفاجأ. إنها حياتك و"أنت حر بها.

أمسكت بذراعها عند عتبة الباب أمنعها من الخروج. إنها ترفض أن تنصت لى وكأنه لا يعنيها أن تعرف صدق ما أقول. اتخذت قراراً بأن تطردنى من حياتها، وسوف أقاوم هذه القرار الظالم.

- يجب أن أذهب.

- لن أدعك تذهبين.

- أترك ذراعى أرجوك.

قوة تتلبسنى وتدفعنى لأن أرتكب أية حماقة فى حقها الآن. أن أقذف بها فوق الأرض وأدوس بأقدامى كل جزء من جسمها حتى لا تقوى على الوقوف أو الكلام أو الذهاب إلى أى مكان آخر فى الدنيا. أن أطوق عنقها بأصابعى وأخنقها، حتى تسقط كما سقطت ديدمونة جثة بلا حراك. أقتلها وأحبها بعد ذلك. كنت أرتعش كأننى مريض بالحمى. وكنت أقبض بقوة على زندها وهى تتألم وتسألنى أن أتركها تمضى. ولكن كيف أستطيع أن أتركها تمضى ؟. حاولت أن تنتزع ذراعها من قبضتى فأمسكت به مستخدماً اليد الأخرى، قابضاً عليه بتشنج وعصبية، لكى أمنعها من الخروج. كنت

أحس بوجهى ملتهباً كأن جمراً يتقد تحت جلدى، وأنا أطحن ضرساً بضرس، محاولاً أن أتمالك أعصـــابى وأستحضـــر أقصى ما أستطيع من عقل "أمنع به نفسى مـــن تلبيـــة هـــذه الأفكار المجنونة التى تريدنى أن أقتلها وأحرقها وأصنع مـــن رمادها قدحاً أملأه خمراً أعاقرها مدى الحياة. مرت لحظـــة بعمر الفاجعة، كلانا ينتفض ويرتعش، قبل أن أترك أصابعى المتشنجة حول ذراعها تتراخى وتفك قبضتها. ولا أدرى مـــا الذى رأته ليندا يرتسم من انفعالات على وجهى حتى صارت تبحلق فيه بعينين تمتلئان ذعراً. خرجت راكضة وهى تلتفت كأنها لا تصدق أنها نجت من هذا الشر الذى رأتنى أضـــمره لها. قفزت سيارتها فى الهواء. واندفعت بقوة تثير زوبعة من الغبار. أخرج العادم دخاناً كثيفاً غطى وجهى ومـــلأ حلقـــى بالمرارة والغثيان. راقبت سيارتها وهى تمـــرق، تمضـــى، يبتلعها الطريق، ولا تبقى وراءها سوى الدخان والغبار.

ولا أدرى كم مر من الوقت وأنا أقف مزروعاً أمـــام البيت، قبل أن تأتى سيارة شحن عملاقة، تقف فجأة أمـــامى، وتخرجنى من ذهولى. يقفز من صندوقها الرمـــادى عمـــال يرتدون عفريتات ذات ألوان قاتمة داكنـــة، يـــدخلون البيـــت

ويباشرون تقويض الأثاث. راقبتهم قليلاً وهم يتسلقون الأرفف والحيطان كالجراد، ثم تركت لهم المكان وخرجت. غمامة بلون الأسى الأسود، تحملنى فوق ظهرها، تلفنى بدخانها المازوتى، وتطوف بى طرقات المدينة. لا أكاد أصدق أن ليندا خرجت هذا الخروج العاصف من حياتى. وإن كل وشيجة كانت تربطنى بها تمزقت بهذه السرعة الفجائية. كأن خنجراً لا مرئياً انبثق من مكان ما فى الفضاء ومزقها. كيف يمكن لهذه العلاقة التى حسبتها محوراً لما مضى من حياتى، وما سوف يأتى، أن تلقى مصيراً فاجعاً يحيلها فى لحظة خاطفة إلى دخان وغبار. كان حدسى وفى أكثر اللحظات امتلاء بالبهجة والأمان، ينذرنى بأن هذا الفرح لن يدوم. ولكننى لم أكن أتخيل أن تأتى النهاية بهذا الشكل الموجع، المؤلم كالنزيف فى الرأس. وأن يكون أنا الذى يصنع هذه الكارثة بحماقته وجهله. أضرب فى الشوارع تائهاً، هارباً من إنسان لا أعرف كيف أهرب منه. لأنه يقيم فى دمى، ويحتل جانباً مظلماً من نفسى. هذا الكائن المجبول من طين السنين العجاف، ورماد أزمنة الجفاف والقحط، وبقايا الجحيم المتفجر فى حقول الألغام، وبكاء النساء

النائحات فى مأتم الموت الفجائى. هذا الذى يستيقظ بغتة وسط ادغال الروح، ويفتك بالإنسان الآخر المصنوع من كتب الأدب وأساطير الليل، وقصائد الشعراء، وأشجان المغنين، وطباشير المدارس، وتذاكر السفر إلى المدن البعيدة. والذى يبقى دائماً ضعيفاً، وهشاً، هشاشة المادة الورقية والجيرية التى صنع منها. لا يقوى على الوقوف مدافعاِ عن نفسه فى مواجهة الرجل البدائى الذى يطل برأسه ليدمر كل علاقة مبهجة يراها تنمو كشجرة ورد فى بيداء العمر. يتسلل ملتحفاِ بالظلام ليطعن بخناجره المصنوعة من الصوان، البشر الذين أحبهم، ويشعل الحرائق فى البيوت التى منحتنى الأمان. مخاتل، مخادع، يباغتنى دائماً دون إنذار، فلا أنتبه لأفعاله وتصرفاته، إلا عندما تداهمنى النتائج مثل حوادث السير القاتلة. وهذا بوق سيارة ينطلق خلفى لأننى أعبر الطريق شارد الذهن. استحضر صورة ليندا فأرى ملامحها المذعورة وهى تهرب منى، تندمج مع ملامح آن بولين وهم يضعون رأسها تحت المقصلة. تنبجس المشاهد فى رأسى كالنزيف، وأرى ليندا مرة أخرى فى صورة أوفيليا وهى تطفو فوق البحيرة، تغمر جسمها الأعشاب والزهور الميتة.

وأراها فى صورة ديدمونة، وهى ترتمى مخنوقة فوق سرير حبها. أذكرها فتأتى ساحبة معهـا صـورة دونالـد، متعبـاً ومريضاً. تمتزج صورته بصورة أجـاممنون وهـو يعـود منتصراً من حروبه فى بحر إيجا، يفتح ذراعيـه لاحتضـان زوجته، فيداهمه خنجر العشيق فى ظهره. وأرى أن الرجـل الآخر الذى يعيش بداخلى هو الذى دفع برأس آن بولين إلى المقصلة وهو الذى رمى بأوفيليا إلى بحيرة الأزهار الميتـة وهو الذى ساق ديدمونة إلى حتفها وهو الذى أغمد الخنجـر فى ظهر الزوج المخدوع. إنه يسير الآن فى الشوارع حراً، طليقاً، لا أحد يدرى بجرائمه، أو يصدر أمراً بالقبض عليه. إن علم الجينات ليس كله عبثاً. وقاطع الطريق الـذى هجـر الصحراء، جاء اليوم يحتمى بهذه المدينة التى لا تعرف شيئاً عن تاريخه الملوث بالدماء. لقد رأيته منذ لحظات يريـد أن يخنق ليندا. لم تكفه المهانة التى ألحقها بها قبل ذلك، فأراد أن يكمل المهمة بقتلها. رأيت والدى يقف غاضباً، ويعلق حـبلاً فى سقف الغرفة. ينصب مشنقة لى. لهذا الجد القاتـل الـذى يلبسنى. رأيته يضع وثاقاً فى يدى ويعقد الأنشـوطة حـول عنقى، ووالده الفقيه يقرأ التسابيح والأوراد ويصدر الفتـاوى

بأن ينال القاتل جزاءه العادل. أحسست بالاختناق. جلست منهاراً فوق مقعد صادفني في الطريق. أحاول أن أفك القيد عن يدي وأحرر عنقي من الحبل الذي يطوقه. وقفت حافلة أمام المقعد. لم يهبط أحد. فتح السائق باب الركوب. رأيته ينظر نحوي، ينتظرني، بقيت جالساً في مكاني لا أتحرك. أطلق السائق شتيمة لم أسمعها وأقفل الباب. لابد أنه لم ير هذه الأنشوطة التي تخنقني، وهذا القيد الذي في يدي. رأيت ليندا مقبلة نحوي. يداعب شعرها الأشقر نسيم الصباح. استغربت لوجودها في هذا المكان وهي التي ذهبت لبيت أسرتها. رأيتها تفتح ذراعيها لاحتضاني. لا شك أنها أدركت محنتي، وعرفت صدق عواطفي، فعادت مسرعة لانقاذي. مزقت الحبال التي تربطني، وانتشلت رأسي من مشنقة الاسلاف، وركضت نحوها أعانقها. أمرغ وجهي في جدائل شعرها، وأسكب مهجتي قبلاً تغطي وجهها، وأمسك بيديها المباركتين ألثمهما وألثم أطراف ثوبها، وأنا أشكرها على عودتها وأتوسل إليها أن تبقى معي ولا تتركني لأنني بدونها إنسان منذور للهلاك. فهي وحدها من يستطيع انقاذي من هؤلاء الاسلاف الذين يريدون قتلي. فتحت عيني فلم أجد

أحداً، سوى امرأة تعبر الطريق وتنظر باستغراب نحوى. كنت أعانق الهواء وأكلم نفسى. رحلت ليندا ولن تعود. خرجت من حياتى وتركتنى أواجه وحدى حكم الموت الذى أصدره ضدى أسلافى. كيف أستطيع أن أطرد ليندا من ذاكرتى. يجب أن أكرهها. أن أحقد عليها حقداً ينزع الضعف من قلبى. سأكرر أننى أكرهك يا ليندا. مائة مرة. ألف مرة. فلعل هذا القول يريحنى. ويحررنى من هيمنة ظلها. إننى فعلاً امقتها. وأردت صادقاً هذا الصباح أن أقتلها وأحرق عظامها حتى تصير رماداً. لماذا أبدو إذن ضعيفاً حين أذكرها. إننى أكرهك يا ليندا. بقيت أكرر هذه العبارة. أكررها أحياناً بصوت مرتفع، وأقولها بحدة وغضب. غير عابئ بمن يلتفت هازئاً ضاحكاً. أكرهك، أكرهك، أكرهك. كان تمريناً فاشلاً، فما أن رأيت وجهى مهشماً وممسوخاً فى زجاج نوافذ الدكاكين، حتى اكتشفت أننى أكره نفسى، وأوجه القول إلى صورتى المعكوسة فى المرايا. وصلت إلى الطرف الغربى. منطقة الحانات والمراقص. انتصف النهار وبدأ الناس يغادرون مكاتبهم ويزحمون الحانات لقضاء استراحة الغداء. دسست رأسى وسط زحام إحدى الحانات،

وكأننى أحتمى بالزحام من إنسان يطاردنى. انقضت ساعة الغداء سريعاً، وأمست الحانة خاوية. ذهبت إلى صندوق الاسطوانات لأضع صخباً يبدد هذا الصمت. لمحت وأنا أقرأ عناوين الأغانى أغنية »تلك الأيام«.

فى سالف الأيام

كانت هناك حانة

وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو أثنين

كانت تلك هى الأيام يا صديقى. تلك كانت الأيام.

أدرت الأغنية مرة ثانية لكى أقنع نفسى بأن ما حدث لى يحدث مثله لأعداد لا تحصى من البشر كل يوم، دون أن يتقوض العالم أو ينهار سقف الكون.

عندما عدت ليلاً إلى البيت وأشعلت الضوء، أدهشنى أن أرى البيت وقد عاد إلى عناصره الأولى من أسمنت وحجارة وطلاء. عارياً من ذلك الكساء الذى يمنحه طابعاً إنسانياً. اختفى الأثاث كله، ولم تبق سوى الجدران البيضاء، مليئة بالثقوب السوداء التى تركتها المسامير المخلوعة. تلاشى فى يوم واحد كل أثر للبشر الذين أقاموا وأحبوا وتخاصموا وفرحوا وغضبوا فى هذا المكان. لا شىء سوى

الأتربة، وقشور الطلاء فوق الأرض، وعنكبوت كبير يزحف ببطء فوق السقف، وقطرات ماء ترشح من إحدى الحنفيات، تخترق الصمت، وتصنع فى أذنى دوياً يشبه طلقات الرصاص. صعدت هارباً إلى غرفتى. تمنيت لو استطعت البكاء متمثلاً قصائد الشعراء الجاهليين عند وقوفهم على الأطلال، لكى أخفف من غلواء هذا الحزن. ولكن الدموع لا تواتينى. سأخرج إلى الشارع وأبحث عن ملهى ليلى أحتمى به من مشاعرى، وأجد بين مضيفاته من تعيننى على عبور ما تبقى من هذا الليل. أحسست بجسمى منهكاً، فتركت فكرة الخروج وأسلمت نفسى لنوم ملىء بالكوابيس. جثث تطفو فوق الماء، وأعناق تتدلى من المشانق، وقاطع طريق يطعن شيخاً ذاهباً لصلاة الفجر. عندما استيقظت كان مندوب الوكالة يواصل ثرثراته مع أناس جدد جاء بهم يعاينون البيت. اعترض طريقى وأنا أهم بالخروج. سمعته ينطق اسمى محرفاً ويسمينى السيد »الآلام« بدل »الإمام« فرأيت أنه تحريف يليق بى.

– يهمنى أن أعرف الآن، إن كنت سترحل أم ستبقى.

أردت أن أشاكسه قليلاً، فقلت له بأننى لم أتخذ قـراراً بعد.

– لابد أنك تعرف بأن رحيلك عن البيت يجعل بيعـه أكثر يسراً، وثمنه أكثر ارتفاعاً.

– ولكن القانون يحمى حقى فى البقاء.

– إنه يضمن لك أن تبقى مقيماً فى هذا البيت إلـى أن تموت. أريد فقط أن أعرف ما أقوله لهؤلاء الزبائن.

أعجبتنى اللهجة الحانقة التى تكلم بها، ضاغطاً علـى عبارة »إلى أن تموت« وكأن ذلك سيحدث غداً. وجدت فيما قاله استفزازاً يتفق مع ما أبديته من عناد، فقررت أن أهادنه.

– إذن يمكنك أن تخبر زبائنك بأننى سأترك البيت قبل نهاية الأسبوع.

لم يستطع أن يخفى دهشته برغم أن مهنته لا تسـمح عادة بإبداء الدهشة فى مثل هذه المواقف. فقد تضيع الصفقة أو يهرب الزبون الغشيم الذى لا يعرف من مضاربات السوق شيئاً إذا ما صار يستغرب لكل ضعف أو عبط. عاد بسرعة لاخفاء دهشته تحت غطاء ابتسامة عريضة باردة، كأن هـذا ما يجب أن يفعله كل مؤجر عاقل. كنـت أعلـم أن العـام

الدراسى الذى أذن بالانتهاء، سوف يتيح لى سكناً ببيوت الطلبة. ومن بين المساكن المعروضة للكراء، اخترت مكاناً يحاذى المكتبة. غرفة كبيرة بالطابق الأرضى، خالية من الأثاث، تؤجر عادة للمتزوجين لأنها تحتوى على منافع خاصة بها. أدهشنى أنهم وافقوا بسرعة على تأجيرها دون اعتبار لحالتى الاجتماعية. كانت غرفة مستطيلة، لها نافذة تطل على زقاق معتم، إلا أنها أكثر اتساعاً من غرفتى الأولى، برغم أن المطبخ صار الآن جزءاً منها. وفى يوم واحد نقلت إليها كتبى وأمتعتى. واشتريت طاولة لاستعمالها مكتباً ومائدة للطعام. كنت سعيداً باختصار هذه المسافة التى تفصل بين البيت والمكتبة، والتى كانت تأكل وقتاً ثميناً صرت الآن بحاجة إليه أكثر من أى زمن مضى. سأكرس كل ما أستطيع من جهد لانجاز رسالتى. مستفيداً من عطلة الصيف التى تتيح للأستاذ وقتاً أكثر لمتابعتى. سأنسى الإجازة وسأستخدم شهرزاد لمحاربة الفراغ الذى تركته لى ليندا. سأقضى يومى كله بصحبتها، أراقبها وهى تواجه ملكاً مجنوناً يريد قتلها كل ليلة. لن أمنحها وقتى بدافع الدراسة وحدها، أو بدافع البحث عن تعويض للعلاقات الفاشلة، وإنما

أيضاً بدافع أن أتعلم منها شيئاً عن كيفية ترويض القتلة. فأنا أواجه مع الشخص الآخر، الراقد أبداً فى أحراش الروح همّاً يماثل همّها. سأعرف منها كيف استطاعت بقوة الخيال والحكايات التى تتحدث عن العشق والجن والسحرة والعنف والجنس وعجائب الدنيا، أن تنقذ عنقها وتضمن النجاة لبنات جنسها اللاتى يهددهن الفناء، وتعيد قاتلاً يزهو بسفك دماء الصبايا، بشراً مرة أخرى. ما أريده الآن هو عزلة أنجز بها عملى. حتى لو كان الهدف ورقة أضمن بها رزقى. فإن هذه الورقة تحتاج إلى وقت وجهد. أدهشنى ما استطعت تحقيقه خلال أسبوع واحد من تفرغى للدراسة. كنت خلاله أقضى نهارى كله بالمكتبة، وأبحث عندما تحين الساعة التاسعة، وينتهى وقت المكتبة، عن ساعة للترويح، فأجدها تحولت، وبرغم مساءات الصيف المبهجة، إلى ساعة كدر وضيق. فقد أفرغت العطلة الدراسية، مدينة أدنبره من كل الأصدقاء، بما فيهم عدنان الذى سافر دون أن يخبرنى. لم أعد ألتقى بأحد فى حانة العناقيد التى أطفأت موقدها واستبدلت زبائنها بسواح يأتى بهم الصيف. تهاجمنى فى لحظات الوحدة، ذكرياتى مع ليندا. تأتى مغلفة بسحابة عطر شرقى، فأتمنى لو أقدر على

الذهاب إليها فى مخبئها الريفى. قررت ذات صباح أن أذهب إليها. كان يوم أحد، وكنت أعانى إحساساً ثقـيلاً بـالفراغ. وقفت فى المحطة أنتظر الحافلة التى تأخر وصولها. اسـتنفد الانتظار قدرتى على المغامرة، فصرت أراجع هذا القـرار. إنها بالتأكيد لن ترتمى فى أحضانى، بل لعلها تقفـل البـاب دونى. فكرت فى إنسان ما أعرفه، أستطيع أن أذهب إليـه، وأجد فى صحبته عوناً على مقاومة هذا السأم غير ليندا، فلم أهتد إلى أحد. وفجأة خطر على ذهنى دونالد. ها هو إنسـان أعرفه وأعرف أن لا مكان آخر لديه يسافر إليه. مـاذا لـو ذهبت للسؤال عنه فى الفنادق المحاذية للميناء. لـم أنـاقش الفكرة أو أبحث عن تبرير لهذه الزيارة. لـم أتسـاءل عمـا سيكون شعوره وهو يلتقى برجل تطفل علـى حياتـه حتـى أفسدها. سرت باتجاه الميناء، يدفعنى الفضول لأن أعرف ما حدث لهذا الإنسان الذى تشابهت الآن حظوظه وحظـوظى، بعد أن صرت مثله مطروداً من تلك البساتين المعلقـة فـى سماء الوهم والسراب. لم أجد عناء فى العثور على فندقه بين الفنادق القليلة التى هناك. كان قد خرج إلى حانة قريبة دلنى العامل على مكانها. لم أجده بين الزبـائن الـذين خرجـوا

بشرابهم وكراسيهم إلى الرصيف. ولم يكن موجوداً داخل الحانة. أخذت قدحاً من البيرة ووقفت أسند ذراعى على البار أنتظر أن يأتى. كنت أحس بالحرج لوجودى بهندام أكثر ترتيباً وأناقة من هندام هؤلاء البحارة وصيادى السمك. لم أنتبه إلى الرجل ذى اللحية الحمراء الذى يجمع الكؤوس الفارغة ويذهب بها إلى حوض خلف البار، إلا عندما وصل قريباً منى. رآنى أتفرس فى وجهه، فترك جمع الكؤوس. ووضع يده فوق كتفى.

– إنه أنت أيها البدوى.

– مرحباً دونالد. كدت لا أعرفك وأنت تختفى خلف هذه اللحية الحمراء.

– أنت أيضاً تغيرت. تعالى نجلس خارج الحانة لأعرف ما هو هذا الشىء الذى تغير فيك.

سحبنا مقعدين، وجلسنا فى مواجهة الشمس. برغم رثاثة هندامه، فقد بدا وجهه من خلف اللحية متورداً يوحى بالصحة والعافية النفسية.

– وأخيراً ذهبت إلى دكان الحلاق. إذن فأنت تهتم بنفسك هذه الأيام. لم تقل لى. ما الذى جاء بك إلى هنا؟

- جئت للسؤال عنك.

- كما ترى. تحررت من كـل القيـود. لا بيـت ولا زوجة ولا وظيفة. وتحررت من الانفعالات الكبيـرة التـي تجلب أمراض الروح والبـدن. لا عشـق ولا كراهيـة ولا خصومات. أعيش صحبة هؤلاء البحارة الذين لـم تفسـدهم الكتب، وأخرج معهم أحياناً إلى البحر، وأجد نفسي قريباً من نفسي مرة أخرى.

- لعلك تعلم أن ليندا عادت لتعيش مع أهلها بعـد أن عرضت البيت للبيع.

- جاءت إلى هنا تبلغني بذلك وتقول إن مبلغاً كبيـراً سوف يبقى بعد سداد القرض. سألتها أن تحتفظ بـه فأنـا لا أحتاج إلى مال كثير. لقد أعفاني صاحب هذه الحانة من دفع ثمن الشراب مقابل أن أقوم بجمع وتنظيف الأكواب الفارغة.

لم أكن أتوقع أن يستقبلني بكل هذا الود. بدا واضحاً أن »البوذية« قد حققت كامل انتصارها في هذا الرجل، بعـد أن تحرر من ارتباطاته الوظيفيـة والعائليـة. أردت أن أكـون مجاملاً فقلت:

- حان الوقت فيما أظن لأن تستأنف حياتك مع ليندا. إنها لا تزال تحبك. وما كانت علاقتى بها إلا حدثاً طارئاً كما قلت أنت ذات مرة. وقد جئت اليوم لكى أعتذر وأطلب الصفح.

- لم تكن تلك الحياة تناسبنى. الزوج ورجل البيت والوظيفة وربطة العنق وساعات الدوام ومتابعة المسلسل اليومى عن »شارع التتويج«. كل تلك الأشياء كانت غريبة عنى. لم أكن أحتاج إلا إلى دفعة صغيرة لكى أعود إلى طبيعتى. لست نادماً على شىء. هذا ما كنت سأفعله. طال الوقت أم قصر. جئت أنت أو لم تأت. فلا حاجة بك للاعتذار.

- أصبحت الآن والداً لطفل سيأتى بعد أيام. ومن حقه عليك أن تعيد التفكير.

- أنت تعلم بمثل ما أعلم أن هذا الطفل ليس طفلى. مضت سنة وبضعة أشهر قبل الحمل، لم أكن أعاشرها معاشرة الأزواج، لأننى ببساطة كنت عاجزاً عن فعل ذلك الشىء. كنت طبيعياً قبل الزواج. ولكن ما أن تحولت العلاقة إلى زواج وطقوس وواجبات، حتى أحسست بالضعف الذى

تحول فيما بعد إلى عجز كامل. ولهذا لم أعارض أن يكـون لليندا علاقة جانبية ترضيها وتتيح لها أن تبقى قريبـة منـي رغم العجز الذى أعانيه. كنت أحبها ولا أطيق فراقها. وجئت أنت لتقدم خدمة لى ولها. كان ترتيباً يناسب الجميع. ولكننى كنت أعرف أن هذا الضعف لم يأت إلا لأننى أمثل دوراً ليس دورى وأرتدى ثياباً ليست ثيابى. حاولت طـويلاً أن أرغـم نفسى على القبول بتلك الارتباطات البيتية والوظيفية التى لم أخلق لها، إلى أن جاءت الانهيارات العصبية تطالبنى بلغتها القوية أن أحرر روحى من تلك القيود. وما أن فعلت ذلـك، حتى تعافيت من مرضى واستعدت قدرتى علـى ممارسـة الجنس. ويمكنك أن تسأل عاملة البار. فهـى المـرأة التـى أصاحبها وأنام كل ليلة سبت معها.

بقدر ما أحسست بالارتياح لأننى تحررت من إثم هـذا الرجل الذى كنت أعتبر نفسى مسؤولاً عن تدمير حياته. بقدر ما أزعجنى أن هناك سراً من أسرار هذه اللعبة أخفياه عنى. لم يكن اللعب نظيفاً إذن. ولم تكن تلك العلاقة مبرأة من شبهة الاستغلال. هل تراها كانت طوال الوقت تستخدمنى كوسـيلة للاحتفاظ بزوجها العاجز؟ هل كنت فى حياتها مجرد برشامة

الدواء التى تنقذ بها حياة زوجية يبقى فيها دونالد الزوج، وأنا آلة الإخصاب والجنس؟ هل تراها أرادت طفلاً، فاستعملتنى مثل جواد الاستيلاد، حتى تحقق لها ما تريد؟ هل كان حبها كذباً توهمته حباً؟ لست واثقاً من شىء. فكل شىء يأخذ الآن طابعاً عبثياً. ومراجعة الأحداث على ضوء ما قاله دونالد لا يزيدها إلا تعقيداً. أردت بعد أن عدت إلى دارى، أن أصرف ذهنى عن التفكير فى ليندا ودونالد وعلاقات الحب والعبث والخديعة، وأعتبر أن كل مامضى صفحة طويت وانتهى زمانها، لأن هناك أعمالا أخرى أكثر إلحاحاً وأهمية تنتظرنى. لكننى لم أستطع، صرت أعرف الآن على وجه اليقين أن هذا الطفل الذى أنكرت ليندا نسبته لى، إنما هو طفلى. بذرة أنا صاحبها وزارعها. فكرت أن أذهب إليها مسلحاً بهذه المعارف الجديدة، وأسألها لماذا خدعتنى، وأخفت عنى حقيقة الدوافع وراء صعودها إلى غرفتى. تصورت حديثاً يدور بينى وبينها، تشرح فيه موقفها، فأجدها مبرأة من كل التهم. إنها لم تجزم بأبوتى للطفل لأنها لم تشأ أن تشركنى فى مسؤولية تعرف أننى لا أقدر، نتيجة اغترابى وإقامتى المؤقتة فى هذه البلاد، على حملها. أما عجز دونالد، فكيف

أطالبها أن تخبرنى به؟ إنها ليست شريرة إلى حد أن تــؤذى الرجل وتفضح سره. وهى لم تبادر بالإساءة إلــى علاقتنــا، وإنما أنا الذى فعلت ذلك. كانت صادقة فى حبها. لى. راغبة فى أن تستمر علاقتنا بعد أن تحررت من ارتباطها الزوجى. إلى أن رأتنى أختار عليها امرأة أخرى. فحملــت كرامتهــا الجريحة وخرجت من حياتى.

أدرك وأنا أتمدد فى ظلام الغرفة، ألتمس لها الأعــذار وألوم نفسى، أننى ما زلت ضعيفاً أمامها، لا أقوى على تبرئة نفسى مما ارتكبته فى حقها. إن ما تصورته من كلام علــى لسانها لا يقدم تفسيراً كاملاً لما حدث، ولكننى لا أجد مــيلاً لإدانتها. ربما لأننى لا أطيق أن أتصور بأن المرأة الوحيــدة التى أحبتنى، من بين كل من أحببت من نساء، هى أيضاً لــم تكن تحبنى حباً صافياً. وكأن بى شيئاً ناقصاً فــى تكــوينى يجعلنى إنساناً منذوراً لصحارى القلب والعاطفــة. أريــد أن أطرد صورتها من ذهنى، فلا أقدر. والسلام الذى كنت أنشده لأكتب بحثى، بددته هذه الزيارة التى لا معنى لها، إلى حــى البحارة. صممت على أن أتدبر تذكرة سفر وأنتزع لنفســى إجازة أقضيها بعيداً عن هذه المدينة. ولكن ساندرا اعترضت

طريقى. كانت تستعير كتاباً، عندما وصلت إلى بهو المكتبة. رأيتها ولم ترنى. وقفت دقيقة أفكر فيما إذا كنت حقاً أريد أن أجدد صلتى بها. إننى غالباً ما أجد نفسى مكتفياً بكتبى أثناء النهار ولا أحس بحاجة إلى مصاحبة أحد إلاعندما تأتى الساعة التاسعة وأخرج إلى الشارع باحثاً عن صاحب أبادله الحديث فلا أجده. ولكى أضمن لنفسى إنساناً أواعده ليلاً ذهبت إليها. ودون أن أبادرها بالكلام، تناولت الكتاب الذى وضعته أمامها وهى بانتظار الانتهاء من إجراءات الإعارة. كان الكتاب رواية جون فاولز »جامع الفراشات«. قلت لها وهى تنظر باندهاش إلى اليد التى امتدت تسحب الكتاب:

– ما الذى يعجبك فى قصة تتحدث عن رجل غريب الأطوار يختطف امرأة ويسجنها فى بيته؟

تفرستنى بنظرة استغراب قبل أن ترد ضاحكة :

– إذن فهو أنت. إنك لا تحتاج إلى قراءة هذه القصص. لأن هذا ما تفعلونه فى الشرق مع نسائكم كل يوم. ظننتك تقضى عطلة الصيف فى بلادك.

– وهل لا بد أن أتعذب هنا بشتائكم اللعين، ثم أذهب إلى بلادى لأتعذب بصيف "أكثر لعنة؟ أليس من حقى بعد هذا

الشتاء المرعب أن أحصل على صيف أقل رعباً؟ وأنت ما الذى أبقاك؟

- وماذا أفعل إذا كانت أدنبره هى مدينتى؟

- أعرف أنك تسكنين مثل الأغراب، بيوت الطلبة.

- لم أعد طفلة أحتاج إلى الرعاية العائلية.

قالت عندما انتقلنا إلى مقصف المكتبة:

- حاولت الاتصال بك ولكن هاتفك لا يجيب.

- سبق أن أخبرتك بطبيعتى البدوية التى ترفض الإقامة فى مكان واحد.

- وأين نصبت خيمتك هذه المرة؟

- أردت أن أكون قريباً من المكتبة فاخترت الإقامة ببيت الطلبة المحاذى لها.

- إننى أيضاً أسكن هناك.

- وكيف لم ألتق بك إلا الآن؟

- لأننى سافرت. وجدت كل الناس الذين أعرفهم يتركون المدينة فذهبت إلى أقرب وكالة سفر وحجزت مكاناً فى رحلة جماعية إلى جزيرة يونانية، حيث أحرقت كل مدخراتى ورجعت.

- إذن فأنت لا تمانعين إذا وجدت رجلاً شهماً يدعوك إلى كأس هذا المساء.

- شكراً للسماء، لأن عصر الفرسان لم ينته من الدنيا.

- وهل سألت عنى بدافع الشوق أم بدافع آخر؟

- بدافع الشوق لعطيل. لأننى فكرت أن نضيف مقاطع أخرى إلى ذلك المشهد ونشترك به فى مهرجان أدنبره الذى يقام نهاية الصيف.

- اشكرى الله الذى أنجاك من الموت خنقاً فى المرة الماضية، فلا حاجة بك للمجازفة مرة أخرى.

- لقد كان مشهداً ناجحاً.

- ليتنى أستطيع، ولكننى لا أملك وقتاً لذلك.

اتفقنا على لقاء فى المساء. انتظرتها فى غرفتى، وذهبنا معاً إلى حانة العناقيد. أبلغتنى أن هذه الغرفة كانت مسكناً لرجل عجوز من العاملين بحراسة المكتبة. فاجأه الأجل وهو يقيم بمفرده فلم ينتبه أحد إلى موته إلا بعد أربعة أيام، وأن رائحة الموت ظلت عالقة بها لأيام بعد ذلك. فكان كل من يستأجرها يهرب منها. حتى بعد أن زالت الرائحة

وجاء من يسكنها لم يمكث بها إلا مدة قصيرة وتخلى عنها لأنه كان يرى شبحاً يظهر أثناء الليل.

- هذا يشرح السهولة التى حصلت بها على هذه الغرفة. ورغم أننى لم أتشرف حتى الآن بمقابلة هذا الشبح، فإنه لا شك سيزورنى ابتداء من هذه الليلة. سامحك الله. أما كان لك أن تحتفظى بهذه المعلومات لكى أهنأ فى نومى؟

- ظننت أن رجلاً يقيم فى الخرافة مثلك، يحب هذه الأشياء.

- إننى لا أقيم فى الخرافة وإن كنت أحتفى بالخيال وأحب معاشرة أهله، فهم أكثر لطفاً من البشر الحقيقيين.

- أنت الذى أعطيتنى الانطباع بأن بيتك الحقيقى ينتمى إلى عوالم وعصور شهر زاد.

- الاحتفال بالخيال ليس انتماء لعصر آخر أو عالم آخر. إنه انتماء لعالمنا، وما الخيال إلا جزء من وجودنا. ولعله شاعركم وليم بليك، الذى يقول، إننا نجد فى الخيال حياة حقيقية، أكثر واقعية، مما يسميه الناس العالم الحقيقى. فما وجه الغرابة فى ذلك؟

– هناك دائماً الصورة التى نريد أن يعرفها الناس عنا، وهناك الأصل الذى نحتفظ به لأنفسنا. إنك تبالغ أحياناً فى وضع الطلاء على الصورة. هذا كل مأخذى عليك.

– ولماذا لا تقولين، إن هناك الصورة التى يحب الناس رؤيتنا بها. والحكم من خلالها علينا، كما تفعلين الآن. وهناك الأصل الذى يتوهون عنه. هناك الإنسان الذى رسموه لنا فى أذهانهم منذ أول انطباع، وهناك الإنسان الحقيقى الذى يرفضون التعرف عليه. إننى بمثل ما أريد أن أعرف ساندرا الحقيقية، فأنا أدعوك صادقاً إلى معرفتى معرفة حقيقية.

– إن كنت واثقاً من معرفتك بنفسك، فدعنى أصارحك بأننى لا أعرف ساندرا الحقيقية. وكثيراً ما أقوم بأفعال أفاجأ بها، وكأنها صادرة عن إنسان أجهل كل شىء عنه.

– ها أنت تعترفين بأن النفس البشرية أكثر تعقيداً من وضعها فى إطار كما نفعل باللوحات والصور الشمسية.

– اعتبرته فألا طيباً عندما رأيتك تختار مظهراً بسيطاً لغرفتك الجديدة.

- إنها غرفة عارية، لا تنتمى إلى شىء ولا توحى بأن هناك إنساناً يسكنها. لا شخصية لهـا ولا لـون ولا نكهـة. غرفة جديرة بأن تسكنها الأشباح.

- هل صدقت بأن هناك شبحاً فى الغرفة.

- ولماذا لا أصدق؟ إننى لا أنكر وجود الأشباح.

- أما أنا فأنكره، طالما أننى لم أرها.

- تعالى معى هذه الليلة إلى غرفتى وسـترينها بـإذن الله.

اقترحت عليها أن ننسى حديث الأشباح، وأن ننتقل إلى تناول العشاء بمطعم صغير افتتح حـديثاً لتقـديم الأطعمـة المصرية. مطعم نظيف ورخيص ويقـدم ألوانـه الشـعبية مصحوبة بأطباق من الدعابة المصرية. حذرتها بأنها سـتجد طعاماً يختلف كثيراً عن طعام الاسكتلنديين. وافقت بسـرعة على اقتراحى قائلة بأنها ترحب بـأى طعـام غيـر الخبـز والجبن، فهى منذ أن ذهبت فى هذه الرحلـة التـى انهكـت مواردها لم تأكل طعاماً ساخناً. وعندما قلت لها بأنها تستطيع أن تجد طعاماً ساخناً فى بيت أهلها، هزت كتفيها باسـتهتار قائلة بأنها قطعت علاقتها بهم منذ أكثر من عـامين. أرادوا

معاملتها مثل طفلة قاصرة، فسعت للحصـــول علـــى منحـــة دراسية وتركت لهم البيت. ولكن الطعام الفقير لم ينقص شيئاً من بهجة هذه الملامح وتورد هذه الوجه، الذى لم تزده شمس اليونان إلا توهجاً واشتعالاً. تكدس الشعر الأرجوانى حـــول الوجه والعنق، وتناثرت خصلاته بلا ترتيب، توحى بالفوضى الجميلة، والتمرد على القوالب الجاهزة لتســريحات الشـــعر. تمسك كأس النبيذ بالتماعاته الحمراء قريباً من فمها وتتحول إلى كائن صغير مصنوع من ألوان الشفق. فأشـــتهى، وقـــد غزت رأسى نشوة الشراب، ان تمتد صحبتنا هذا المساء حتى تنتهى إلى معانقة فوق سرير الليل والفرح. ولكن كيف أواجه هذه الحدود التى رسمتها منذ البداية لعلاقتنا، وهذه المســـاحة البيضاء، التى أصرت على أن تبقى بلا غرس ولا عمـــران، تفصل بيننا، إنها هى التى جاءت هذه المرة تبحـــث عنـــى. ولكن كشريك فى العمل وليس كصاحب يهمها حضـــوره أو غيابه. إننى لا أعرف شيئاً عن ارتباطاتها العاطفية أكثر مما عرفته فى الفرقة، عندما كانوا يتحدثون عن علاقة جمعتهـــا ذات مرة، برجل يكبرها كثيراً فى السن، ويعمل أستاذاً بقسم اللغة الفرنسية.

خرجنا من المطعم ليستقبلنا ليل المدينة بأنسامه الرطبة، عابقاً برائحة الأشجار، ومفعماً بصوت الموسيقى القادمة من سفح الهضبة، حيث تنصب شركات البيرة الألمانية سرادقات الدعاية لإنتاجها. قلت لها، ونحن نقف بجوار السلم الحجرى الذى يهبط الى الحديقة والسرادقات:

– أنت تتحملين وزر ما ينتابنى من فزع وأنا أعود إلى غرفتى، إننى أكره الأشباح، ولا أطيق أن أبقى معها وحيداً للحظة واحدة. ولا شك أن ضميرك لن يرضى بأن تتركينى أقضى الليل بمفردى فى الغرفة.

– ولماذا تذهب إلى غرفتك وقد جاء الصيف يمنحك فرصة أن تبقى طوال الليل فى هذه الحدائق ترقص وتشرب وتسمع الغناء.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما هبطنا الدرج ودخلنا أكبر هذه السرادقات. كان أعضاء الفرقة الموسيقية يرتدون لباس القبائل الجرمانية القديمة، يغنون ويعزفون ألحانهم الشعبية وقد انتظم الناس فى حلقات الرقص. شبكت ساندرا ذراعها فى ذراعى ودفعتنى للانضمام معها إلى إحدى الحلقات. انتظرت أن يتعب هؤلاء الناس ويتوقفون عن

الرقص، ولكن الحلقة تواصل طوافها حول نفسها، يخرج أناس ويدخل آخرون، وساندرا بجوارى، تضرب الهواء بساقها أعلى من كل السيقان، وترمى بشعرها فى نزق الى الوراء وإلى الأمام. تضحك، وتطلق الصيحات بأعلى مما يفعل الآخرون. انتزعتها انتزاعاً من بين الراقصين وسألتها أن نأخذ شراباً ونمضى. وبشهية واستعجال أكملت القدح. وسألتنى أن أعود معها إلى الرقص.

- هل سنبقى هنا إلى الصباح؟

- لا تكن كسولاً، فالليل ما زال فى أوله.

لم يكن الليل فى أوله. ورأسى لم يعد يطيق هذا الضجيج. قلت لها حانقاً:

- يمكنك البقاء، أما أنا فسأعود إلى البيت.

- إذن نلتقى غداً.

ببساطة قالت جملتها. تركتنى واقفاً، أنظر إليها ساهماً، وقدح البيرة فى يدى فارغ، وركضت تنضم إلى حلقة الرقص والصراخ. رجعت إلى غرفتى، وما أن فتحت الباب حتى رأيت شبح الرجل العجوز واقفاً وسط ظلام الغرفة ينتظرنى، وحوله هالة من الضوء مثل الهالة التى تحيط بالقديسين فى

التصاوير الدينية. وقفت أنظر إليه ذاهلاً، ثم أطلقــت عليــه السلام، عندما أدركت أنه لم يكن إلا ظلاً صنعه لى مصباح السقيفة. زايلتنى الرغبة فى النوم. كنت موعوداً هذه الليلــة بامرأة لذيذة تشبه تمثالاً من الحلوى. فكيف أباحت لى نفسى أن أتركها بصحبة القبائــل الجرمانيــة، وأرجــع وحيــداً، ومهزوماً، إلى غرفتى. أردت بغشامة أهــل الصــحراء، أن أحرجها، وأستفزها، عندما أصدرت قرارى بمغادرة المكان. لكى أراها تهرول خلفى، ناسياً أنها تربت على تقاليد أخرى، وتغذت بشمس وهواء يختلفان عن شمســى وهــوائى. مــا الضرر الذى كان سيلحقنى لو أننى تأخرت قليلاً للسهر معها، ثم عدت بها، لأستبدل بحضورها، حضور هذا الشبح الــذى أحس بأنفاسه تملأ فضاء الغرفة؟ حاولت وأنا أتمدد مؤرقاً أن أتبين عواطفى نحوها. هل ترانى أسعى إليها باعتبارها قوتــاً جنسياً أم أن عاطفة أرقى تشدنى إليها؟ كنت سعيداً وأنا أراها تنبثق فجأة أمامى وسط متاهة الصيف، ومناخ الغــبن الــذى أحاط بى، عقب زيارتى إلى دونالد. وسألتها دون حــرج أن تكون امرأتى هذه الليلة، فتركتنــى معلقــاً بــين الامتنــاع والاستجابة. فهل هى مجرد امرأة أخرى يمكــن أن تعيننــى

على مواجهة الأيام الفارغة؟ ولكننى أخدع نفسى عندما أتكلم عن عواطفى بلغة المترفين الذين تعودوا منذ بداية وعـيهم، الجلوس إلى موائد الحب يتخيرون ويتساءلون عما يعجبهم أو لا يعجبهم. كيف لا أسمى علاقة تربطنى بامرأة مثل ساندرا أو أية امرأة فى بهائها، حباً يستقطب كل المشاعر، وأنا الذى تعشقت فى صباى صـور نسـاء علـى أغلفـة المجـلات وعاشرتهن معاشرة النساء الحقيقيات. ليكن غيثاً ما جادت به السماء بعد ذلك، ولكنه لم يكن ليستطيع مهما هطل، أن يطفئ عطش البيداء التى أحملها معى. لأنه غيث يأتى بعد موعـده ويهطل فوق أرض قتل العطش أشـجارها حتـى صـارت أخشاباً، فما عاد بإمكانه أن يعيدها إلى الحياة. إننـى أحـب الواحدة منهن وكأننى أكرها، وأحقد عليها وأحملهـا وحـدها مسؤولية الأرض المحروقة فى صدرى، وما عانيتـه مـن إحساسات العار والخجل بعد كل عملية استمناء، أو مضاجعة وهمية لنساء فوق الورق. ولا بد أن مشاعر النقمـة علـى الزمن الهارب الذى سرق الأشـجار مـن أرضـى، وزرع إحساساً فاجعاً بالخديعة فى نفسى، هذه المشاعر التى تشـبه علقاً يأكل الروح، هى التى أفسدت علاقتى مع ليندا، وهـى

التى أرغمتنى هذه الليلة، على أن أرفض صحبة ساندرا، وأهرب عائداً إلى غرفة الأشباح.

أردت وأنا ألتقى بساندرا فيما بعد، أن أكون منتبهاً إلى هذا العلق الذى أنبته ميراث الحرمان. سأضع فوقه ماءً وملحاً، كما تقول الوصفات الشعبية، لكى يبقى نائماً فى مراقده فلا يتسلل لإفساد هذه العلاقة. لم أكرر عليها الدعوة لقضاء الليل فى غرفتى، ولم أشأ أن أفرض عليها شيئاً لا تريده. تركتها تشعر وكأننى أكثر الناس زهداً فى معاشرتها. أذهب للسهر معها أينما ذهبت، وأبقى معها حتى تأذن بالعودة، فأذهب إلى غرفتى وتذهب إلى غرفتها. ولم تشأ ساندرا أن تنتقل بهذه العلاقة إلى أكثر من زمالة مسائية، حتى ذهب فى ظنى، أن فى حياتها رجلاً غاب عنها خلال إجازة الصيف وأرادت أن تبقى مخلصة له. ثم عرفت فى بداية الأسبوع الثالث من خروجنا معاً، أنها التقت برجل لم تكن تعرفه من قبل، ونامت فى سريره حتى الصباح. كنت أجلس معها فى مقصف المكتبة عندما رأيت رجلاً له ملامح الصينيين يتقدم منها ويعتذر بلهجة هامسة عن شىء لم أتبين ما هو. سألته ساندرا بحزم أن ينسى الموضوع. ثم أدارت

وجهها عنه، وكأنها لا تعرفه. لم أسمع مما قاله الرجل سوى إشارة إلى ليلة البارحة. لم أكن قد التقيت بها عشية الأمس أو أعرف ما حدث لها. انتظرتها قليلاً فى حانة العناقيد حسب اتفاقنا، وعندما تأخرت فى المجيء، ذهبت. رأتنى صامتاً بعد أن قطع الرجل حديثنا، فبادرت إلى توضيح ما حدث، قائلة بأنها عندما جاءت إلى الحانة بعد انصرافى، التقت بهذا الفتى الصينى وتبادلت معه بعض الكلمات. انتهى وقت الحانة فذهبت معه إلى بيت يسكنه مع عدد من زملائه وقضت الليل بصحبته. وهو يعتذر الآن لأنه كان مضطراً لأن يغادر البيت وهى لا تزال نائمة. كانت تتحدث ببساطة وعفوية، وكأنها تروى حكاية امرأة أخرى تلتقط الرجال من الحانات. ولا أدرى إذا ما كنت خالياً حقاً من مشاعر الدهشة والغضب. أو أننى نجحت فى تمرين نفسى على كبت هذه المشاعر. فقد استمعت إليها ببرود وحياد، وواصلت حديثا بدأته قبل أن يقاطعنى الرجل، حول جزء من بحثى سأعرضه اليوم على الأستاذ. وكأنه لا يهمنى كثيراً أو قليلاً أن تنام مع عابر سبيل من بلاد الصين أو بلاد الصقالبة. لعلها طلبت منه نقوداً كما

تفعل بائعات الهوى، أو لعلها نامت مع كل رفاقه فى البيت.

عادت هى إلى الموضوع:

- إنه أول رجل صينى أعاشره فى حياتى.

- سوف تحتاجين إلى عمر إضافى، إذا أردت ممارسة الجنس مع كل الأجناس.

- لا تظن بى سوءاً. إنه حادث استثنائى. كانت مجرد لحظة رأيته فيها خجولاً مرتبكاً، يضع عينيه فـــى الكـــأس، فأحببت وجهه الملون بالخجل. أراد أن يودعنى وينصـــرف، فأخبرته أننى قادمة معه. إنك لا يمكن أن تتصـــور الدهشـــة التى غمرت وجهه.

- يبدو أن لبعض الأجناس حظاً معك أكثر من أجناس أخرى. فلماذا هذه التفرقة العنصرية؟

- أرأيت كيف تظلمنى. إننى أعاملك معاملة خاصـــة وليس بمثل ما عاملت رجلاً راقت لى غوايته فاتخذته رفيقـــاً لليلة واحدة ثم نسيته.

- عندما رأيت أنك زاهدة فى حبى، ظننـــت أن لـــك رجلاً تخبئينه فى دولاب ملابسك ولا تخرجينه إلا آخر الليل، تبادلينه الحب.

– ها قد صنعت لى قصة أكثر إثـــارة مـــن »جـــامع الفراشات«. وما كنت أبغى سوى أن تنضج علاقتى بك فوق نار هادئة لأنها تختلف عن علاقاتى الأخرى.

وعند نهاية النهار شكرت من كل قلبى الولد الصينى، فقد تأججت النار الهادئة، تضىء بألوان لهيبها الظـــلام فـــى غرفتى. لم يحدث ذلك دون تمهيد ضرورى. ففى ذات اليوم عدت للقائها مساء وتحدثنا عن الجنس. جاء الحديث بمناسبة الفصل الذى قدمته للأستاذ قبل لقائى بها، سألتنى عن محتواه فأخبرتها بأنه يتحدث عن الجنس الذى يعيد إنتاج نفسه مـــن خلال النص ذاته. مـــن خـــلال علاقاتـــه الداخليـــة وبنيتـــه القصصية. فألف ليلة وليلة تستعير فى بنائها الفنى، أســـلوب التناسل والإخصاب عندما تتوالد الحكايات الواحدة من رحـــم الأخرى. وهكذا يأتى الجنس الذى تتحدث عنه شهرزاد فـــى حكاياتها وتشهره سلاحاً تدفع به عن نفسها التهديـــد اليـــومى بالقتل، وفى ذلك تأكيد لجوهر الحياة الجنسية كســـلاح ضـــد الموت والفناء. تعمدت أن أبالغ قليلاً، معطياً لوناً جنسياً لهذا الفصل الذى لم يكن كله تمجيداً للجنس. وعندما وصلنا بعـــد هذا الحديث إلى مقر إقامتنا، لم تتجه ساندرا فى هذه المـــرة

إلى الدرج الصاعد إلى غرفتها، وإنما واصلت طريقها معى، عبر السقيفة التى تقود إلى دارى. فى صمت، ودون أن أسألها، جاءت ساندرا تمنحنى حبها هذه الليلة.

هكذا يجب أن تبدأ العلاقات بين المحبين. خالية من الأوهام والأقنعة. يباركها الصدق والوضوح، وترعاها آلهة الفرحة والمتعة والجنس. علاقة تبدأ الآن. متحررة من كل الالتزامات والتعهدات التى يتورط فيها الرجال والنساء ثم يندمون عليها فيما بعد. إننى أشتهيها. بل أكثر من ذلك قررت أن أحبها، حباً متمرداً على غريزة الامتلاك التى تطالب أن يكون الحبيب احتكاراً خالصاً لنا، ومتحرراً من كل القيود التى تمنع شوق القلب لالتقاء بمغامرة جديدة. ها أنذا أحملها بين ذراعى متخطياً بها عتبة الباب كما يفعل العرسان ليلة الدخلة. تضحك مندهشة وتسألنى لماذا أفعل ذلك، فأقول لها بأننى أفعله خوفاً من أن يكون أحد الحساد قد وضع لها سحراً فى عتبة الدار، يجعلها تتكرنى فور أن تضمنا الغرفة المغلقة. لكن ساندرا لا تتكرنى. إنها تقودنى إلى حدائق الدهشة، وتضىء ليلى ببروق النشوة والفرح. أعانقها وأفرغ

هذه الشحنات من الغبطة قبلاً، أغطى بهـــا وجههـــا. ترفـــع رأسها من بين أحضانى ضاحكة:

– جئت هنا فقط لأرى الشبح الذى وعدتنى به.

– لن يجد الشبح ليلة أفضل من هذه ليمارس طقـــوس انتحاره.

نشرب كأساً، نخب محبتنا، قبل أن تتركنـــى لحظـــات قصيرة، كى تهتم بزينتها، وترتدى عطرها ولبـــاس نومهـــا، وتحضر أشرطة الموسيقى التى تحب سماعها. تعود بعـــد أن أخذت حمامها، مبللة الشعر والبدن، تنضو اللباس عن الجسد الصغير الذى يسيل عذوبة وشهداً، متـــورداً كـــأوراق وردة تستيقظ لحظة بزوغ الشمس وتنفض عن نفسها ندى الفجـــر. أرقبها باندهاش كأننى أرقب سراً من أسرار الكون يكشـــف عن نفسه ورقة ورقة. ويظهر الصدر بقبتيـــه الصـــغيرتين، المضيئتين، المباركتين. نهدان يشتعلان بنار الذهب، ويمتلآن نزقاً وتمرداً وعنفاً، أراهما فيرتعش جسدى ويتداعى ارتجافاً وحمى. ثم أرى باقة صغيرة من زهـــور الزعفـــران التـــى استعارت لون الشفق، تظهر فى ذلك المكان الذى بـــه تبـــدأ دورة الحياة، فلا أعجب أن يكون للزعفران أســـراره، التـــى

تجعل فقهاء الشرق يدخلونه فى تراكيب السحر، ويجعلونه دواء للمرضى. وها هو عبير الجسد المعجون بمسك الليل، يملأ المكان ويطرد أنفاس الأشباح التى كانت تسكن هذه الغرفة. وها هو البدوى الذى كان ينام مقموعاً فى صدرى، يسرج الآن خيوله، فينطلق صهيلها، راكضة باتجاه مدينة القباب والمسك والزعفران. وها هى ساندرا تتحول إلى زهرة من نار، تشعل الحرائق فى دمى، وترينى من فنون الحب ألواناً لم أعرفها من قبل. إننى لا أسعى فى الجنس إلى متعة أكثر من متعة الممارسة الأولى، حيث أكتفى بما تحدثه فى جسدى من خدر لذيذ، ولذلك فإنه ما أن وصل العناق بين الشراشف ذروته القصوى، حتى استلقيت بجوارها مثقلاً بالإجهاد والنشوة. أدخن باستمتاع لفافة تبغ أخذتها من علبتها. وجدتها تداعب بأصابعها شعراً قليلاً نابتاً على صدرى فأخذت يدها أتأمل أصابعها النحيفة المقصوصة الأظافر. لم تكن هذه المرة تضع طلاء فوق أظافرها، ولكن الدم الذى تدفق فى رؤوس الأصابع، منح الأظافر لوناً كأنه الطلاء الأحمر. احتفظت بيدى فى يدها، مرتاحاً إلى نعومة ملمسها وقد جاء النعاس يداعب أجفانى. عادت ساندرا إلى إثارتى.

وضعت فى جهاز التسجيل أغنية من أغانى الجنس كانت قد أحضرتها من غرفتها، وصارت تغمر صدرى بقبلاتها وتحتوينى بذراعيها وتداعب عنقى وظهرى بأظافرها. تتأوه وتتنهد وتمرغ جسدها بجسدى، وتطلق شهقات تقلد بها المغنية التى تحترق شبقاً فى شريط التسجيل. تهدر فى جسمى الدماء التى بردت، وتنفر العروق التى نامت. تتفتح زهرة الشهوة، وأعود من جديد، أحضن الشفق، وأغيب فى مسك الليل وغابة الزعفران.

صارت ساندرا تنام كل ليلة معى، وتنتشر حديقة ورد وجمر فوق سريرى. أبدلت مظهر الغرفة بما يلائم ذوقها. نقلت الأثاث من مكان إلى آخر، ووضعت ستائر فوق النافذة، ومفارش من القطيفة الخضراء فوق قطعتى أثاث تحاذيان السرير، وجعلتنى أشترى رسوماً منسوخة عن لوحات سيريالية لشاجال وبيكاسو وسلفادور دالى. تكوينات ودوائر وألوان، تعطى إحساساً بالتمرد والانطلاق، وتهرب من سجن المعانى والقوالب. ملأت بها جدران الغرفة، فصارت غرفة أخرى تليق بساندرا وبهجة حضورها.

اقترحت عليها أن تترك غرفتها التى تكلفها جزءاً من منحتها الضئيلة بعد أن صارت تعيش معى. رفضت أن تتنازل عنها كما رفضت أن تأتى بزميلة جديدة تتقاسم معها الإيجار بدل الطالبة التى أنهت دراستها ورحلت. دخلت ساندرا حياتى، وتباعدت ذكرى ليندا، وكأنه مضى على فراقنا عقد من السنين. ونامت فى خاطرى ذكرى الأهل والوطن فلم أوقظها. غطست مع ساندرا فى لجة النزق والعشق والسهر. رأيت سهماً موشوماً على صفحة فخذها، صغيراً داكن الاخضرار، يشير إلى باقة الزعفران، وفوقه أحرف منقوشة وموصولة ببعضها البعض، تقول كلاماً غامضاً كغموض التعاويذ السحرية. تفاءلت خيراً بهذه التعويذة، واتفقت معها أن نعيش شهر عسل كما يعيشه العرسان الجدد، نبقى معاً فلا نفترق خلال هذا الشهر ليلة واحدة. سألتها ألا تخوننى قبل مرور ثلاثين يوماً. وافقت ساندرا على المبدأ، واعترضت على كلمة »خيانة« لأنه لا مكان لهذه الكلمة فى قاموس علاقتنا. ولكنها لم تحافظ على وعدها. قبل نهاية الشهر بأسبوع واحد، بدأ مهرجان ادنبره للفنون. حصلت ساندرا على بطاقة لحضور حفل الافتتاح،

وذهبت بمفردها إليه. انتظرت أثناء الليل عودتها، فلم تعــد. قلت لها عندما جاءت صباحاً:

- لا تقولى بأنك لم تنقضى العهد الذى بيننا.

- سأعترف لك وستعذرنى عندما أخبــرك مــع مــن قضيت الليل.

وذكرت اسم مطرب من فرق الموسيقى الدارجة، تملأ تصاويره حيطان المدينة. كان واحداً من نجوم حفل الافتتاح. ذهبت ساندرا فى نهاية الحفل تطلب توقيعه للــذكرى. قــال يغازلها بأن لها فماً جميلاً، فقررت أن تتخلى عــن الوفــاء بوعدها لى، وتمنحه بدلاً من فمها، جسمها كله. أكملت قائلة:

- إنه مهووس بى، ويريدنى أن أصحبه فى رحلاتــه حول العالم.

- أسرعى قبل أن تخطفه امرأة أخرى، ويضيع منــك العالم.

- انتهى أمره بالنسبة لى. إننى كماء النهــر الــذى لا يسبح فيه الإنسان مرتين. فأنا لا أحتفظ بعلاقة ثابتة إلا مــع عطيل.

قلت لها بأنها ستكون ملهمتى لكتابة مسرحية جديدة حول عطيل. وبمثل ما فعل الكتاب الذين استعاروا شخصيات شكسبير وأعادوا صياغتها فى قالب عصرى، فسأفعل ذات الشيء مع عطيل. سأجعله يتحرق شوقاً للقاء ديدمونة من أجل أن تروى له كل مرة قصتها مع الرجل الذى نامت معه فى الليلة الماضية. وسيصبح عطيل الذى كان عنواناً للغيرة، مثالاً للرجل المتسامح فى عصر التحرر وانعتاق النساء. وتتحول المأساة التى أبكت الناس جيلاً وراء جيل، ملهاة تفرح القلوب.

انتهى شهر العسل. ولكن مهرجان أدنبره جاء يمنح المدينة عرساً يدوم لمدة أسبوعين. جو احتفالى يغمر الشوارع والحدائق والميادين ليلاً ونهاراً. وفرق فنية جاءت من مختلف بلاد الدنيا ومعها توافدت حشود من السواح لا تقوى فنادق المدنية على استيعابها. واختراقاً لقوانين الجامعة قامت ساندرا بتأجير غرفتها لأعضاء فرقة موسيقية من أمريكا، لمدة أسبوع. وجاءت تخبرنى بأن أعضاء الفرقة يدعوننا لحضور حفل يقدمونه بإحدى الكنائس التى تحولت قاعاتها إلى مسارح. كانوا فرقة من ثلاث نساء وثلاثة رجال،

يتخصصون فى تقديم أغانى الريف الأمريكى. أقبل جمهــور كبير لرؤيتهم بعد أن صار هذا اللون طعاماً للإذاعات المرئية والمسموعة. انتهى الحفل فعدنا بصحبتهم إلى الغرفة. لم تكن الغرفة تتسع لهم، فأسندوا السريرين إلى الحائط، ووضـــعوا البطاطين والشراشف والوسائد فوق البساط، وصنعوا مساحة تكفى لنومهم بمثل ما تتسع لآلاتهم الموسيقية. بقينـــا للســـهر معهم، وجلسنا فوق الأرض متلاصقين وأمامنا زجاجتان من النبيذ. لم يكن فى الغرفة ما يكفى مـــن الكـــؤوس، فـــذهبت لإحضار كؤوس من غرفتى. كما أحضرت منهـــا زجـــاجتى نبيذ، بعد أن رأيت نبيذهم ضئيلاً لا يكفى لإحياء سهرة تضم ثمانية أشخاص. ولكن أحد أعضاء الفرقة أخرج قالبـــاً مـــن الحشيش بحجم علبة الكبريت، وجاء بغليون له مبسم طويل. خلط الحشيش بالتبغ ثم ملأ الغليون وأشعله، وبـــدأت جلســـة التخدير والدخان الأبيض. أدركت عندها السبب فـــى نـــدرة الشراب، الذى ترك مكانه هذه الليلة لنوع آخر مـــن أنـــواع الكيف. كنت أريد أن أحتفظ بولائى للكأس فهو "أكثر أمانـــاً. ولكننى لم أشأ أن أكون نشازاً، فشـــاركتهم التـــدخين. جـــاء دورى لوضع الغليون فى فمى. أخذت أنفاساً سريعة متقطعة،

وأجهدت نفسى فى ارتشاف الدخان. كادت نار الغليون أن تنطفئ، فدفعت به إلى ساندرا التى كانت بجوارى. ارتشفت جرعة نبيذ أزيل بها الاحتراق الذى أصاب حلقى. فلم يزدنى النبيذ إلا احتراقاً. أبدت ساندرا براعة فى التدخين. وضعت يدها فوق حجرة النار، وسحبت نفساً طويلاً وعميقاً حتى عادت النار للاشتعال. أرسلت من فمها دفعة كبيرة من الدخان، وعادت تغمض عينيها وتطبق شفتيها وهى تمتص الغليون كأنها تمتص ضرعاً مفعماً برحيق الحياة. أخذ قائدهم، ذو اللحية المدببة والشارب المغولى، قيثارته، يعزف عليها لحناً سريع الإيقاع. والآخرون يرددون معه الغناء. امتلأت الغرفة بسحب الدخان، والغليون يطوف بيننا، وأبخرة الحشيش تغمرنا بالخدر والانتشاء. انتهى ما أحسست به من ضيق فى بداية الجلسة. وشعرت بجسدى خفيفاً، قادراً على التحليق فى الفضاء، برغم أنى لم أكن أقوى على الوقوف. اقترحت على صاحب القيثارة أن يعزف لنا أغنية »غرباء فى الليل« فهى تليق بنا. كنت أحفظ بعض مقاطعها فغنيتها معه وأنا أتمايل فاقد الوعى. رأيت كل واحد منهم يقبل فتاته فأخذت ساندرا إلى حضنى، أتبادل معها القبلات. طال السهر

ونفد النبيذ، فى حين بقى الغليون دائراً، عامراً، لا ينضب ولا ينفد. ولا أدرى لماذا بدأ الجميع يتحـــررون مـــن ملابســـهم وكأنها صارت عبئاً ثقيلاً لا تقوى على حمله الأبدان. كـــان طقساً جماعياً شاركت فيه وكأننى مساق بقوة منومة. تـــرك كل واحد منهم فتاته، وانتقل إلى المرأة التى تجلـــس بجـــوار صاحبه، يعانقها ويقبلها ويتصارع فوق الأرض معها. كـــان عازف القيثارة قد اختار ساندرا ليرتمى عارياً يعانقها. ظلت فتاته تضع وجهها فى وجهى وتنظر لـــى بعينـــين أثقلهمـــا الحشيش. زحفت نحوى بنهدين كبيرين، وفم يتأهب للتقبيـــل. أطبقت بفمى على فمها واندمجت ملامـــح وجهـــى بملامـــح وجهها. كانت امرأة قوية البناء، سامقة القامة. صنعنا لجسدينا حيزاً وارتمينا بجوار الآخرين وقد اشتبكت الاذرع والسيقان والشفاه. تحولت الغرفة إلى حقل من الأطـــراف والأعضـــاء العارية التى تغطيها أبخرة الحشيش. كتلة معجونة من اللحـــم البشرى، تصنع مشهداً أشبه بلوحة رسام ســـيريالى، وســـط عاصفة من الآهات والتنهدات والأنفاس اللاهثة، وأصـــوات القبلات، واحتكاك الأجساد بالأجساد. لـــم أكـــن أعـــرف أن الحشيش يطيل عمر اللحظة الجنسية. فقد استمرت التأوهات

تتصاعد وتعزف موسيقى الشبق والاشتهاء. وكنت وأنا أعانق المرأة التى معى، كثيراً ما أجد ساقاً غير ساقها ارتمى فوقى، أو نهد امرأة يوخزنى، أو ذراعاً امتد بينـــى وبينهـــا. أدفـــع الساق أو الفخذ أو الذراع أو النهد عنى، وأواصـــل عنـــاقى لاهثاً، راكضاً، أرشح عرقاً، واحترق شبقاً. والغرفة تحولت إلى ساحة لعربات اللذة التى انطلقت جيادها تركض وتلهــث وتصهل كأن جيشاً يطاردها. ولحظة الشبق القصوى لا تأتى. والتأوهات تتحول إلى صراخ. صراخ حقيقى. وكـــأن فعــل الحب صار طعناً بالخناجر. صرخات تنطلق فى وقت واحد من كل نساء السهرة. كأنهن أوركسترا تعـــزف لحنـــاً بلـــغ مرحلة »الكريشيندو«. ثم تدريجياً، بدأت الصرخات تخفــت وتتراجع، والأنفاس تتلاحق، سريعة، لاهثة، ملتاعة. ثم خمد كل شىء، وارتمت الأجساد فوق الأرض كالذبائح.

كنت أريد أن أذهب لأنام فى غرفتـــى. ولكننـــى لـــم أستطع أن أرفع جسمى من فوق الأرض. رأيـــت الآخـــرين يستغرقون فى النوم وهم على أوضاعهم تلك، فأسلمت نفسى للنوم مثلهم، غير عابئ بالذراع التى ارتمت فوق صدرى، أو

الساق التى ارتمت فوق ساقى، أو السوائل اللزجة ورائحتها الزنخة التى تملأ المكان.

فى المساء الموالى، جاءت ساندرا تسألنى أن نذهب لمشاهدة الحفل الذى يقيمه أعضاء الفرقة، فربما نعاود السهر معهم.

- كنت أسمع عن مثل هذه الحفلات، وكان جسمى ينتفض استنكاراً لها، فإذا بك تجعليننى طرفاً فيها.

- كنت مشاركاً فيها ومستمتعاً بها، فلا تقل شيئاً يفضح شخصيتك المزدوجة التى توافق على شيء بالليل وتنكره بالنهار.

- إننى لا أنكر أننى استمتعت بها.

- وما وجه الاعتراض إذن؟

- وجه الاعتراض أن هناك نواميس اقتضت الإنسان زمناً يوازى عمره فوق الأرض. حتى وصل إليها. وعندما نعبث بهذه النواميس من أجل المتعة، فإن التدرج الحضارى كله يصبح أضحوكة.

- ما أكثر استخدامك للكلمات الكبيرة التى تخفى بهـــا زيف منطقك. فليصبح تدرجك الحضارى أضحوكة. إذا كان هذا يمنحنا قدراً أكبر من السعادة.

- السعادة شيء آخر.

- اختف كيفما تشاء خلف العبارات الغامضة. أما أنـــا فلا أعرف سعادة غير تلك التى نرتوى منها بحواسنا. وليلـــة البارحة كانت كل الحواس قد وجدت ارتواءها.

- إننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً كهـــذا وأنـــا مـــتحكم بقواى العقلية.

- وكم تحتاج إلى دورة مـــن دورات الغليـــون حتـــى تتحرر من هذا القيد ؟.

- لنقل اننى لا أستطيع أن أراك أمامى، تصرخين بين أحضان رجل له ملامح التتار.

- كانت هناك امرأة أشبه بالمحاربات الأمازونيـــات، ولها حجم أضعاف حجمى ثلاث مرات، تصرخ بين يديك.

- كنت غائباً عن الوعى.

- كنت تمارس وعيك الحقيقى المـــدفون تحـــت هـــذه القشرة التى صنعتها العادة. كنت تمارس وعياً أكثر صـــدقاً

من وعيك الذى تتكلم به الآن. فتوقف عن لعبة الخداع التـــى تلعبها مع نفسك.

كنت صادقاً فى التعبير عن نفورى من الـــدخول فـــى تجربة كهذه مرة أخرى. إن مرة واحـــدة تكفـــى لإرضـــاء فضولى مدى الحياة. فأنا لا أستطيع أن أقفز فوق كل الجسور التى صنعتها قيم ومفاهيم وقناعات، وأجعل من هذه الحفلـــة التى كانت صلاة خالصة لإله الجنس، وكفراً بالآلهة الأخرى، شيئاً أتشوق إليه. جاءت حفلة البارحة، بشكلها العفوى وفـــى لحظة غياب عن الوعى، ودون سابق تصميم، فكان طبيعيـــاً بعد ذلك أن أجد مبرراً يعفينى من المسؤولية. أما أن أذهـــب إليها متعمداً، كما تريد ساندرا، فهذا ما لا أقوى عليه. إنهـــا تشتاق إلى ليلة أخرى من الإثارة، والجنس المغمـــوس فـــى الدخان الأبيض. ذلك سلوك لا يفاجئنى، فقد صرت أعـــرف شيئاً عن هذا الشوق الذى لا ينضب لاختبار الحياة والارتواء من كل الينابيع. شهية مفتوحة للســـهر والـــرقص والحـــب والجنس والشراب والطعام والتـــدخين والنقـــاش والتمثيـــل والقراءة. كل المتع مباحة، وكل شىء تمارسه تقبـــل عليـــه باندفاع وحرارة، تمنحه نفسها كاملة. حتى طبق الفاصـــولياء

فى المطعم المصرى، يصبح وهى تتناوله أشهى وأثمن طبق فى الدنيا، كأنها كانت صائمة عن الطعام شهراً كـــاملاً. لـــم أتأمل كيف كان شعورى وأنا أراها البارحة تمارس الجـــنس مع عازف القيثارة. ظلت وحدها تطلق صرخاتها اللذيذة بعد أن سكتت بقية النساء، ولم أكن مستفزاً. كانت اللعبة عادلـــة، وكنت ثملاً. منتشياً ومبهوراً بثراء ودسامة الجسد الأنثـــوى الجديد الذى ألتقى به لأول وآخر مرة. الآن فقط أســـتطيع أن أعرف لماذا لا تنام ساندرا مع عشاقها الطـــارئين إلا مـــرة واحدة. إن للمرة الأولى، لهذا اللقاء الأول، والحـــوار الأول بين جسدين، لذة لا يمكن أن تكرر نفسها. لـــذة الاكتشـــاف، ولذة المغامرة والدهشة، التى ترافق هذا الاكتشاف. وعنـــدما كانت ساندرا تزور جزيرة الدهشة بصحبة الرجل المغـــولى، وتنتظر، مصعوقة، صارخة، شبقاً يمتنع عن التحقيق، كنـــت أنا مشغولاً بمغالبة تلك المرأة الأمريكية ذات الجسم العـــارم كالسيل. لا شك أن هذا المغنى، قد اختارها صاحبة له، مـــن بين آلاف النساء اللاتى يحترفن غواية المطربين والعازفين. وفى حين كانت ساندرا جسداً صغيراً لذيـــذاً، يســـهل طيـــه وتطويقه. كانت امرأة الغناء الريفـــى الأمريكـــى، بقامتهـــا

الفارهة، وغزارة شعرها الأسود، وفخامة صدرها، واكتناز شفتيها، أشبه بالموجة التى تداهمنى، فتغرقنى وتطوينى. أرتفع معها وأنخفض. أغطس حتى أفقد أنفاسى، وأطفو ثانية فوق اللجة العالية. لم أكن قد تعرفت إلى اسمها، أو سمعتها تنطق اسمى. لم أكن قد تبادلت معها كلمة واحدة، قبل أو أثناء أو بعد ممارسة الجنس. كل ما كنت أسمعه منها، أو كانت تسمعه منى، أثناء المعانقة، هو تلك الهمهمات والشهقات التى كانت لغة الإنسان فى أول مراحل وجوده، قبل أن يكتشف اللغة أو يعرف الكلام. غرباء التقينا، فتبادلنا المتعة، وغرباء افترقنا. جسدان التقيا، وسط كتلة من الأجساد العارية الأخرى، لقاء الغريزة والشهوة، واختبرا كيف يعود الإنسان إلى عناصره الأولى، القريبة من الأرض والطبيعة، حتى يتساوى مع كائنات الغابة وبقية المخلوقات فى المملكة الحيوانية. مزقنا الرداء الحضارى، وعبثنا به للحظة قصيرة، كانت انفلاتا من مدارات وخطوط عرض وطول، عشنا دائماً مشدودين إليها. ثم انتهت اللحظة، ليعود كل واحد إلى مداره، يرتدى ثيابه ويدخل فى قشرته الحضارية. أعود أنا إلى كتبى وأوراقى، وتعود هى إلى غنائها الريفى، داخل قاعات

الكنائس الاسكتلندية. هكذا يجب أن تنتهى اللحظة، لتبقى بعد ذلك نقطة فى الذاكرة، سوف يفسدها التكرار ويقضى على بكارة البهجة التى تصاحبها.

تركنا فكرة الذهاب إلى الفرقة الأمريكية، ومضينا نتجول بين معارض الكتب والرسوم والزهور، ونتنقل بين الفرق الموسيقية وفرق الفنون الشعبية التى اختارت أن تقدم عروضها فى الحدائق والميادين. ونتحول إلى جزء من هذا المشهد الذى يضم بشراً أسقطوا من حسابهم كل النشرات التى تبثها الإذاعات عن أخبار الكوارث والحروب والصراعات والمجاعات. أداروا لها ظهورهم، يستقبلون مهرجان الفنون بأفراحه وألوانه وأضوائه. اختتمنا سهرتنا بمشاهدة مسرحية عن »ميدوزا« التى تنمو فوق شعرها الأفاعى، ويتحول كل إنسان تنظر إليه إلى حجر. كانت مسرحية فكاهية، أثارت شهيتى للضحك واللعب، ورأيت أن لساندرا شعراً يشبه قفة من الأفاعى الحمراء، فأطلقت عليها اسم »ميدوزا«. اشتعلت غيظاً منى، ورفعت قبضتها الصغيرة تضربنى على صدرى، هربت منها راكضاً، وهى تركض ورائى، نضيف فوضى إلى فوضى الشوارع،

ونخترق ليل أدنبره العامر بالساهرين. رأينا شرطياً يلاحقنا بنظراته، متعجبا من مشهد الرجل الذى يجرى والمرأة التى تطارده، فلم نعبأ به. كانت الساعة تقارب الثانية عندما وصلنا إلى دارنا منهكين. ذهبت ساندرا تتنصت على سكان غرفتها. لم تسمع لهم عزفاً ولم يصدر عنهم صوتاً، فعادت لتنام. ولا أدرى لماذا وأنا بين النوم واليقظة، رأيت مشهد المدينة القديمة التى عرفتها فى طفولتى، ينبثق فى ظلام الغرفة. بيوت تآكلت حيطانها، وتقشر طلاؤها، وفقدت الأبواب والشبابيك والجدران انتماءها لأى لون سوى الصدأ والرطوبة. ومع ذلك فهى تكتظ بالعوائل التى تأوى إليها. أطياف ورؤى لأصحاب وأهل وجيران، يستيقظون فى ذاكرتى، وينظرون من خلال الأبواب والنوافذ نحوى باندهاش واستنكار، وكأننى اقترفت فى حقهم إثماً. تذكرت عندما جلست فى السرير أفرك عينى، وأطرد منهما هذه الرؤى التى أقلقت نومى، إن زمناً طويلاً تقضى، دون أن أهاتف "أحداً من أهلى. إنهم لا يعرفون لى هاتفاً أو عنواناً بعد أن تركت البيت القديم. ولا بد أنهم قلقون من أجلى. عرفت عندما جاء الصباح وهاتفت أخى، أنه انتظر خلال هذا

الصيف عودتى، ولأنه لم يجد سبيلاً للاتصال بى أو يتلقـــى خبراً منى، قرر أن يأتى إلى هذه المدينة، باحثاً عنى. وهو لم يكن ينتظر إلا إكمال شهر الصوم لكى يسافر. لم أكن أعرف أن شهر الصيام قد بدأ وهو يكاد ينتهى. وان أياماً عشرة هى التى تفصلنا عن العيد. أحسست بالخجل وأنا أقــول لأخـــى مجاملاً بأننى أصوم الشهر دون مشقة. أقفلت السماعة غاضباً من نفسى. لأننى نسيت كل شيء عن هذا الشهر الذى تعودت دائماً أن أصومه. عادة نشأت عليها منـــذ أن كـــان والـــدى يرغمنى، وأنا فى العاشرة من عمرى، على أن أصوم مثـــل الكبار. تقطعت الأسباب بينى وبين شعائر وممارسات دينية، وبقى الصيام هو الشعيرة الوحيدة التى تصل علاقتى بالسماء. وكنت أقول لمن يرانى صائماً فى هذه المدن التى لا ترتفـــع فى سماواتها الأهلة والمآذن، بأن هذا هو الخيط الوحيد، بعد أن تمزقت كل الخيوط الأخرى، الذى يصلنى بأهلى وأصلى وانتمائى وجذورى، ولا سبيل إلى التفريط فيه. وها أنـــا قـــد مزقت هذا الخيط لأطفو ضائعاً فى فضاء لا حدود له. ولكى لا يكون ضياعى نهائياً، قررت أن أصوم الأيام الباقيات.

– ها هو رجل العنف والجنس يرتدى الآن قلنسوة رجل الدين. يجب أن أزداد اعتزازاً بنفسى لأننى أغويت راهباً.

كيف أستطيع أن أشرح لها ما عانيته من شقاء، حتى تحررت من سطوة ذلك الشيخ الضرير الذى كان يعلمنى الدين بجامع الباشا، ومن تعاليم الأب الذى كان يحمل سوطاً ويرغم طفلاً دون العاشرة، على أن يقوم قبل الفجر ليتوضأ ويذهب معه للصلاة، ومن وصايا الفقهاء والمعلمين وخطباء المساجد الذين كانوا يحملون عصياً مقطوعة من أشجار الجنة، يسوقوننى بها عبر طريق تحوم فوقه الملائكة ويمتلئ بمآذن وقباب المساجد. تحررت بعون الله من سلطتهم، وهجرت مدينة الملائكة أبحث عن مكان بين البشر. ولم يبق فى نفسى شىء من تعاليمهم، ولا أعترف لهم بأية مديونية، سوى هذه الأيام العشرة التى قررت أن أصومها، وأقدمها نذراً لهم مقابل عتقى. فهل تستكثرين ذلك عليهم؟

– إنك دائماً تريد أن تكون ما هو ليس أنت. تريد أن تكون فاسقاً وأخلاقياً. متديناً ومتحرراً من الدين. تريد أن تعيش فى العصور الوسطى والعصر الحديث، تنتمى إلى

الشرق وتنتمى الى الغرب. تضع قدماً فى الواقع، وقدماً فى الأسطورة. وتكون النتيجة انك لست فاسقاِ ولست أخلاقياً. لست متديناً ولست متحرراً من الدين. لا تعيش فى القرون الوسطى ولا فى العصر الحديث. لا فى الواقع ولا فى الأسطورة، ولا تنتمى إلى الشرق ولا إلى الغرب.

– إنها عشرة أيام سرعان ما تنقضى. لن تكون عبئاً على علاقتنا، ولن تمنعنى من أن أشاركك السهر والذهاب إلى عروض المهرجان، فلماذا تصنعين منها مشكلة؟

– إننى لا أتحدث عن الصوم. إننى أتحدث عن الدلالة التى يحملها هذا الصوم. دعوتنى لأن أعرفك، وها أنا أحاول فلا أجد سوى سديم.

انتهى المهرجان وانحسر عن المدنية ذلك الطوفان البشرى، فعادت ادنبره إلى بياتها الشتوى الذى يبدأ قبل مجىء الشتاء. وانتهى صيامى فصنعت لساندرا عيداً صغيراً مكافأة لها على احتماله معى. دعوتها إلى عشاء راقص، وأهديتها شالاً حريرياً تغطى به آثار العض فى عنقها. كانت قد التقطت فى يوم سابق ولداً إيطالياً وجاءت به إلى غرفتها التى أخلاها مؤجروها. كان عاشقاً صغيراً وغشيماً، ولا يجيد

كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية. ما أن رآها عارية حتى ارتمى فوقها، يعضها فى مواقع مختلفة من جسمها حتى أدماها. دفعته عنها، وسألته أن يرتدى ملابسه ويخرج. لم يفهم كلماتها، فألقت بملابسه إلى الخارج، وطردته عارياً من غرفتها.

أرادت أن نذهب لقضاء نزهة صغيرة فى الأراضى العالية، تمتد يومين أو ثلاثة، نهرب خلالها من رتابة المدينة، قبل أن تداهمنا السنة الدراسية الجديدة. فاستأجرنا كوخاً من إحدى الوكالات، وأخذنا خارطة تقود إليه. اشترينا ما نحتاج إليه من نبيذ ولحوم وفاكهة، وتزودنا بالماء والشموع، فهو كوخ بعيد عن الدكاكين والعمران، خالياً من الماء والكهرباء. اكترينا سيارة أجرة أقلتنا إليه ظهر الجمعة، واتفقنا مع سائقها أن يأتى لإعادتنا صباح الاثنين. كان الكوخ يتوسط منطقة خلاء فوق هضبة تحيط بها الجبال والغابات. مجرد غرفتين من الخشب إحداهما للنوم والأخرى دورة مياه بدائية. لم نر على البعد كائناً بشرياً، ولم نسمع سوى حفيف الأشجار وثرثرة الطيور قبل المغيب، وضجيج السناجب التى تتقافز فى كل مكان. طردنا السناجب من الكوخ، وقمنا بتنظيفه من

الأتربة، ونفضنا الغبار عن السرير الذى كان قطعة الأثاث الوحيدة فيه. غابت الشمس ولم تبق سوى سحب كثيرة حمراء تضىء الغابة بوهجها الأرجوانى. جمعنا حطباً، وأوقدنا ناراً، وجلسنا أمام الكوخ نشوى أسياخ اللحم، ونشرب النبيذ. نتحدث، وندير أشرطة الموسيقى، ونرقب من حولنا الظلام الذى بدأ يحط فوق الأشجار والجبال. يعيدنى مشهد البرية، والبطاح الذائبة فى العتمة، إلى مرحلة مبكرة من العمر، مرحلة لم أكن لأعيها لو لم تكن مثار أحاديث وذكريات كنت أسمعها من أهلى حتى صارت محفورة فى ذاكرتى بتفاصيلها الصغيرة، عندما كنا نرحل وراء والدى وهو يطارد رزقه ورزقنا بين الألغام. ننصب خيمتنا فى البرارى، حيث لا شىء سوى الأرض الصفراء والهضاب البعيدة العارية الجرداء، وليل لا تضيئه إلا مواقد النار ونجوم السماء. وكانت ساندرا سعيدة بهذه الرحلة التى أعادتنا إلى أمنا الطبيعة، نعيش بين أحضانها، ونرتمى فوق أعشابها، ونملأ صدورنا من هوائها الذى لم تلوثه المداخن. نرفع أبصارنا، فنرى النجوم كلها، والسماء كلها، لا مساحة بحجم الشباك كما يحدث فى المدينة. قلت لساندرا بأن هذا النوع من

الحياة ليس جديداً بالنسبة لى. لم يكن فى ذلك الوقت نزهـــة عامرة بالنبيذ والشواء كما هى الآن. وإنمـــا كـــان صــــراعاً ضارياً من أجل البقاء، ومشياً يومياً فـــوق حقـــول الجـــوع والموت. ننصب فى المتاهة خيمتنا، ومن حولنا خيام أخرى، لعائلات جاءت مثلنا، تبحث، وسط بيادر النار وبين عـــروق الألغام، عن عيشها أو موتها. كنت طفلاً، ولم أكن أستطيع أن أدرك رعب تلك الحياة، إلا بعد أن انتهت وصارت جزءاً من ميراثى الشخصى. ولأن البكاء كان زاداً يومياً يعيش عليـــه أهل تلك الخيام التى تعاشر الفاجعة، فقد ذهب فى ظنـــى أن البكاء ملازم للحياة. وكانت دهشتى عظيمة عنـــدما انتقلنـــا للإقامة بالمدينة ووجدت الناس لا يبكون كل يوم. رأيت ذلك شيئاً غريباً لا يتفق مع طبيعة الحياة كما عرفتها. كان الناس فعلاً يموتون. ومن لم يمت بالألغام مات بغيرها. ومـــن لـــم تسعفه الأعشاب والأحجبة والكى بالنار، فإن عليه أن يموت. لا أدرى كم عدد الأخوة الذين فقدتهم. كان الواحد منهم يموت بعد أشهر من ولادته. وكان مبدأ الانتخاب الطبيعى الذى يتيح الحياة للأقوى فى تلك البيئة الشرسة، هو البديل لحبوب منع الحمل. حسبونى أكثر من مرة فى عداد الأمـــوات. كانـــت

إحداها عندما استعمل الرجل الذى جاء لختانى أدوات ملوثة، فتورمت تلك القطعة من اللحم واسلمتنى إلى مرض كاد يقتلنى. جاءوا بالفقيه يقرأ على رأسى القرآن استعداداً لموتى، ولعل إنساناً أشار ببتر تلك القطعة إنقاذاً لبقية الجسم من التسمم، ولكن البادية لم يكن بها أطباء وجراحون يقومون بهذه المهمة. وعندما نجوت من الموت وعدت إلى الحياة، كانت تلك القطعة لا تزال فى مكانها. لم ينقذها إلا جهل الناس وغياب الأطباء. وكانت المرة الأخرى عندما جاء الطبيب الشعبى بسيخ من الحديد المحمى وطبع به رأسى. انتفخ الرأس كله ألماً ومرضاً، وبدلاً من أن يشفينى هذا الكى من صداعى، أرسلنى إلى موت لم أعد منه إلا بفضل الدعاء والتسابيح التى ظلت أمى تتلوها، لليال طوال، بجوار مرقدى. ولا زالت آثار هذا الحرق، حتى الآن، فى رأسى.

مدت ساندرا يدها تتحسس شعرى وتفتش عن ذلك الأثر. أمسكت بإصبعها، ووضعته فى المكان الذى صار الآن بقعة صغيرة ملساء تحت الشعر. قلت معتذراً:

– ما كان ينبغى أن أفسد جمال هذه الليلة، ببائس الذكريات.

- يجب أن تشكر السماء، لأنك نجوت صغيراً وكبيراً. فمثل هذه الطفولة لا تصنع إلا مجرماً أو مجنوناً.

تساءلت بيني وبين نفسي:

- ترى ما الذي تبقى من ذلك كله؟

لا شك أنه باق بأكمله معي. يختبئ تحت الجلد مثل ندبة الرأس المخبأة تحت الشعر. إرث أرحل به ويرحل بي. وإذا كانت الأشياء التي تتصل بطبيعتنا وتكويننا، تبدأ مبكراً، كما تقول الكتب، فستظل تلك الأيام الغائبة خلف أبخرة الزمن، تمارس نفوذها على حياتي بأكثر مما تمارسه أيام الرخاء التي جاءت بعد ذلك.

بدأت النار تخبو فألقمناها مزيداً من الحطب. تعود إلى الاشتعال ونحن نرقبها ونتصت لأنين أعوادها المحترقة. كانت الأعراف الخضراء تصدر أنيناً أكثر توجعاً، فهي تموت الآن قبل موعدها. وفي السماء سحب مضيئة تنعكس عليها أشعة قمر لم نره، لأنه لم يظهر بعد. في حين انحنى قوس الأفق، يصنع خيمة للظلام. تتراقص على ضوء النار ظلال أشجار ونباتات قريبة، فنضحك متوهمين أن الغابة تقدم عرضاً راقصاً ترحيباً بنا. قررنا أن ننام خارج الكوخ.

أخرجنا المرتبة وارتمينا فوقها نمارس الحب فـــى العـــراء. تراقصت ألسنة النار تصنع التماعات تضيء وجه ســـاندرا، فتصورت أننى أعيش فى إحدى غابات ألـــف ليلـــة وليلـــة، السحرية، وأضاجع إحدى جنيات الغابة، مدفوعاً بقوة الغريزة فى حالتها الهمجية، الفطرية، المجيدة. قضينا اليـــوم الثـــانى نستكشف المناطق التى حولنا ونطوف عبر الغابة وأدغالهـــا. نتأمل الغريب من نباتاتها، ونخلع أحذيتنا ونتسلق أشـــجارها، ونتسابق فى الانتقال من شجرة إلى أخرى عنـــدما تتشـــابك الأغصان وتصنع جسراً يسهل عبوره. ثم نهبط وقد مـــلأت الخدوش سيقاننا واذرعنا، لنجرى خلف الفراشـــات ونحـــن نطلق صيحات المحاربين حتى نصطادها، ثم نحررها مـــن الأسر بعد أن نقدم لها أنفسنا، ونذكر لها أسماءنا، لكى تحفظ لنا هذا الفضل، وتشيد بذكرنا بين قومهـــا. كنـــت مبتهجـــاً لوجودنا فى هذه البقعة الخالية من البشر وكأن العالم صـــار ملكنا. إلى أن قالت ساندرا:

– إنه مكان مثالى لارتكاب الجريمة.

- لابد أن إدمانك على قراءة روايات مثل »جامع الفراشات« قد أفسدت لديك الروح الرومانسية التى يجب أن نرى بها الغابة باعتبارها وطن البراءة.

لعلها كانت تفكر بمغامر يسكن الغابات مثل روبن هود. ولكن موجة من الذعر داهمتنى وأنا أجد نفسى أفكر فيما لو أننى فعلاً وقفت الآن خلفها، وأطبقت بأصابعى بغتة على عنقها، بحيث لا أترك لها فرصة للصراخ أو طلب النجدة. نشوة وحشية غمرتنى وأنا أتمثل نفسى أقتل هذه المرأة الصغيرة المبهجة التى أحبها وأشتهيها. لن يعرف أحد بجريمتى، ولن أنظر إلى الوراء متحسراً، عندما أغادر هذه البلاد، لأننى تركتها لرجال آخرين يستمتعون بها بدلاً منى. من أين تنبثق هذه الأفكار الظلامية المعبأة بنشوة الشر والجريمة. إنها ما أن تأتى حتى تختفى، فأنا أعرف أننى لن أفعل ذلك ولكن لماذا تأتى وتقضى على ما كنت أنعم به من سلام مع نفسى. لابد أن ذلك يحدث لأننى فعلاً أحبها، وأغار عليها، وأقمع غيرتى متظاهراً بالمسلك الحضارى، إلى أن تطل هذه الأفكار برأسها، تفضح مشاعرى وتمضى. هل أقول لها الآن، إن القشرة الحضارية، هى التى أنقذتها من

موت أراده لها الرجل البدائى الذى يساكن بدنى. ولكن وحشة المكان، التى أوحت بهذه الأفكار، تبددت عندما ظهر البشر. ما أن تقدمنا قليلاً فى الغابة حتى وجدنا أطرافاً منها أعــدت للنزهة، ونصبت فيها المراجيح، وجــاء إليهــا المتنزهــون بأطفالهم وعائلاتهم وسياراتهم. وجدنا فى سفح الجبل أغنامــاً ومزارع ولافتة معلقة فوق سياج خشبى تعلن عن بيع اللحوم والألبان. دخلنا واشترينا حليباً وجبناً لإفطارنا. وجاء الليــل فأوقدنا نارنا ووضعنا أمامنا موائد الشواء والنبيذ. اقترحــت ساندرا بعد أن استهلكنا نصف الزجاجة الثانية، أن نستفيد من وجودنا فى الخلاء، ونمنح حصة من وقتنا للبكاء. فقد قرأت شيئا عن قبائل بدائية كانت تخصص يوماً فى العام لا تفعــل فيه شيئاً سوى البكاء. طرداً لما علق بالروح مــن أوجــاع، وتصريفاً لكل ما عجز الإنسان عن تصريفه مــن مشــاعر الغضب والحزن والاكتئاب. كنت فى حالة من الانتشــاء، لا أريد إفسادها بافتعال الحزن واستجلاب الــدمع الصــناعى. ولكن ساندرا لا تمنحنــى فرصــة للاعتــراض، تحيطنــى بذراعيها، وترمى رأسها فوق كتفى، وتباشر بكاءها. ترانــى لا أفعل مثلها، فترفع رأسها قائلة، بأن البكاء يليق بى أكثــر

منها، وأن الذى نشأ وسط المأتم وأحزان النساء النائحات، هو أنا وليست هى. وهازلاً وضعت رأسى بجوار رأسها وبكيت بكاء مفتعلاً لا يشبه بكاءها النازف حرقة ولوعة. ثـــم شـــيئاً فشيئاً تفتحت شهيتى للبكاء. تفجرت فى ذاكرتى طاقة هائلـــة من المواجع. أبخرة صنعتها أزمنة لم تعد تعيهـــا الـــذاكرة، تتصاعد من أغوار بعيدة عميقة، مخبأة فى الصدر منذ بـــدء الخليقة، تنهمر الآن دمعاً وأسى. إحساس، غامض، فاجع، لا أدرى من أين جاء، ولا كيف جاء، يدفعنى إلـــى أن أبكـــى وأبكى. تحول البكاء إلى نواح. ونائحاً نادباً، كنـــت أرتعـــش وأنتفض وأحنى رأسى على كتفها وقد بللت الدموع وجهـــى كله. ونائحة كأنها فقدت هذه اللحظة، أعز إنسان لديها فـــى حادث فاجع، مضت هى تلطم بيديها على ظهرى وترتجـــف كشراع فى الريح. تنهمر العبرات منى، وكـــأن نبعـــاً خفيـــاً مجهولاً مدفوناً خلف جبينى يرسل هذا الماء المـــالح الـــذى يصل إلى فمى، وتبقى حموضته، ومرارة طعمه المالح عالقة بلسانى. كانت الفواجع تستيقظ كالبراكين بـــداخلى، وتتفجـــر دمعاً وحزناً وانصهاراً. يخفت البكاء حتى يصير نشيجاً، ثـــم يعود مرة أخرى ولولة وعويلاً. طال الوقت ولكن رغبتى فى

ا لبكاء لا تنتهى. بكاء مر، لاذع، جميل، مريح، مصحوب بإحساس يشتبك فيه الألم باللذة. كأن صخرة وسط القلب تتفتت الآن وتذوب وتصير ماء. توقفت ساندرا عن البكاء، فتوقفت مثلها. أخذت مناديل الورق أمسح بها الدمع عن وجهى وأهدابى، وأنا أحس بارتياح عميق لأننى تحررت من عبء ثقيل أرهق روحى. بدا الهواء أكثر صفاء وعذوبة. والليل يشع بشفافية الغناء الصامت الذى ترسله الأشجار.

كان الطقس فى اليوم الثالث أقل اعتدالاً. امتلأت السماء منذ الصباح، بغيوم داكنات، تحولت أمطاراً فيما بعد، وألجأتنا للاحتماء بالكوخ إلى أن أشرقت الشمس.

فى الغابة فتنة نائمة لا يوقظها إلا المطر. عبير يشبه عبير القلائد المصنوعة من معجون العنبر والقرنفل والمسك التى ترتديها عرائس الريف، تنبعث من هذه الأشجار والأعشاب المغسولة بالماء. قلت لساندرا، ونحن نستمتع بنشوة هذا العبير، وبهجة الارتحال عبر بكارة الأرض، بأن روبنسون كروزو، وحى بن يقظان وأطفال جزيرة الكنز وطرزان وأبطال »روسو« و »كيبلينج«، وغيرهم من أبناء الطبيعة ومؤسسى فكر العودة إليها، لم يكونوا خيالاً صرفا،

وما أحسوه من نشوة الالتحام بالطبيعة لم يكن كذباً. فهذا ما أحس به أنا أيضاً. تصورت أن ساندرا ستعارضني، وتذكرني بأعمال أدبية أخرى لم تر في الطبيعة إلا وجهها المتوحش بعنفه وشراسته. ولكنها لم تقل شيئاً. حالة من الاستغراق جعلتها زاهدة في الكلام. مسحورة ببهاء الدروب المسقوفة بأقواس الشجر، والمليئة ببرك الماء، والتماعات أشعة الشمس عليها كأنها خناجر الضوء. تسبقني وهي تلاحق عصفورا يتقافز أمامها. طائراً مخضباً جميلاً لا نعرف له اسماً. تمضي وراءه فاتبعها ونحن نتخاصم حول الاسم الذي سنمنحه لهذا الطائر، الذي اعتبرناه عائلة جديدة من الطيور نحن اكتشفناها. يغيب الطائر بعد أن يقودنا إلى مناطق لا نعرف كيف نعود منها. ولكننا في النهاية نعود. نعود من الغابة إلى الكوخ. ونعود في الصباح التالي إلى المدينة، ونحن نحس بالرضا عن هذه النزهة، التي أتاحت لنا أن نكسر طوق الحياة المكرورة المألوفة، وهيأتنا لدورة جديدة من دورات الدراسة والحياة الجامعية.

كان كل شيء في رحاب الجامعة يوحي بأن هذه الدورة قد بدأت الآن. ازدحمت الساحات بالعائدين من إجازة

الصيف، والملتحقين حديثا بالجامعة، يصنعون مشهداً مبهجاً لبداية العام الدراسى الجديد. لم تكن المدرجات والفصول قد بدأت باستيعاب هذه المجاميع، فهى فترة تحضير وتسجيل وجداول. ولهذا فاضت بهم الأرصفة والباحات والحدائق المحيطة بأبنية الجامعة. يقيمون هذا الاحتفال العفوى العامر بالصخب والمرح. وكان مشهد الصبايا اللاتى أكملن دراستهن الثانوية وجئن ليبدأن حياة النضج والتحصيل الجامعى، هو أكثر المشاهد تعبيراً عن هذه الروح. نساء صغيرات، رشيقات، يعبقن برائحة فجر حديث الولادة. ضحك وانطلاق، وشهية للاستمتاع بمناخات الحرية التى تتيحها الحياة الجامعية لفتاة تغادر الآن طفولتها، كما تغادر بيت أهلها، وتبحث عن سبيل لتحقيق ذاتها. ينشئن تجمعاتهن الاحتفالية، ويتبارين فى الأناقة وارتداء أكثر الألوان بهجة وفرحاً. أردية كأجنحة الفراشات، وحديقة زهور ينسكب فوقها الشعاع الأول لشمس عام جديد. ارتعاشات نهود فى بدء تفتحها، وضحكات لذيذة تملأ برنينها الأفنية والساحات. اسمع هذه الضحكات، وأرى نضارة الوجوه، ويلفحنى عطر حدائق الورد، وأستحضر عالماً جميلاً خالياً من الآفات

والسجون والأسلحة والعصابات والحروب. أدرك أثناء ذلك أن هذا المشهد ليس إلا مظهراً خادعاً للحياة. فما أسرع أن يغمر الهواء الفاسد هذه الكائنات الجميلة، البريئة، لتصبح هى الأخرى جزءاً من بيئة مليئة بالعواء والدخان والصراعات.

أتحرر للحظات من شخصيتى المتشائمة وأستعيد الرغبة فى الاقتراب من عوالمهن. فاختلق المناسبات لتبادل الأحاديث معهن، والالتقاء بعبق الحياة، ودورتها المتجددة الخضراء، فى خفق هذه الصدور وبهجة هذه العيون الضاحكات.

وجدتنى ساندرا فى مقصف المكتبة أحمل سفرة فوقها فناجين الشاى وقطع الجاتوه.

- لمن تقيم هذه الحفلة الباذخة؟

أجبتها بأننى تعرفت على ثلاث طالبات مستجدات. وأشرت إلى مكان جلوسهن. نظرت ساندرا باتجاه الطالبات قائلة:

- لعلك بدأت تشتاق إلى مغامرة صغيرة مع صبية لم تعاشر فى حياتها رجلاً

أهملت تعليقها وسألتها أن تنضم إلينا. قالت وهـــى لا تزال تنظر إليهن:

– أشر فقط إلى الفتاة التى تعجبك منهن، وســأعرف كيف أرتب لك لقاء ليلياً معها، دون أن تحتاج لصرف مزيد من النقود أو إقامة مزيد من الحفلات.

رأتنى أنظر إليها ساهماً، لا أعرف ما الذى أغاظهـــا، فأضافت:

– لا تتظاهر بالغباء. إننى أستطيع أن أقدم لك خدمـــة لن تنساها.

– دعينا نتحرك وإلا فسيبرد هذا الشاى وأنا أستمع إلى دعابتك التى لا معنى لها.

جئت إليهن بساندرا، فوقفن لتحيتها، سعيدات بالتعرف عليها، فقد زارت فرقة الجامعة قريتهن فى جولة ريفية لتقديم مسرحية عنوانها »هبط الملاك فى بابل« وشاهدن ساندرا فى دورها الملائكى.

– هذه هى ابنة السماء، هبطت من سمائها وجاءت إلى هذا المقصف.

كنت قد تعرفت عليهن تعرفاً سريعاً، وأخبرتهن بأننى طالب دراسات عليا، وجاءت ساندرا تضيف تعريفاً آخر.

- هل قال لكن إنه يكتب رسالته عن ألف ليلة وليلـــة. وهو لا يكتبها عن سندباد والبساط السحرى، وإنما عن العنف والجنس فى هذه الأسطورة.

ضحكن وهن يتبادلن النظرات. قلت متحرجاً:

- يكفى هذا، فلا تفزعيهن أكثر من ذلك.

قالت إحداهن، واسمها مادلين، ولها وجه يضىء مثـــل جمر المواقد:

- صار شائعاً كثيراً استخدام هذه الرؤية العصرية فى تفسير الأساطير والنصوص القديمة.

واصلت ساندرا لعبة الغواية والاستدراج.

- وهو الذى مثل أمامى دور عطيل.

- كان مشهداً صغيراً لم يدم سوى دقائق.

- ولكنه كان مشهداً ينضح عنفاً وجنساً. وأثنت عليـــه صحيفة الجامعة بأكثر مما أثنت على تمثيلى.

أردت تغيير الموضوع فسألت مادلين عن تخصصها. وعندما قالت إنها مسجلة بكلية الاقتصاد، قلت مجاملاً وأنا أناولها طبق الجاتوه:

- هذا تخصص لا تقبل على دراسته إلا العقول الكبيرة، وإلا من يستطيع أن يستوعب هذا الصراع بين أفكار آدم سميث وكارل ماركس، الذى أقحم العلم فى دوامة، تمضى القرون ولا تنتهى الدوامة.

وتدخلت ساندرا عندما شاهدت اهتمامى بالفتاة:

- إذا كان لها عقل كبير، فإن لها جمالاً يستحق قصائد الشعر، أليس كذلك؟

عندما وضعت وجهها فى وجهى، وهمست تسألنى، لحظة انشغال البنات بطبق الجاتوه، إن كانت فتاة الاقتصاد هى التى تعجبنى، أدركت أن حديثها لم يكن دعابة، وأن ساندرا تلعب لعبة لا أريد أن أكون طرفاً فيها. لابد أن البراءة البادية على وجوه الصبايا الريفيات، استفزت روحها التى تستهتر بهذا النوع من البراءة وتعتبره سذاجة وضعفاً، وأرادت أن تقحمهن منذ الآن فى العالم الحقيقى، عالم القوة والتلوث. أثار سلوكها قلقى، فاستأذنت عائداً إلى المكتبة،

منسحباً من هذه اللعبة، تاركاً على مضض هــذه الصــحبة الجميلة.

كانت أغنية مرحة تلك التى سمعتها قادمة من غرفتى وأنا أعود إليها ليلاً. فتحت الباب فوجدت أن ساندرا جــاءت معها بالصبايا إلى الغرفة. أحضرت لهــن فطــائر الســمك، وفتحت زجاجة النبيذ، وأدارت جهاز التسجيل على آخــره، تستمع معهن إلى أغنية » ليس هناك من الحــب مــا يكفــى الجميع«.

– دعوتهن إلى حفلة صغيرة هذه الليلة لأبرهن لهن أن ادنبره لا تكره بنات الأراضى العاليــة، ولا تعتبــر أهلهــا أجلافاً، كما يقول المغرضون.

وأمالت رأسها، تخاطبنى بلهجة هامسة، متآمرة:

– وبعكس ما تقول الأغنية، فإن هناك هذه الليلة فائضاً من الحب يكفى الجميع.

لعلها حقاً أرادت تقديم خدمة لى. لم تجد منى اعتراضاً وهى تلتقط عشاقها من الطريق، فأرادت مكافأتى. وجــاءت تستخدم خبرتها فى التقاط الرجال، وتطبقها هذه المرة، على فتاة صغيرة، تكون قوتاً جنسياً لى. أحسست بالإثم وهى ترانى

مكتفياً بها عن بقية النساء، ورأت فى ذلك شيئاً يخل بتوازن العلاقة التى بيننا. فاختارت هذه الصبية، تعدل بها كفة الميزان. ولكن هذا ليس كل شيء. إننى أستطيع أن أحس بأن دوافعها ليست كلها بريئة. وان هناك شراً مضمراً يجب أن أنتبه إليه. إنها وهى تعامل البنات بهذا الأسلوب، تريد أن تثبت لى، ولنفسها أولاً، أن سلوكها وهى تلتقط عاشقاً من الحانة، لا يختلف عن سلوك أية فتاة أخرى عندما تواتيها الظروف، مهما بدا عليها من براءة وعذوبة. وهى تتيح الآن الفرصة لهؤلاء الفتيات كى يظهرن تلك الرغبة، التى تغطيها قشرة رقيقة من اللحاء الحضارى، سرعان ما تتمزق بفعل ضربات الخمر. وما أنا فى هذه اللعبة إلا فأر التجربة. ولكنها ستجدنى فأراً صعباً. سأرفض أن أضع فى فمى قطعة الجبن مهما كانت شهية، مسيلة للعاب، مثل هذه الصبية.

تحررت من سترتى وحذائى، واتكأت على وسادة فوق البساط أتناول طبق السمك، فى حين أدارت ساندرا لحناً راقصاً ودعت الفتيات إلى الرقص معها. على حياء وخجل بدأن الرقص، ثم اختفى الحياء تحت دقات الطبول وتواتر الموسيقى الزاعقة. تحول الرقص إلى حلقة تشبه حلقات

المجاذيب والدراويش، التى يطردون بها الجن والعفاريــب. شعور تتطاير فى الهواء. أجساد تتلوى وتتثنى كأنها أعراف شجرة تضربها أكثر العواصف شــدة وهــولاً. وبنطلونـــات تلتصق باللحم البشرى وترسم انحناءات ودوائر أكثر إثـــارة وجنساً من عرى الجسد. لا شك أننى أخطأت عندما كنت لا أرى إلا ذلك المظهر الوادع البسيط. كأننى نسيت أن أمثالهن من الفتيات القرويات لسن بعيدات عن هستيريا ليالى الســبت وصراعات الجيرك، وثقافة الجنس التى تتسلل الى بيــوتهن مع الضوء والهواء. صار رقصهن الآن اتصالاً بقوى خفية، تسكن الجسد وتجعله يكتسب طبيعة جديدة، مرنـــة وحـــرة. يخفق كالأشرعة، ويتطاير كشرارات اللهب التـــى تلســعنى وتحرق صدرى. ها هى ساندرا تـــنجح فـــى إقنـــاعى بـــأن الجوهر يختلف عن المظهر، وإن ما ظننته براءة تنتمى إلى السحب المعلقة فى السماء، يكشف الآن عن مهرجان يحتفــل بأكثر الغرائز التصاقاً بالأرض. كانت مادلين هى التى جذبت انتباهى. لم تكن أكثرهن جمالاً. ولكن شيئاً عذباً فى وجههــا الذى يبدو كحقل من الضوء، هو الذى شدنى إليها. ولعل هذا

النقاء فى ملامحها، هو الذى جعلنى أشفق عليها من مؤامرة ساندرا، وأمتنع عن الانسياق فى لعبة التغرير بها.

لاحظت منذ أن وصلت أن ساندرا تدفع لها بكميات من الشراب أكثر من غيرها، وعندما رأتنى أعلق بصرى بهـــا، جاءت تغمزنى وتسألنى أن أقوم وأراقصها. بقيت جالســـاً لا أستجيب لدعوتها، احتسى كأسى وأرقب البنات الراقصـــات وهن يصارعن الهواء، وكأن أحداً أوقد ناراً ورمى بهن وسط الأحطاب المشتعلة. انتهت الموسيقى فجاءت تحرض البنـــات ضدى.

– ليس عدلاً أن نرقص نحن وتبقى أنت جالساً تتفرج. يجب أن تفعل شيئاً. دعنا نراك فى مشهد عطيل وهو يخاطب النجوم.

وتحت إلحاحها قمت وقدمت المشهد بطريقة تهريجيـــة أضحكت البنات. أدارت ساندرا لحناً بطيئاً، وجـــاءت وأنـــا مازلت واقفاً، تأخذ يدى وتضعها فى يد مادلين لكى أراقصها. سمعتها تدعو الفتاتين للمبيت معها وتخبرهما بأن لديها غرفة أخرى تتسع لنومهما. أدركت أنها انتهت من إعداد المشـــهد لمسرحيتها الصغيرة، واضعة لكل شىء حسابه. إننى ســـعيد

باحتواء هذا الجسد الذى يشاركنى الرقص الآن، نابضاً، خافقاً، يضيء بسطوعه قلبى. ولا شك إننى سأندم ذات مساء، لا أجد فيه أحداً بجوارى، على التفريط فى هذه المهرة التى لم تركب. سأكون شهماً هذه الليلة، وسأرفض هذه الغواية كما يرفضها الرهبان. سأستعين بكل أسلافى من أهل التقوى، لكى أتغلب على ضعفى وأمضى حاملاً لوعتى معى. قلت وأنا أتجه إلى الباب:

- يمكنكن المبيت جميعاً هنا. لأننى سأغيب ولن أعود إلا صباحاً.

وضعت سترتى فوق كتفى، وخرجت دون أن ألتفت ورائى. وقفت قليلاً أمام مدخل البناية أنظر إلى الشارع الفارغ وأفكر فى مكان أذهب إليه. كان تحدياً لا معنى له، وتفسيراً خاطئاً وتآمرياً لدعابة جميلة أرادت ساندرا، تسليتى بها. لست إلا بدوياً غشيماً ومعانداً يرفض مائدة هبطت من السماء. يجب أن أعود إلى ساندرا، معتذراً عن هذا السلوك، مرحباً بقبول هديتها الباذخة. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل. تذكرت حانة قريبة تسهر إلى ما بعد الساعة الثانية. ذهبت إليها، وجلست أتبادل الحديث مع الساقيات حتى انتهى

الوقت. وعدت لأجد أن ساندرا ذهبت إلى غرفتها بصحبة مادلين، وأبقت الفتاتين فى غرفتى.

عندما التقينا مساء، لم تكن ساندرا غاضبة. جاءتنى بحانة العناقيد ضاحكة، قائلة بلهجتها اللذيذة:

– كيف استطعت بكل عنفك وجنسك أن ترفض طبقاً شهياً مثل مادلين؟

– أنت أغرب امرأة رأيتها.

– وأنت أغبى رجل قابلته حتى الآن.

– إذا كان ما تقصدينه هو اختبارى، فها قد عرفت أننى لا أريد امرأة إلا أنت.

– أنك لا تستحق الخير.

– ولماذا لا تقولين إن ما أغضبك فيها هو براءتها؟ فأردت عقابها على ذلك.

– إن من تظنها صغيرة، بريئة، تخاف عليها من اللمس، أبدت براعة فى ممارسة الجنس، تعجز عنها النساء المحترفات.

لم أفهم ما تقوله. نقلت لها حيرتى وسألتها عما إذا كانت قد التقطت لها رجلاً من الشارع، لتراها تمارس الحب

معه. فأوضحت لى ببساطة، كيف مارست بنفسها الحب مع مادلين قائلة بأنها عندما رأتنى أرفض هذه الهبة التى أرسلتها آلهة الحظ والفرح، قررت فور خروجى أن تفعل شيئاً تتقى به غضب الآلهة. لقد تهيأت الفتاة لقضاء ليلة عشق، ومن الإثم أن تقضى ليلتها فى فراش بارد. ولذلك نذرت ساندرا نفسها، لإمتاعها، والدخول معها فى مغامرة، كانت دائما تتحرق شوقاً لمعرفة أسرارها. هيأت للفتاتين فراشاً فى غرفتى، وأخذت مادلين إلى غرفتها. ساعدتها على تنحية ملابسها وأدخلتها كى تنام فى سريرها، واندست فى ذات السرير معها. ثم أخذت تغمر وجه الفتاة بالقبلات السريعة الحارة، وتخلع الغلالة التى تغطى صدرها. كانت مفاجأة، أفزعت الفتاة التى رفضت الاستجابة لما تريده ساندرا. وصارت تدفعها عنها وتهرب منها ملتصقة بالحائط. إلا أن ساندرا التى كانت قد تلبستها الفكرة، صممت على أن تذهب باللعبة الى آخرها. حاولت تزيين الأمر للفتاة قائلة لها بأن ما يفعلانه ليس إلا تسلية عابرة، وتمرين على فعل الحب تقوم به كل البنات اللاتى فى سنها. وعادت تطوقها بذراعيها وتحاول إيقاظ شهوتها بكل ما تتقنه من فنون الغواية

والمداعبة، إلى أن صارت الفتاة تستجيب لهـا، وتشـاركها لعبتها. أفاضت ساندرا فى شرح تفاصـيل هـذه المغـامرة الشاذة، وأكملت حديثها قائلة:

– لو رأيتها وهى تصارعنى بعد أن انتقلنا من السرير إلى الأرض، وتنشب أظافرها فى ظهـرى، وتصـرخ لـذة وشبقاً، لما أتيت على ذكر السذاجة البريئة، وأنت تتحدث عن مثيلاتها من النساء الصغيرات.

إذن فقد حققت ساندرا انتقامها. ظننـت غـافلاً أننـى أفسدت عليها لعبتها. فإذا بها تذهب باللعبة إلى مـدى أكثـر خطورة وفحشاً. وأسهبت فى الشرح لكى تغيظنى وتفهمنـى بأن خروجى المفاجئ ليلة البارحة لم يكن هزيمة لها، وإنمـا فرصة نادرة لتحقيق أكثر صبواتها نزقاً وجنوناً. ما أذهلنـى هو أنها تكلمت عن ذلك كله بلهجة خالية مـن أى إحسـاس بالخجل. صبرت على حديثها الملىء بالتفاصيل، ولكن هـذه التفاصيل أثارت اشمئزازى بأكثر مما أثاره تغريرها بفتاة قد تتحول منذ الآن إلى امرأة سحاقية. كانت العمليـة اغتصـاباً قبل أن تكون شذوذاً.

- لم أكن أعرف أنك داعرة إلى هذا الحد. لست فقط داعرة وسحاقية وإنما مريضة. تنقلين الوباء وتنشرين جراثيمه بين فتيات صغيرات. تغتصبيهن وتصنعين منهن داعرات وسحاقيات.

تنبهت إلى أن ما أقوله لا يجوز قوله فى مكان عام، ونظرت خلفى لأطمئن إلى أن أحداً لم يكن ينصت إلى حديثنا الفضائحى. أدهشنى أن ساندرا لم تغضب. أخذت رشفة سريعة من كأس النبيذ، وألقت برأسها إلى الخلف وإلى الأمام وهى تضحك، لأننى أبدو غراً وساذجاً لا أطيق الاستماع إلى لحظة عبث صغيرة لم تزاولها إلا على سبيل التجربة والفضول، بينما تزاولها بنات العالم الصغيرات كل يوم على سبيل العادة والإدمان.

- لا أدرى لماذا هذا العناد. أراهن أن بلاد الفضيلة التى جئت منها، لن تجد بها فتاة لم تمارس هذا الشىء قبل سن البلوغ.

لا أدرى حقاً لماذا أبدو غاضباً، كأننى لم أعاشر ساندرا ولم أعرف طبيعتها المتحررة من كل القيود، الهاربة من كل الرتاجات، المتمردة على كل التعاليم. لعل الذى أثار

حنقى هو أن ساندرا لم تختر أحداً آخر سوى هذه الفتاة التى يغمر وجهها سلام مضىء. والتى كنت أشتهيها وأتمناها، ثم حاربت هذه الرغبة فى نفسى، لأرى بعد ذلك أن ساندرا تبطل ما حسبته موقفاً شهماً، وتفوز بها دونى. أما أن تقوم ساندرا بإحدى مغامراتها الصغيرة، فهذا ما لا يفاجئنى. أعرف هذا السائل السحرى الذى يتدفق فى عروقها، نهماً للحياة وجنوناً بها. إن الرغبة التى نقفل عليها صدورنا، والأمنيات التى تراودنا عندما نسمع فى جوف الليل عزفاً بعيداً تأتى به الريح، والأحلام التى تزورنا عندما ننتشى بكؤوس الشراب فى ركن معتم الإضاءة، والتى تتحول إلى أبخرة تضيع عندما يباغتها ضوء النهار. كل ذلك يتحول عند ساندرا إلى سلوك وممارسة، ولا يزيدها ضوء الصباح إلا قدرة على الفعل والاداء. إنها لا تكبت نزوة، تجد سبيلاً إلى تحقيقها، سواء أرضى ذلك الناس أم أغضبهم، وهى لا تفعل ما تفعله بحثاً عن التقاليع، وإنما سجية وفطرة واستجابة لنداء ينبع من ذاتها ولا يأتى من خارجها. ساندرا لا تقود المظاهرات النسائية التى تحمل لافتات المساواة مع الرجل، ومع ذلك فهى تستطيع أن تذهب بقضية المساواة إلى حدودها

القصوى. وإذا كان الرجل يرى أن من حقه أن يلتقط امــرأة من الطريق يرضى بها شهوته، فهى أيضاً تستطيع أن تفعل بالرجال ما يفعلونه بالنساء، وتبادر بنفسها لالتقاط رجل هى التى تختاره، تحقق منه رغبتها وتتركه. وهــى لــم تعاشــر مادلين البارحة إلا لأنها ترفض أن تكبت رغبــة راودتهــا، وعلاقة مثيرة لا تريد أن تبقى جاهلة بأسرارها. سوف لــن تعود لممارسة هذه النوع من الحب، لأن ذلك يتنــاقض مــع شخصية امرأة مثلها، تعى أنوثتها وتحتفل بها. ليس ما تقــوم به ساندرا، شذوذاً يقتضى الغضب والاشمئزاز، إنها امرأة لا تخون ذاتها، ولا تخشى أن تحقن برحيق التجربة والمغامرة، دورة الدم فى عروقها. لا تنتمى لأحد إلا لنفسها، ولا تســير على هدى أضواء المصابيح العامة، وإنما على هدى الضوء الذى ينبع من قلبها.

إننى وأنا أنكر سلوكها، لا أنكره من قلبى، وإنما أنكره بأقنعتى التى حاك سداها، ونسج خيوطها، عنكبوت الزمــان. ولكن ساندرا طردت العنكبوت من فوق وجههــا، وســارت تستقبل الشمس والهواء، بوجه لا يعرف الأقنعة.

تحرشت بها كثيراً حتى أغضبتها. سألتنى أن أذهب إلى الجحيم، وتركتنى جالساً فى حانة العناقيد، وعادت إلى غرفتى، لنقل أغراضها وملابسها، بعد أن قررت طردى من أرضها وسمائها. استمر هذا الخصام ثلاثة أيام. وانتهى بليلة عامرة بالمودة والحنان، وكأننا عاشقان أضناهما فراق طال عدة أعوام. أدركت أنى غارق فى حب هذه الفتاة العابثة، التى تكره الارتباطات والالتزام بالنواميس، والتى أعرف أنها سوف تتركنى ذات يوم، ألعق جراحى، وتمضى تتسلق الأفق بصحبة رجل جديد. إننى عاجز عن الانعتاق من سحرها، ولن أجد فى يوم من الأيام الشجاعة على المبادرة بهجرها، ولذلك عدت إليها باسطاً كفى، أطلب الصفح والمغفرة، لأننى قمت فى أول يوم من أيام الخصام، بعمل صبيانى رغبة فى إيذاء مشاعرها، ندمت عليه كثيراً. لم أبق جالساً فى الحانة عندما رمتنى بشتائمها وخرجت. انطلقت بعدها، أسرع الخطى إلى شارع الأمير، ألتقط من فوق أرصفته، امرأة من بائعات المتعة. كانت امرأة أربعينية، ملأت وجهها بالأصباغ والمساحيق، لتخفى حقيقة عمرها. وكدست كميات هائلة من أحمر الشفاه، صنعت لها شفتين فوق شفتيها، وارتدت تنورة

من الجلد تلتصق بجسمها، لها شق طويل يكشف بياض فخذها. ووقفت بجوار إعلان كبير عن فيلم هندى، تنتظر زبائنها. لم أكن أملك وقتاً للانتقاء، أو انتظار امرأة أخرى أكثر جمال، وأقل تعبيراً عن مظهر المومس منها. كنت مستعجلاً أريد أن أدرك ساندرا قبل أن تغادر غرفتى، كى ترى هذه المرأة معى. ثم أن وجودها بهذا الشكل الفاقع يخدم أهدافى بأكثر مما يخدمها شكل أقل إثارة، فأنا أريد أن أقول لساندرا بأننى أختار عليها أكثر المومسات تلوثاً بالأصباغ، وأرضى بها بدلاً منها، وهروباً من قبح ما فعلت.

دخلت بها إلى غرفتى، فوجدت ساندرا واقفة قرب الموقد تشوى قطع اللحم وتهيئ لنا عشاءنا. انتهت لحظة الغضب، وبدلاً من جمع أغراضها والعودة إلى غرفتها. أعدت الصحون وسفرة الشراب وهيأت الغرفة لعرس المصالحة. جعلتنى المفارقة أبكماً، فوقفت ساهماً لا أجد ما أقول.

– ما هذا الشيء؟

– إنها امرأة.

لعلها كذلك. ولكن ما الذى تفعله هنا؟

قلت مرتبكاً بعض الكلمات التى لا معنى لها. تركت ساندرا الشواء وسفرة الطعام والشراب. صفقت الباب وراءها. ولم أسمع من شتائمها سوى :

- ابن الزانية.

سألت المرأة أن تأخذ حماماً، وأن تنزع عن وجهها الأصباغ وعن شفتيها أحمر الشفاه. بدت أكثر إنسانية وهى تعود إلى طبيعتها، وظهرت مسحة جمال باهت أبقت عليه الأيام والأرصفة. ومقارنة ببعض المومسات اللاتى عرفتهن، ووجدت فيهن رجولة لا تتفق مع طبيعة الأنثى، كانت هى أكثر أنوثة منهن. فقد ذهب فى ظنى أن المومس، امرأة أصيبت باضطراب فى الغدد التى تفرز الهرمونات، بحيث صارت هرمونات الرجولة فيها أكثر مما فى الأنثى الطبيعية، ولهذا فإن المومس كما رأيتها امرأة تكره أنوثتها لأنها جاءت أنوثة ناقصة، وتحقد على الرجال لأنها لا تستطيع أن تكون منهم. فاختارت هذه المهنة التى تذل بها أنوثتها وتستخدمها أيضاً فى إذلال الرجال. سوف لن أنخدع هذه الليلة، وأنا ألتقى فى غرفة مغلقة مع إحدى نساء المهنة، بما تقوله كتب الأدب. لأن تلك المومس التى صنعها الأدباء، وأضفوا عليها

أردية الفضيلة، وجعلوها ضحية الظلم الاجتماعى، مــومس نادرة فى دنيا الواقع. أنهن يجئن إلى هذه المهنة باختيارهن، مدفوعات بشىء آخر غير الرزق. مدفوعات بقوة الغريــزة وخطأ الطبيعة التى أفرزت فى أجسادهن الأنثوية من نســغ الذكورة ما لا يحتمله جسد المرأة، فتلون الطبع كمــا تلــون الصوت بخشونة الرجــال، ونمــا الشــعر فــوق الســاقين والذراعين، وبقيت آثار إزالته من فوق الوجه مساحة بيضاء بلون الشمع، لا تفلح الدهون والأصباغ فى إخفائهــا. كنــت أعرف أننى أبالغ فى أفكارى، وبحكم أننـــى أدرس الجــنس دراسة منهجية، أدرك أن هذه النظرية التى ابتكــرت حــول الدعارة، تحتاج إلى اختبارات حقلية كثيرة لإثباتها، لقد جاءت هذه المرأة لتشهد العلاقة التى تتقوض بينى وبــين ســاندرا، فلماذا لا أنتشل من بين الأنقاض شيئاً أستفيد به فى تأســيس نظريتى، ويقدم لى تبريراً أكثر وجاهة لابقائها معــى هــذه الليلة. اعتبرتها عينة صالحة لإجراء اختبار سريع، وفاجأتها بسؤال عما دفع بها إلى هذه المهنة. وعنــدما قالــت بأنــه الرزق، كنت مستعداً لنقض هذه الإجابة الباطلــة مــا أكثــر الموارد المتاحة للرزق، التى تستطيع امرأة تقطن هذه البلاد

أن تجدها خارج مهنة الدعارة. وسردت أمامها لائحة طويلة بكل المهن التى يمكن لامرأة لا تحمل مؤهلاً أن تزاولها، من عاملة بمصانع النسيج إلى ساقية بإحدى الحانات. فكيــف لا تستطيع أن تجد مهنة شريفة لو أرادت؟

لماذا أعذب هذه المرأة التى رمى بها سوء طالعها فى طريقى. إن واجبها حسب النظرية التى أسعى لتأسيســها، أن تتولى هى تعذيبى. أجابت باقتضاب أن هذه المهن جميعهــا تجلب لها الضجر.

واصلت استجوابها وكأننى محقق جنائى عثر فى أقوال المتهمة، على دليل إدانتها:

– ليس الدافع هو الرزق إذن؟

لم يكن ما قالته رداً على هذه الجملــة الاســتنكارية، اعترافاً جاء نتيجة الانهيار، فهى فيما يبدو فخورة بمهنتهــا، ولا ترى فيها تهمة يجب إنكارها.

– من قال أن المهن الأخرى أكثر شرفاً من هذه المهنة ؟.

إننى لا أكذب ولا أسرق ولا أغش أحداً، وما أقوم بــه ليس إلا عملاً يجلب رزقاً كأى عمل آخر. اخترته لأننى أحبه

أكثر من غيره، ولأن كل خطوة أخطوها مع زبائن الليل، إنما هى بداية تجربة جديدة. إنسان جديد، ومغامرة جديدة. ولذلك فأننى لم أستطع أن أتآلف مع أية حياة أخرى. حتى عندما سافرت إلى بلاك بول، ذات الملاهى الكثيرة، بصحبة بحار تزوجنى وملأ بيتى بأفخر أنواع السمك، فإننى سرعان ما هربت من قفصى وعدت إلى فضاء وهواء شارع الأمير.

أسعدنى أنها لم تقتبس من الفيلم الهندى الذى كانت تقف تحت إعلاناته، قصة تمتلئ بالكوارث والأطفال المرضى والأزواج الذين قتلتهم الحوادث، ابتزازاً للعواطف وطمعاً فى مزيد من النقود. تكلمت عن مهنتها باحترام وحب، وقدمت لى ما يثبت صحة نظريتى وينقض أطروحات الأدب الذى تأسس على مبدأ المومس الضحية. ومكافأة لها أطعمتها من طعامى، وسقيتها من شرابى، ودخلت بها راضياً إلى فراشى. مر زمن طويل لم أعاشر امرأة من نساء مهنتها. وسأسعى أن أستحضر بالنوم معها ذكريات دهشتى الأولى عندما اكتشفت الجنس مع امرأة عامة مثلها، بأمل أن يقرب ذلك، المسافة بينى وبينها، ويجعل مهمتى معها أكثر يسراً. كانت طرابلس فى ذلك الوقت الذى وصلت فيه سن

البلوغ، تملك شارعاً تخصصه لبيوت الدعارة العلنية. أو كما كنا نسميها، »بيوت الدعارة الحكومية«، لأن الحكومة هـي التي كانت تتولى الإشراف عليها. وكما يحـدث مـع الأولاد الذين في سني، فإن هناك دائماً صبياً اكتشف هـذه العـوالم قبلنا، وجاء مبهوراً يحدثنا عنها. تسري الدماء حـارة فـي عروقنا، وتستيقظ تلك الرغبة الحارقة في أجسادنا، فننسـى أحاديث الفقهاء، وخطباء المساجد وكتب الأخلاق الحميـدة، وندس رؤوسنا، بعضها في بعض، ننسج خيـوط المـؤامرة الصغيرة التي ستقودنا إلى ذلك المكان. تدبرت ثلاثين قرشاً، كانت هي تسعيرة الدخول، وانتظرت وأنا أحمل فـي قلبـي لهفة الوثوب فوق المرأة العارية، اليوم الموعود الذي حددناه للزيارة، وذهبت مع اثنين من صحابي، نجلس في سقيفة أحد هذه البيوت ننتظر دورنا. لم أكن أظن، أو أحلم، أن هناك في الدنيا عالماً يشبه هذا العالم. رأيت نساء البيت عاريـات إلا من الغلالة الشفافة المعلقة بالحلمتين والهابطة إلـى مسـتوى الفخذين، لا تغطي الجسم وإنما تزيده عرياً، وهـن يـذهبن ويجئن. يداعبن بتعليق فاحش أحد الزبائن، أو يتبادلن الحديث مع المرأة العجوز التي جلست فوق كرسيها العالي في نهاية

السقيفة تدير العمليات وكأنها إحدى إلهات المتعة فوق جبل الأولمب. كان الكلام كله يدور حول الجنس الذى يسمى هناك بأكثر أسمائه صراحة، مليئاً بذكر الأعضاء التناسلية التى لها أيضا أسماء لا تذكرها الكتب. رأيت قبل أن أدخل البيت، امرأة تخرج إلى الشارع من بيت مجاور، تطارد رجلاً وتشتمه. استمعت إلى قاموس شتائمها فاستغربت كيف تستطيع امرأة جاهلة من نساء هذه المهنة، أن تصنع بكلماتها البذيئة المتدنية، قصيدة هجاء لن يستطيع إلا شاعر ملك قوة الخيال، أن يصنع صوراً ويبنى عالماً مثلها. كانت تشتم الرجل وتعيره بضآلة أداته الجنسية التى تشبه نملة صغيرة حمراء ميتة، وتأتى فى شتائمها على عضو الرجل الذى قذف بجرثومته، والرحم الذى حمله وأخرجه إلى الدنيا، وأعضاء المرأة التى ترضى بالزواج منه دون أن تخونه مع أول كائن يحمل عضو الذكورة حتى لو لم يكن رجلاً. كان الصيف قائظاً، وكانت رائحة اللحم البشرى الذى ينز عرقاً تملأ المكان. جلست المرأة العجوز تحمل مروحة ملونة، مصنوعة من سعف النخيل، تطرد بها الحر والذباب، وتستحث صبياً فى مكان ما من البيت أن يأتى بطاسة الشاى. وفى وسط

السقيفة وقف رجل بهيئة مزرية، وشعر ذقــن لــم يعــرف الحلاقة، تفوح منه رائحة الخمر والعرق، يغنى أغنية فاحشة عن رجل عجوز يتذكر صبواته، وغزواته النسائية، ويناجى أحليله الذى صار هامداً لا حياة فيه. فتضحك المرأة العجوز بفم يمتلئ بأسنان ذهبية، وتسأله أن يعيد مقاطع الغناء. كنــت أدور بعينى فى كل اتجاه حولى، وأنا أمتلــئ اندهاشــاً لأن المدينة التى أحيا بها، وأعرف شوارعها شــارعاً، شــارعاً، تضم مكاناً مثل هذا المكان. أدارت لــه الشــوارع الكبيــرة ظهرها، فاختبأ خلفها دون أن أستطيع الاهتداء إليه. هذا إذن هو ماخور المدينة، الــذى صــنع منهــا أصــحاب الــرأى والمشورة، سلة مهملات يقذف فيها الرجال، الفــائض مــن أوساخ غريزتهم. جلست أرقب هؤلاء الرجال الذين ينتظرون دورهم، فى لهفة وجوع إلى لحظة الجنس، والآخرين الــذين أنهوا مهمتهم وخرجوا وقد اختفــت اللهفــة مــن عيــونهم ووجوههم. حــل مكانهــا تعبيــر يحمــل معــانى القــرف والاشمئزاز، ما أن يصل الواحد منهم عتبة الباب حتى يرمى فوق الأرض بما تجمع فى فمه من بصاق.

دخل رفيقاى وجاء دورى، فأشارت المدام بمروحة السعف إلى الغرفة التى يجب أن أدخل إليها. وجدت نفسى متردداً، متهيباً، واقفاً لا أتحرك، والمرأة تنظر نحوى بضجر ونفاد صبر. لا شك أنها شاهدت صبيان كثيرين قبلى يداهمهم مثل هذا الرعب.

- ما بك يا روح عينى، ألا تبغى أن. ..؟

وقالت تلك الكلمة المهولة التى لم أسمع طفلاً يرددها إلا تشتت أهل البيت خجلاً وذعراً، وجاء أحدهم يوسعه ضرباً ويسأله ألا يعود إلى قولها مرة أخرى. بقيت أتلفت باحثاً عن شيء ينجينى من حصارها. وجدت أن هناك رجلاً جاء قبلى، فقفزت على هذا العذر وأشرت إلى الرجل قائلاً:

- جاء قبلى.

سألتنى أن أدخل فهو ينتظر امرأة أخرى. ولا أدرى كيف واتتنى الشجاعة لأقول بأننى أنتظرها أنا أيضاً. كنت أبحث عن أية ذريعة تتيح لى تأجيل لحظة المواجهة. لابد أن تكون هذه المرأة التى وجدت رجلاً يعتنى بانتظارها، ولا يرضى بمعاشرة امرأة غيرها، أكثر نساء البيت جمالاً. نظر الرجل بغيظ نحوى وكأننى جئت أغتصب زوجته. أدرت

وجهى عنه، وجاء دوره سريعاً، فراقبت الغرفة التى يدخلها، وما أن أنهى مهمته حتى قفزت من مكانى وذهبت إليها. كان بالغرفة دولاب له مرآة كبيرة، وسرير مزدوج تغطيه ملاءة حمراء، وفى إحدى زوايا الغرفة جلست المرأة فوق حوض مثبت بالأرض، تغسل آثار الرجل الذى انتهى للتو من زيارتها. وبرغم أنها كانت أكثر جمالاً وأصغر عمراً من بقية النساء اللاتى رأيتهن فى السقيفة، إلا أن مشهدها وهى تجلس فاتحة ساقيها فوق الحوض، كان يتناقض تناقضاً فاجعاً مع تلك الصورة التى رسمتها فى خيالى لهذه الزيارة. أطلقت السلام فلم أسمع رداً. جففت المرأة أطرافها ومدت يدها تأخذ النقود. ارتمت فوق السرير والعلكة ما تزال فى فمها. فتحت ساقيها تنتظرنى وتستحثنى أن أنتهى من نزع ملابسى. إنها المرة الأولى التى أرى فيها جسداً أنثوياً عارياً إلا من الغلالة التى ارتفعت فوق السرة ولم تعد تغطى إلا جزءاً من الصدر، ملقى أمامى فوق الفراش الأحمر ينتظر فحولتى، نظرت متهيباً، إلى الجسد العارى، ووضعت بصرى فوق ذلك الموضع الذى جعلوه موئلاً للعفة والشرف، والذى ألهم البشرية تراثاً من الأساطير والقصص والأغانى. ها هو الآن

أمامى، مغسولاً بالماء من أجلى، جاهزاً ومباحاً. رأيت هـذا الجسد كثيراً فى أحلامى، وتقلبت محترقاً بجمر الشهوة فوق سريرى، أمنى النفس باحتوائه. ورأيت أيضاً هـذه المنطقـة الظليلة التى تشبه دغلاً يختبئ بين الرمال، وتشوقت كثيـراً لاقتحامها. فما الذى يجعلنى الآن خائفـاً، متـردداً. أنـزع ملابسى ببطء كى أتيح لنفسى وقتاً أطول، وأنظر إلى ذلـك المكان المشتهى، لأستمد منه العزم والقوة، فلا يزيدنى منظره الموحش، وشعره الأسود، الطالع بعد حلاقة ليسـت بعيـدة المدى، إلا بروداً وارتجافاً. انتهى سريعاً طقس خلع الملابس، وحانت اللحظة التى سأختبر فيها رجـولتى. نظـرت إلـى صورتى عارياً فى المرآة. كان العرق يغسل جسدى، وتعبير بائس يغطى ملامح وجهى. نفخت متأففاً من شدة الحر، ولكن قشعريرة لا تصنعها إلا أقسى ليالى الشتاء بـرداً، تـداهمنى وتملأ قلبى ثلجاً، وتجعل أطرافى تنكمش وتتداخل بمـا فـى ذلك السلاح الذى يجب أن أخوض به هذه المعركـة. كنـت مملوءاً بالحرج والخجل، نادماً على دخول هذه الغرفـة، لا أرغب فى شىء سوى الهروب. ولكن الباب موصد ورائى، والجسد الأنثوى ملقى فوق الملاءة الحمراء أمامى، ولم يعـد

بإمكانى أن أبقى واقفاً أكثر من ذلك، لأن رجالاً آخرين ينتظرون دورهم. ارتميت فوق السرير بجوارها، لعل الاتصال بها يبعث شيئاً من الحرارة فى أوصالى. حاولت أن أقبلها، فمنعتنى من الوصول إلى فمها، أو الاقتراب بأصابعى من نهديها، فهى لا تبيع من جسدها إلا مربعاً صغيراً يجب أن أهتدى إلى وسيلة للتعامل معه. أغمضت عينى واسترجعت صورة المرأة الأخرى التى رأيتها مرسومة فوق أغلفة المجلات وصنعت منها خليلة أعاشرها آخر الليل. نجحت الحيلة، وسخنت فى عروقى الدماء الباردة، فدخلت بسرعة بين فخذيها، وأكملت المهمة فى دقيقة واحدة.

صرت بعد ذلك أعود إلى المرأة، كلما ادخرت ما يكفى من القروش لزيارتها، حتى نشأت ألفة بينى وبينها، وصارت تسألنى أن أهرب من أهلى لكى أتزوجها. فهى لديها من المال ما يكفى لإعالتى حتى أكمل تعليمى. وكنت أستجيب لدعوتها كاذباً، وأسألها أن تمهلنى حتى أجد الفرصة المناسبة للهروب. فتحيطنى برعايتها، وتمنحنى فمها أقبله، وتنزع الغلالة لأرى نهديها، وتبقينى لديها فترة أطول مما تبقى الآخرين.

وقبل أن ينتهى عام واحد من علاقتى بها، أصدرت الحكومة قراراً بإلغاء البغاء. طردوا النساء وأقفلوا البيوت وجئت ذات نهار لأزورها، فوجدت البيت مغلقاً، والشارع خاليا. اختفت طوابير زبائن المتعة، وانطفأت الأعراس التى تقيمها نساء الغلالات الحريرية. حزنت لفراقها، ولم أعرف سبيلاً أقصده للبحث عنها، أو عن امرأة أخرى تحل مكانها فى حياتى. أدركت رعب الفراغ الذى سيطاردنى لأعوام كثيرة قادمة. وأرسلت إلى الصحيفة الرسمية، رسالة ألعن فيها الحكومة، لأنها أقفلت البيوت العامة، نفاقاً، وانتصاراً للدعارة النفسية. وإن القرار بقفل بيوت الدعارة الحكومية، ألغى البيوت، وأبقى »الدعارة الحكومية« التى يمارسها رجال، يغلقون هذه البيوت، ويفتحون لعشيقاتهم بيوتاً سرية.

عاودنى، وأنا ألتقى بهذه المرأة، ذلك الذعر القديم الذى داهمنى لحظة أن دخلت بيت الدعارة لأول مرة. لم أستطع بكل خبرة العشرين عاماً التى تفصل بين اللحظتين، أن أفلح فى تحقيق اتصال جنسى معها. استعنت عليها بالشراب، ودعوتها لأن تقاسمنى زجاجة ثانية من النبيذ. فلا يزيدنى الشراب إلا فتوراً وعجزاً. لو كنت مقيماً ببلاد شرقية لقلت

أن ساندرا جلبت لى سحراً يمنعنى مــن الاتصـــال بـــامرأة غيرها. ولكن ساندرا لا تعرف الطريق إلى كتاب الأحجبـــة ومصاحبى ملوك الجان. فمن أين جاءتنى هذه العنة؟ والمرأة تستعين بكل فنون الحب التى تتقنها لكى تعيد الحياة إلى قطعة اللحم الميتة، دون جدوى. ويائساً استسـلمت للنــوم. وفـــى الصباح أخذت المرأة أجرتها، وارتدت أصباغها، وعادت إلى أرصفة شارع الأمير.

وعندما تصالحنا قلت لساندرا:

- سألتنى المرأة عنك، فقلت لها أنك شقيقتى.

- يجب أن أعاملك منذ اليوم على هذا الأساس.

- لا شك أنها ما تزال مشغولة بحل هذا اللغز الــذى يجعل امرأة حمراء كأزهار النار، شقيقة رجل أسمر كصخر الجبال البركانية.

- ربما لأن الاثنين ينتميان إلى النار.

- كنت أحمق عندما حاولت الإساءة إليك.

- لم أغضب إلا لأننى رأيتك تهين نفســك وتســىء إليها.

اعتبرت أن كلامها شاهد، على أنه بقدر ما تستفزها البراءة الغشيمة. فإنه أيضاً يستفزها هذا الابتذال الذى يقيم للحب أسواقاً ورقيقاً. فما ساندرا إلا امرأة الإرادة الحرة، ومهرة الجبال العالية، التى تركض عبر الطرقات الوعرة، تشرب من ينابيع الماء والضوء.

بدأت حانة العناقيد تشهد عودة الزملاء الذين غابوا أثناء إجازة الصيف. عرفت، عندما ذهبت إلى هناك، أن عدنان جاء إلى الحانة يسأل عنى. تذكرت أننى خلال عطلة الصيف لم أتحدث بالعربية مع أحد إلا ما أتبادله من كلمات قليلة مع صاحب المطعم المصرى. إننى أشتاق إلى الاستلقاء فى حدائق اللغة التى نسميها »الأم«، تعبيراً عن عمق الوشائج التى تربطنا بها. انتظرت مجىء يوم الأحد، وذهبت مع المساء إلى شقته، المحاذية لحديقة الحيوانات. لم يكن بالبيت مصعد، فتسلقت الدرج حتى وصلت لاهثاً إلى الطابق الرابع. استقبلنى عدنان على عتبة الباب بطريقته الاحتفالية معانقاً ومعاتباً لأنه منذ عودته وهو يسأل عنى، ويتصل هاتفياً بالبيت الذى كنت أسكنه، فيجد أناساً أغراباً لا يعرفوننى. قلت له وأنا لا زلت أستلقط أنفاسى، انه يأبى

بشخصيته الهجومية. إلا أن يبدأ بالعتاب، مستغلاً "عدم قدرتى على النطق بعد صعود هذه السلالم. ناسيا أنه هو الذى اختفى اختفاء غامضاً يثير الشبهات. دخلت فوجدت المرأة الهندية ترتدى جلباباً منزلياً وتجلس فى الصالون تشرب القهوة. أدركت أن فرصة حديث باللغة العربية أعيد به الاستقامة للسانى الذى أعيته الرطانة، قد ضاع مع وجود هذه المرأة. كنت أتساءل وأنا أراهما يخرجان معاً، إذا ما كانت هناك علاقة حب بينهما، وأرى أنهما ولسبب غامض لا أدريه، يليقان ببعضهما. لعل هذا التشابه الخفيف فى ملامح وجهيهما هو الذى أوحى لى بهذا الانطباع. لكن ما حسبته علاقة بين أنار ودونالد هو الذى ضللنى وجعلنى لا أدرك عمق علاقتها بعدنان. إذ لا أرى موجباً لوجودها بهذا الجلباب، فى بيته الذى لا يحتوى سوى غرفة نوم واحدة، إلا إذا كان ما بينهما ذا طابع خاص وحميمى. انشغلت أنار بالتطلع إلى فنجان قهوتها، فوثبت على الفرصة لأحادث عدنان باللغة العربية وأسأله عن سر اختفائه المفاجئ من هذه المدينة التى صارت وطناً بالنسبة له، بعد أن جاهر باختلافه مع النظام فى بلاده، وضحى بالمنحة التى كان يتقاضاها،

ليلتقط رزقه بترجمة النشرات الطبية، وما عاد بإمكانه أن يعود إلى هناك الآن.

- كنت أحتاج إلى بعض المصادر عن تأثير الفلسفة العربية فى بعض فلاسفة الغرب، فذهبت أبحث عنها فى مكتبات لبنان.

- وهل ضاقت الدنيا بالمصادر حتى تبحث عنها تحت قذائف الحرب.

- هذا ما قلته للجامعة التى منحتنى رسالة تساعد فى تسهيل مهمتى. أما ما أقوله لك، فيجب أن يبقى فى هذا المكان. لم أذهب باحثاً عن مراجعى فى مكتبة الجامعة الأمريكية هناك، وإنما ذهبت إلى معسكرات الفدائيين فى الجنوب.

كان جنوب لبنان فى هذا الوقت يغذى الإذاعات بأخبار المعارك التى تشتعل فوق أرضه. كنت أعرف انه انتمى فى سنوات مضت إلى إحدى المنظمات الفدائية اليسارية، وحارب معها لأكثر من عامين، ثم ترك العمل الفدائى بعد أن خرجت المقاومة من الأردن، وجاء لإكمال دراسته العليا.

- لم أذهب هذه المرة محارباً، وإنما محاضـــراً فـــى معسكرات الإعداد العقائدى.

لم يشأ أن يتحدث عن تفاصيل الأشهر الثلاثـــة التـــى قضاها بين الفدائيين. واكتفى بالكلام عن الشـــىء الـــذى رآه يولد وسط النار والرماد ومآتم الشهداء. والذى لا يستطيع أن يدرك مدى قوته إلا من عايشه معايشة يومية.

- لم أعد أرى النصر احتمالاً، وإنما حتمية تاريخيـــة يصنعها رجال ونساء عشت معهم ورأيتهم وهـــم يتزنـــرون بالنار ويؤسسون أسلوباً جديداً لإدارة الصـــراع. يقتحمـــون بأجسادهم المشتعلة الأفق المغلق، ويكتبون بدم الشهادة واقعاً جديداً يسطع بفجر الوعد والبشارة.

تحدث بتدفق وانفعال، مستخدماً هذه اللهجة الحماســية التى أعادت لملامحه الومض والاشتعال، قائلاً أنه ذهب إلى هناك محبطاً حزيناً، يحاول أن يقاوم عوامل الانهيـــار فـــى نفسه، وعاد مشحوناً بالأمل بعد أن اهتـــدى إلـــى مراجعـــه الحقيقية هناك. رأى المرأة تنصت بصمت إلى كلماته التى لا تفهمها، فترك لغة المعارك، وتحول إلى الإنجليزية يســألنى عن أخبارى التى أوجزتها له فى جمل قليلة، وأدرت وجهـــى

أسأل أنار عما رأته فى الفنجان. ردت بأنها لم تر شيئاً لأنها لا تستطيع قراءته. كانت فقط تتأمل كيف يقدر بعض النـــاس على تفسير هذه الرموز واكتشاف هذه العوالم التى تختفى فى فنجان القهوة. قلت لها بأن قراءة البخت ليست إلا عملاً مـــن أعمال الخيال. ولن يكون غريباً أن تتوافق وقائع حياتنا مـــع ما يقوله صاحب الخيال من نبوءات، لأننا ننسى أن الخيـــال قوة، وقدرة على النفاذ إلى قلب الأشياء. وقلت لها أيضاً أننى أستطيع الآن بهذه القوة أن أخترع لها وقائع اســـتوحيها مـــن بقايا قهوتها ستكون مطابقة لوقائع حياتها التى أجهلها. كانت مجرد حيلة لأن أجعلها تتكلم قليلاً عن نفسها. أخـــذت منهـــا الفنجان واخترعت لها مهراجـــاً عظيمـــاً يملـــك المـــزارع والعقارات وجعلته جدها لأمنحها عراقة النسب. ثم صـــنعت لها كوارث أضاعت الثروة وقضت علـــى الأب. وجعلتهـــا تهرب من همومها إلى هذه ا لمدينة لتلتقى برجل به أوصاف عدنان، يكون مصدر سعادة تبدد أحزانها، وتفـــتح صـــفحة مشرقة فى حياتها. شهدت لى أنار بأننى من عظمـــاء قـــراء الفناجين، برغم أن جدها لم يكن مهراجاً، ووالدها مازال حياً، ويستعد بعد أن أخذ تقاعده من وظيفته الحكومية، للهجرة إلى

لندن، للالتحاق بأخيها الذى يملك دكان بقالة هناك. عرفت منها أنهما فعلاً اتفقا على الزواج، وإنهما يعيشان معاً بانتظار استكمال الأوراق الرسمية لإتمام مراسيمه. فرحت لهما فرحة صادقة، وتمنيت لهما السعادة فى الحب والزواج، وخرجت من بيتهما أفكر فى المواقف والرجال.

كان الهواء منعشاً، ومفعماً برائحة أزهار الحديقة القريبة وأشجارها. أحببت العتمة التى تمزقها أحياناً أضواء السيارات المارقة، والإنصات إلى هسهسة الأوراق التى تتكسر تحت خطاى. فأردت أن أستمتع بوحدتى، وأن أعود إلى بيتى مشياً على الأقدام.

بعيدة هى المسافة بينى وبين عدنان. بعيدة هى المسافة بين روحى وروحه. من أين يأتى أمثاله من الرجال بهذه الطاقة الهائلة التى تحيل الأقوال إلى أفعال، وتجعلهم يقتحمون حقول النار ويسافرون باختيارهم إلى أرض المعارك والمواجهات الساخنة. يجاهرون بعدائهم لأكثر أنواع الحكام شراسة وعنفاً، ويحملون فوق صدورهم شاراتهم المتعددة الألوان، ويطوفون بها بين الناس، يؤسسون رأياً عاماً للقضايا التى يؤمنون بها، ويجدون بعد ذلك وقتاً

للدراسة، ووقتاً لالتقاط الرزق وآخر لعلاقات حب هادئة تنتهي بالزواج. أراد عدنان أن أكون نافعاً مثله. رأى قلبي فارغاً، فأراد أن يحشوه بالوقود الذى ذهب يعبئ به فتيان الثورة فى لبنان. لكن قلوب أولئك التلاميذ قلوب خضراء، وقلبى متيبس أفسده دخان الحانات ودخان الأساطير. رآني مستقيلاً من القضايا العامة، زاهداً فى الدخول إلى ميادين الصراع، أرفع راياتى البيضاء وأعلن الحياد، فأهملنى كعرف شجرة مقطوع، تعبث به الرياح والأهواء. كانت كلماته حول أهمية أن يكون للإنسان هدف يمنح حياته معنى، ويجعل من وجوده إضافة للوجود الإنسانى، تسقط تحت قدمى، كما تسقط أوراق الشجر الميتة. أتدبرها فلا أجدها تخاطب شيئاً فى نفسى، ولا أرى فيها إلا فراغاً يكسى نفسه بالكلمات الكبيرة التى لا أعرف لها معنى. أتركه وأمضى إلى كأسى وامرأتى، وجوارى ألف ليلة وليلة وعشاقهن، وقد أدرت وجهى عن عالم عدنان الملىء باللافتات والشعارات، معتذراً له بأننى لم أخلق لهذه الأشياء، دون أن يفوز منى بجواب عن الأشياء التى خلقت لأكرس حياتى لها. يبقى السؤال الهارب، هارباً. وتبقى الذات التى تبحث عن سكن، تدور فى متاهة المرايا

المقعرة. كل إنسان يعبر فى النهاية عن تلك »الأنـــا« التـــى تريد أن تجد مكاناً فارغاً تؤسس فوقـــه وجودهـــا وتحقـــق انسجاماً ما بينها وبين عناصر الكون ومظاهره. كلنا نمضى فى الحياة مدفوعين برغبة أن نعرض ذواتنا وننتزع اعتراف الآخرين بنا. رغبة نحملها معنا منذ صرختنا الأولـــى علـــى سرير الولادة. حتى أكثر الناس انطواء، وانسحاباً من الحياة إنما يقول بهذا الموقف الاحتجـــاجى، شـــيئاً يثيـــر فضـــول الآخرين. لقد وجد عدنان بيتاً لـــ »أنـــار« التـــى ترضـــيها الأهداف الكبيرة والقضايا الساخنة، فمضى مســـتمتعاً بنعمـــة اليقين، واثقاً من أنه اهتدى إلى نفسه، وعرف الطريق الـــذى يرضى الأنا ويحقق رغبتهـــا فـــى الحصـــول علـــى هـــذا الاعتراف. وبقيت تائهاً لا أهتدى إلى بيت تستقر فيه ذاتـــى، ولا شرفة معلقة فى الفضاء أعرض منها نفسى. ذهبت إلـــى أكثر أنواع الاستعراض مباشرة ووضوحاً، وهـــو التمثيـــل. أبحث عن سوق لذاتى فى بهو المرايا. واستحضرت عـــوالم ألف ليلة وليلة ونقلتها إلى دورى، وتســـكعت بـــين القـــرون الوسطى والعصر الحديث، وبين مدن الشرق ومدن الغرب، أبحث عن مساحة خالية أقف عليها، وأضع رايتـــى فوقهـــا،

وأقول هذه تخوم دولتى، فلا "أجد سوى الخواء. إننى أغبط عدنان على يقينه، وأنكر على نفسى هذا الضياع الذى أعيشه. وأرجع إلى دارى منهكاً، بعد هذه المسافة الطويلة التى مشيتها فى الظلام، ولكن الصحوة التى داهمتنى تمنع عنى النوم، وتمنحنى إحساساً بلا جدوى الأشياء. حتى فى الأيام التالية وأنا أجلس فى المكتبة حانياً رأسى فوق بطاقات البحث التى ملأتها بأخبار المباذل والشذوذ، أجد هذا الإحساس بالعبث ينسحب على بحثى. ها هى البطاقات تمتلئ بالأزواج الذين ينتقمون من عشاق زوجاتهم بقطع أحاليل العشاق، والنساء اللاتى يستدرجن رجالاً إلى مضاجعهن ويقتلنهم بعد ليلة حب ومجون، والرجال الذين يغتصبون المرأة ثم يقتلونها. وغير ذلك من أحداث يختلط فيها العشق والجنس بالعنف والموت، فأجد أن دائرة العبث قد أحكمت حلقاتها، وأننى من حيث لا أدرى أحقق انسجاماً بين الفكرة والتطبيق، وما حياتى بالليل إلا امتداد لما أكتبه بالنهار. ولأمر ما أحسست فى تلك اللحظات بأننى وقعت أسيراً فى شراك نصبتها لى ألف ليلة وليلة. إنها هى التى تستخدمنى ولست أنا الذى يستخدمها لنيل شهادته. وهى التى تكتبنى بدلا

من أن أكتبها. تبسط نفوذها على عقلي وقلبي وسلوكي، وتجعلني أداة في يدها، لا أتكلم إلا بصوتها ولا أنشغل إلا بقضاياها وهمومها.

- أريدها أن تكون إضاءة لعبقرية الخيال..

ما أكثر ما نخدع أنفسنا فنحسب الوهم حقيقة. ظننت واهماً أنني اخترت ألف ليلة وليلة، موضوعاً لرسالتي، في حين أنها هي التي اختارتني موضوعاً لرسالتها، وعينتني مندوباً لعصرها، وصبغت حياتي بألوانها. وأيقنت بأنه لا طريق أمامي لكي أسترد حريتي، وأعود إلى شخصيتي التي سرقتها الأسطورة، إلا بأن أنتهي سريعاً من إنجاز أطروحتي. إنني لم أستطع أن أفهم ما يقوله عدنان، لأنني لا أنصت إليه بمسامعي، وإنما أسمعه وأتلقاه بمدارك الف ليلة وليلة، فأجده خالياً من المعنى، بعيداً عن عوالمها التي لا تعتني إلا بأعراس القلب العاشق وهمومه، وأفراح الجسد وصبواته ومباذله. إنني لا أنكر ما ألقاه من متعة في صحبتها. ولكنني لا أريد أن تكون حياتي ارتهاناً كاملاً لها. وأن أظل كائناً لا يقف على الأرض، ولا يطير في السماء،

معلقاً على الدوام، بخيوط الحرير العنكبوتية، التى نسجتها حولى، وشدتنى إليها، امرأة سرابية، اسمها شهرزاد.

قررت إنهاء الرسالة بأقصى ما أستطيع. وحددت العطلة الصيفية القادمة موعداً لإنهائها. وصرت أكتبها وأنا مسكون بذعر حقيقى. خائف من أن تهزمنى، فأتركها وأنفض يدى من الدراسة كلها.

انشغلت ساندرا بفرقة التمثيل، ودعتنى لأن أذهب معها فاعتذرت. تحررت من عبء السهر والشراب معها، فصرت أقضى وقتى كله بين المكتبة والبيت حيث ألتقى بها عندما تعود إليه ليلاً. وأثناء ذلك قابلت ليندا. ذهبت أحضر حفلاً صغيراً أقامه عدنان بمناسبة زواجه، فوجدتها هناك. تناولنا الغداء وخرجنا نتمشى قليلاً بمحاذاة حديقة الحيوانات. جلسنا فوق مقعد يشرف على منطقة من الحديقة تمتلئ بألعاب ومراجيح الأطفال. كان يوم أحد، وبرغم الشمس التى أشرقت، فقد كان البرد لافحاً. ارتدت معطفاً رمادياً فوق جلباب النساء الحوامل، وقد بدت استدارة بطنها توحى بأن ميعاد مجىء الصغير، أضحى قريباً.

– ها نحن نلتقى مرة أخرى.

كان عدنان قد أخبرنى بأنه سيدعوها، فلم يكن وجودها فى بيته مفاجأة لى. ظلت ترمق الأطفال وراء سور الحديقة وهم يركبون المراجيح، ولم تقل شيئاً.

– ظننت واهماً ذات يوم أن علاقتنا لن تنتهى أبداً.

ما فائدة الحديث عن ماض لا يثير اهتمامها. انتقلت إلى الحاضر أسألها عن ظروف حياتها وكيف تقضى وقتها فى ذلك الخلاء.

– أتسلى بكتابة مذكرات والدى عن سنين خدمته فى الهند.

لا أعتقد أن الكتاب سيجد ناشراً، ولا أظن أن أحداً يهمه ما حدث لوالدى فى الهند. ولكننى وجدتها وسيلة مريحة ومسلية لتمضية الوقت.

مرت لحظة سكون وصمت. شردت خلالها ليندا، فأعدتها من شرودها قائلاً:

– هل تقابلين دونالد؟

لم يفاجئها السؤال. نظرت نحوى وكأنها أدركت ما أرمى إليه.

- ليس كثيراً. ثلاث أو أربع مرات منذ أن انفصلنا. أخبرني في إحدى هذه المرات إنه التقى بك.

لا بد أنه أخبرها أيضاً بما قاله لي. بكل تلك الأسرار التي أخفها عني والتي لا يهمني منها الآن، سوى مسألة واحدة هي أنني والد هذا الطفل الذي سيخرج قريباً إلى الدنيا.

كنت في تلك اللحظة أفتش عن مشاعر الأب في نفسي عندما سمعتها تقول:

- لا أدري ما أهمية أن تعرف أنك والده أو لا تعرف.

قالتها وهي لا تزال تنظر إلى أطفال الحديقة. برغم قسوة عبارتها، فإنني حقاً لا أدري ماذا سيتغير في مجرى الأحداث، إذا عرفت بأن هذا الطفل جاءها عن طريقي. إنه طفلها، وسيبقى لها، وسيحمل اسم الرجل الذي كان زوجها. وما حياتي هنا إلا حياة مؤقتة. سطور ضئيلة في كتاب العمر. سأضع لها نقطة النهاية، مع نهاية هذا العام الدراسي. هامشاً على متن الكتاب. هامشاً صغيراً. ضئيلاً. فلماذا أدعي لنفسي حقاً ليس لي، أو أبحث عن التزامات أعرف أنه لا سبيل إلى الوفاء بها. من حق ليندا ألا تضع لهذه القضية اعتباراً كبيراً، وأن ترى نفسها مثل شجرة حملت إليها الريح

اللقاح. ولن يغير فى الأمر شيئاً من أية شجرة جاء هذا اللقاح. وجدت نفسى أقول:

- إن ذلك يعنى لى شيئاً كبيراً.

قلتها دون أن أعرف ما يعنيه لى، ودون أن أفكر بما سوف أضيفه من عبارات تبرر هذه الجملة. أدارت نحوى وجهها، ونظرت بعينين تمتلئان فضولاً، تنتظر بقية الكلام.

- ما جاء هذا الجنين إلا ليؤكد بأن علاقتنا فعلاً لن تنتهى.

مرة أخرى أرى نفسى غير مدرك لما أريده بالتحديد سوى رغبة غامضة، تطالبنى بأن أسعى للفوز بهذه المرأة من جديد. رأيتها تبتسم وكأن ما أقوله شىء لا يستحق سوى الإشفاق والرثاء. إلا أن ابتسامتها أشعلت فى نفسى تلك العاطفة الحارقة التى أحملها لها. عدت عاشقاً لا يرى فى الدنيا إلا هذا الخط الهابط من حاجبيها إلى صدرها، الذى سحرنى عندما رأيتها لأول مرة. قلت وأنا أتأمل الفلقة الصغيرة فى شفتها السفلي:

- يجب أن نتزوج يا ليندا.

قلتها دون تفكير. مستجيباً لإلحاح باطنى عبر عن نفسه قبل أن يسأل أو يستثير إرادتى الواعية. لم تبد ليندا اندهاشاً أو اهتماماً. وكأنها تدرك أنه مجرد تعبير عن رغبة طارئة، أعرف أنا أيضاً أنه لا سبيل إلى تحقيقها. لا شك أننى أعنى ما قلته هذه اللحظة. ولكن لحظات أخرى سوف تأتى، وسوف تجعلنى أدرك أن هناك أشياء فى الحياة لا يمكن القفز فوقها، وأن الزواج شىء آخر أكثر تعقيداً من مجرد رغبة انتقلت من قاع الوعى إلى سطحه الذى يتعامل مع الدنيا. ولكن هل حقاً أستطيع أن أتزوجها ؟. وهل يفلح استخدام المظلات والقفز وراء التخوم والتحصينات فى معالجة العلاقات الإنسانية فى تبدلها؟ لعلنى لا زلت مأخوذاً بالأسلوب الذى عالج به عدنان قصة حبه مع المرأة الهندية، فجئت أعرض عليها الزواج، لأختبر قدرتى على أن أكون جاداً وملتزماً، و"أضع نفسى فجأة أمام ارتباط أتجاوز به حياة اللهو التى أعيشها. أدرك الآن أننى ما زلت أحبها. ولم أكن أحتاج إلا أن تظهر أمامى بهذه الأنوثة الهادئة الحنونة، التى لم يفلح فى اخفائها مظهر أم فى آخر أيام حملها، أو هذا

الشحوب الطفيف الذى يكسو ملامحها، لأعرف أننـــى كنـــت واهماً عندما ظننت بأنى تحررت من سحرها.

لا يهمنى كثيراً "أن أكون أباً لهذا الطفل الذى يتكـــور نائماً فى أحشائها، أو لا أكون. ولكنه الآن جاء، يمنحنى سبباً يوصلنى بهذه المرأة، ويفتح لى طريقاً للفوز بها. معذرة أيتها العزيزة ساندرا. إن عاطفتى نحوك لا تقل حرارة. ورجـــال ألف ليلة، وامراؤها، الذين يعشقون مائة امرأة فى وقت واحد يدركون ما أقول. الفرق بينك وبينها. أن ليندا امرأة للبيـــت، وأنت امرأة للمدى. ليندا امـــرأة للأســـرة والـــزواج ودفء العلاقات العائلية، وانت امرأة قطعت حبل السرة الذى يشدها إلى أسرتها، ووهبت نفسها لسهوب الحرية التى تضيئها نـــار القلب. إننى لا أستطيع أن أتصورك فـــى دور الزوجـــة ولا أرى أن طبيعتك الحرة ترضى بمصير كهذا المصير أو دور كهذا الدور. ستبقين على الدوام، فراشة تطـــوف الحـــدائق، وتذوب فى اللهب. أو غزالة تشرب الندى وتـــركض وســـط حقول الشمس.

وبصوت بارد، قالت ليندا:

- إننى لا أفكر فى الزواج.

إنها لا تريد أن تغفر، ولا تريد أن تنسى. لم أشأ أن أستعجل الأشياء. سألتها عندما انتهى اللقاء، أن تمنح نفسها فسحة للتفكير فيما قلته لها. لا من أجلى وأجلها فقط، وإنما أيضاً من أجل هذا الطفل الذى لا أريده أن يولد ويتربى كالأيتام. سأمهلها حتى تنتهى من حملها، وسأزورها بعد ذلك لأرى الطفل وأعرف رأيها.

ذهبت إلى حانة العناقيد مبكراً، أشرب كأساً وأنتظر ساندرا. كان الرجل العجوز يوقد المدفأة، فجلست قريباً منه محاطاً بالدخان ومثقلاً بالخطايا. إنها لا تعرف شيئاً عن ليندا. فماذا لو جئت الآن أعترف لها بما حدث، وأقول بأننى التقيت بها هذا المساء، أعبر لها عن حبى، وأطلب أن تقبل بى زوجاً. منذ أسابيع مضت، أسمعتها فى هذا المكان "أكثر الشتائم فحشاً، لأننى رأيت فى سلوكها شيئاً لا ترتضيه الأخلاق. فماذا أسمى اليوم هذا الازدواج وهذه الثنائية فى السلوك والتفكير؟ وكأننى كائن مقسوم إلى نصفين. أحبها بنصف وأهب النصف الثانى لامرأة أخرى. أفكر معها بأسلوب وأفكر مع نفسى بأسلوب آخر. أليس غشاً أن أقحم الآخرين فى بؤس التناقضات التى أحملها، وأبحث عن غطاء

لدى رجال ألف ليلة وليلة وأسلوب تعاملهم مع حريمهم، ناسياً أننى أستعير قوانينهم وشروط حياتهم، لأستخدمها استخداماً مشوهاً، وأنقلها إلى زمن يختلف عن زمانهم. ولكن ما أحسست به من كدر تبدد سريعاً مع أقداح الشراب، أدركت أن ما قلته لليندا كان كلاماً لا يعنى شيئاً خارج تلك اللحظة. وأننى عبثاً أحاول أن أعيد النبض إلى علاقة حب انقضت وانتهى زمانها. وكطائر ينفض الغبار عن ريشه بعد انتهاء العاصفة، نفضت ذكرى لقائى بليندا، ومنحت أجنحتى فرصة التحليق مع ساندرا فى عوالمها المدهشة.

كانت أعياد الكريسماس قد بدأت تستقطب اهتمام الناس. وانتصبت فى الشوارع وأمام الدكاكين أشجار عيد الميلاد تتدلى منها عراجين الضوء. وامتلأت واجهات المتاجر وشرفاتها، بتماثيل بابا نويل بطربوشه المضحك، ولحيته الكبيرة البيضاء، مثقلة جيوب معطفه الأحمر بالهدايا لمن يملكون مالاً ويقدرون على الشراء. وجاءت ساندرا تحمل كل يوم دعوة للمشاركة فى هذه الحفلات التى يقيمها الناس فى البيوت. لم تذهب لقضاء يوم العيد مع أهلها، ولم تأت لهم على ذكر. سألتها عن السبب، فلم تزد على أن قالت:

- أنت أهلى.

أسعدنى قولها. واعتبرت أيام العيد إجازة من القـراءة والكتابة، فانصرفت إلى الحياة التى قادتنى إليهـا سـاندرا. نذهب كل ليلة إلى بيت. نأخذ معنا شراباً نضيفه إلى قنـانى الشراب، ونغرق مع الغارقين فى طوفان الخمـر والـرقص وموسيقى الصخب. نسهر أغلب ساعات الليل، ثم ننام النهار كله، استعداداً لحفلة جديدة. وأقامت ساندرا حفلاً فى غرفتى، أرادته أن يكون ختاماً لموسم الاحتفالات، متوافقاً مع نهايـة العام، دعت إليه كل من قام بدعوتنا من أعضاء فرقة التمثيل وزملاء الجامعة. أدهشنى أن أجد الغرفة تتسع لأكثـر مـن ثلاثين شخصاً يشربون ويرقصون. اقتضانا إعـداد الغرفـة جهداً كبيراً، أخرجنا كل محتوياتها إلى سقيفة البيت، ونقلنـا بعضه الآخر إلى غرفة ساندرا. حتى تحولت إلى صالة قادرة على استيعاب هذا العدد. وقمنا بتزيين سـقوفها وجـدرانها بأشرطة الورق الملون والبالونات والمصابيح. ارتدت ساندرا فستاناً أزرق كثير اللمعان، يكشف عن كتفيها وجـزء مـن صدرها ويطبق بقوة علـى خصـرها، وتصـنع أطرافـه المفضضة دائرة من الوهج تحيط بساقيها. ورقصت فبـدت

كراقصات الباليه تألقاً ورشاقة. فاجأتنى عندما دعت إلى الحفل تلك الصبية التى نامت ذات ليلة معها. وكأنها أرادت أن تقول لى بأن سوء ظنى لم يكن صحيحاً، وأن تلك المغامرة لم تلحق بالصبية ضرراً أو تقودها إلى الانحراف. فقد جاءت مادلين تصحب صديقاً فى مثل عمرها. فرحت بمجيئها، واعتنيت بصرف شراب لها، وقمت بتقديمها، وتقديم فتاها، لمن أعرف من الحاضرين. وما أن امتد بنا السهر قليلاً، حتى وجدنا أننا بحاجة إلى أن نفتح غرفة ساندرا بالطابق الثانى لرجل وامرأة من أعضاء الفرقة أعياهما الرقص، ويريدان التقاط أنفاسهما بعيداً عن الصخب. كنا نعرف السبب. وقدمنا لهما المفتاح بكامل الفرح. وما أن عرف بقية المدعوين بأمر هذه الغرفة حتى تكاثر عليها الطلب. وضعنا المفتاح فوق رخامة المطبخ، قريباً من قنانى الشراب، وصار ما أن ينتهى عاشق من استعماله للقاء رفيقته حتى يعيد المفتاح إلى مكانه كى يأخذه عاشقان آخران. وجاء ضيفان جديدان من أصدقاء ساندرا، فذهبت أبحث عنها كى تأتى لتحييهما، فلم أجدها. أدركت أن ليلة مثل هذه تليق بإحدى مغامراتها الصغيرة اللذيذة. ولكن من يكون الرجل

الذى اختارته بطلاً لهذه المغامرة؟ كانت مادلين تراقص ولداً يلتصق بها ويدفن وجهه فى شعرها، ظننته صاحبها. ثم عرفت عندما انتهى الرقص أنه لم يكن هو. فتشت عنه فلم أجده، إذن فقد اختارته ساندرا ليكون فتاها هذه الليلة المباركة التى تقرع فيها الأجراس وداعاً لعام قديم، واستقبالاً لعام جديد. تساءلت عن سر هذه المعاملة الغريبة التى تعامل بها مادلين. أستطيع أن أدرك الآن إلى أى مدى عشقت ساندرا هذه الفتاة. عشقتها منذ أن رأتها لأول مرة. منذ أن قالت مبهورة »ان لها جمالاً يستحق قصائد الشعر«. وكرهت عشقها الذى رأت فيه شيئاً لا يتفق مع طبيعتها. وما ساقتها إلى معاشرتى إلا بهدف أن تصنع هذه المعاشرة مساحة تحميها من نفسها، وتباعد بينها وبين الفتاة. وعندما فشل مشروعها. استجابت لتلك العاطفة المحرجة، المهينة لأنوثتها، واستدرجت الفتاة إلى فراشها. وما دعتها اليوم إلا بهدف أن تفوز بلحظة حب معها. رأتها تأتى وتصحب معها فتاها. فأغاظها ما رأت، وسعت إلى الانتقام بإغواء هذا الفتى والتسلل به إلى غرفتها. إن ساندرا بكل ما تحمله من حب للبشر، تستطيع أن تكون شريرة إذا أرادت. وأنا أيضاً

أستطيع أن أكون شريراً هذه الليلة. لن يقتضى ذلـــك. إلا أن أجعل مادلين تعرف ما يفعله صاحبها فـــى الغرفـــة العليـــا، وسيكون سهلاً بعد ذلك أن أتدبر ساعة حظ معهـــا. اللعنـــة، قلت فى خاطرى، لماذا أفسد على الناس متعتهم ؟. ليتناكحوا، ويتقافزوا فوق بعضهم بعضاً مثل الجنادب، فما الذى يضـــير فى ذلك ؟. لن تنتهى هذه الليلة دون أن أجد طعاماً لحيـــوان الغريزة الذى يعوى فى دمى مطالباً بحصته. عادت ســـاندرا يتبعها ذلك الولد. وضعت المفتاح فـــى مكانـــه، وركضـــت ترحب بضيوفها الجدد. هل بقى أحد لم يضاجع أحـــداً أيهـــا الناس، فمفتاح الشهوة يتعذب وحيداً فوق الرخام. راودتنـــى فكرة أن أخبئ المفتاح فى جيبى لأحرم الآخرين من متعتهم، إلى أن أحقق متعتى. ولكن يداً امتدت تسحبه وتختفى. أنشـــأ بعضهم حلبة للرقص، فاتخذت لنفسى مكاناً يجاور مـــادلين. وضعت يدى فى يدها، وسرت فى جسمى حرارة الاتصـــال بها، وتصاعدت داخل الصدر أبخرة الندم لأننى أضعت ذات مرة، فرصة أن أرى نهديها دون غطاء، انتهـــى الـــرقص. ففكت يدها من يدى ووثبت إلى صاحبها الذى اختار زاويـــة فى الغرفة يستند إلى جدارها يتقاسم مع رجل آخر ســـيجارة

محشوة بالأعشاب المخدرة. لقد أطعمته ساندرا من حدائقها، وأخذته فى زيارة تدير الرأس إلى كوكبها، وأرته تلك التعويذة الخضراء الموشومة على صفحة فخذها، فعاد منهكاً ومنتشياً. بدأ بعض الناس يستأذنون فى الذهاب، بعد أن امتد بنا السهر واستنفدنا ما جاء به الضيوف من قنانى الشراب. تعبت أقدام الراقصين من الرقص، كما تعبت "أجسادهم من الصعود والهبوط فوق سرير الحب، وستنتهى هذه الليلة التى باركها باخوس إله الخمر والمرح، دون أن أجد لحيوان الغريزة شيئاً يمضغه. رأيت باخوس يدفع فى طريقى بامرأة الملابس فى فرقة التمثيل. ثملة لا تعى شيئاً، ولها جسد يميل إلى السمنة، ولكن لا بأس، أخذت المفتاح، سرت أسندها، حتى وصلت بها إلى الغرفة التى امتلأ مدخلها بالأمتعة المنقولة من غرفتى. تركت المرأة تذهب إلى الحمام، وتسلقت الكتب والحقائب حتى وصلت إلى السرير الملوث ببقايا الولائم الجنسية، أنتظرها هناك. سمعتها تتقيأ داخل الحمام، فعافت نفسى الاقتراب منها. أعدتها إلى الحفل، وأعدت المفتاح إلى مكانه، ووقفت أستمع إلى ضحكات باخوس الذى أوقعنى فى هذا المأزق.

- كانت حفلة رائعة.

ظلت ساندرا تردد هذه الجملة منذ أن صحونا في منتصف النهار، نزيل آثار الحفلة ونعيد إلى الغرفة نظامها وأثاثها. قلت لها ونحن نجلس قريباً من المدفأة في حانة العناقيد، بعد أن مشينا مشواراً تحت الثلج:

- كان الفضل في نجاحها لغرفتك، التي تحولت إلى طاقة سحرية ينفذ منها الناس إلى عالم الحب والمتعة.

- رأيتك وأنت تجهد نفسك في جر تلك الفتاة الثخينة إليها، فلم يعجبني ذوقك.

- أما أنت فقد كان ذوقك بديعاً وأنت تختارين ولداً له قصة تتدلى فوق عينيه كنجوم أفلام الثلاثينات.

- واحدة بواحدة.

لم أشأ أن أحرجها، وأسألها عن سر ملاحقتها لمادلين ولم أجد رغبة في أن أعترف لها بخيبتي مع المرأة البدينة. جعلتها تعتقد بأنني أتساوى معها فلا ربح ولا خسارة. اكتفيت بأن ضربت كأسي بكأسها لكي نشرب نخب هذه الروح الرياضية التي نواجه بها الثلوج والعواصف قائلاً:

- بداية طيبة للعام الجديد.

انتهى موسم الاحتفالات فعدت إلى بحثى. أهملت الوعد الذى قطعته على نفسى بزيارة ليندا، التى أنجبت قبل أيام من نهاية العام ولداً، كما أخبرنى عدنان. أنه يأتى إلى الدنيا مع أعياد ميلاد المسيح. فلتباركه السماء، وليتربى يتيماً هو الآخر لا أب له إلا الله. سوف لن أضجرها بزيارتى، ولن أثقل عليها بمزيد من الأسئلة.

ليس هناك فى الخارج سوى عواصف الثلج التى أشاهدها من دفء وأمان المكتبة، فتبعث فى نفسى إحساساً مبهجاً ببكارة الأشياء، أجلس فى مواجهة جدار زجاجى يطل على الحديقة. أقرأ وأكتب وأرقب عبقرية الطبيعة وهى ترسم لوحاتها، عندما تنهمر ندف الثلج من سماء سوداء كالليل، وتسقط فوق الأشجار، فتحيلها إلى تكوينات من البياض الذى يسطع كالضوء فى حديقة الشتاء. عادت ساندرا إلى تمثيلها. أرضتها تلك المغامرة، فأمضت الأشهر الأولى من العام الجديد دون مغامرات. سعيدة بأداء دورها فى المسرحية الجديدة، المثيرة، »أكاديميا«. التى كتبها أحد أعضاء الفرقة وملأها هجاء للمؤسسة الجامعية ونظامها، وانتصر لقضية »لاري« الذى رفض الجامعة واشتغل بائعاً للخمور. أثارت

المسرحية قبل أن تعرض جدلاً عنيفاً داخل الوسط الجامعى، ونقلت الصحف الطلابية الجدل الذى يدور حولها. اعتـــرض مجلس الجامعة على تقديمها ووقف اتحـــاد الطـــلاب موقفـــاً حازماً مع الفرقة ومؤلفها. ونشرت صحيفة الاتحـــاد تحقيقـــاً صحفياً مع ساندرا، دافعت فيه عن رسالة الفرقة وحقها فـــى فضح الممارسات التى تســـىء إلـــى التعلـــيم وتعطـــل دور الجامعة، التقى بها ليلاً وهى تذاكر دورها، أو تناقش معـــى فكرة خطرت لها حول اسلوب أدائها للدور. وهو دور طالبة تستخدم جمالها استخداماً عابثاً. تقـــوم بـــإغواء المدرســـين واستدراجهم للنوم معها، والحصـــول مـــنهم علـــى أســـئلة الاختبارات التى سيضعونها. ثم تأتى بعد ذلك لتفضح علاقتها الجنسية معهم، وتسعى للتشهير بهم. كـــان الـــدور عـــامراً بالإثارة والمغامرة. أحبته ساندرا لأنه يعرى عالم النفاق الذى تكرهه. وكانت تؤديه بجدية وصرامة، وتقوم بإلقاء حوارهـــا مثل القساوسة الذين يلقون دروسهم الدينية. يملأهـــا النقـــاش الدائر حول المسرحية إيماناً بمضمونها، فينعكس ذلك علـــى تمثيلها وتفسيرها للدور. كنت أختلف معها حول هذا التفسير الذى يدفعها إلى تزييف شخصية الفتاة، وإلباسها ثوبـــاً لـــيس

لها. إن الفتاة لا تفعل ما تفعله من أجل فضح التناقض فـــى سلوك المعلمين، وإنما تفعله لهواً وعبثاً واستهتاراً بمشـــاعر الآخرين، وابتزازاً لضعفهم وعواطفهم. وسوف لـــن تخـــدم مضمون المسرحية إلا عندما تنسى هذا المضمون فلا تـــذكر إلا الفتاة العابثة، الضاحكة، الشريرة. سألتها أن تودى الدور بهذا الفهم فلم تقتنع، وعندما واصلت إلحـــاحى، ووافقـــت أن تؤديه على سبيل التجربة، أذهلتها المفاجأة. بدأ الدور يكشف عن إمكانيات كوميدية كانت مخبأة تحت ثقل الأداء الوعظى الكنائسى. وبدأ إيقاع المسرحية البطىء ينقلـــب إلـــى إيقـــاع سريع، ملىء بالحيوية والتدفق والمرح. ولم يكن صعباً بعـــد ذلك أن يتبنى المخرج هذا التفســـير ويســـعى إلـــى تعميقـــه وتطويره. جاء موعد تقديم المسرحية، فتزاحم الناس لحجـــز مقاعدهم. وخصصت الفرقة أســـبوعاً لعرضـــها بالمســـرح الجامعى. جلست مع المشاهدين ليلة الافتتاح، أصفق لساندرا إعجاباً بأدائها المتفوق الفكاهى لدور الشـــيطانة الصـــغيرة. وكان الجدل الذى دار حول المسرحية، حـــافزاً لأن ترســـل الصحف الكبيرة مندوبيها للكتابة عنها. ولقى دور ســـاندارا ثناء من النقاد واعترافاً بمواهبها. ولم تنتـــه مـــدة عـــرض

المسرحية حتى جاءها عقد من المسرح التجارى لأداء الدور الرئيسى فى مسرحية تقدم الصيف القـــادم. كانـــت ســـعيدة بنجاحها، وبالصحف التى تنشر أحاديثها وتصاويرها، وبالعقد الذى جاء ومعه مبلغ من المال، لينقلها من مسرح الهواة إلى مسرح المحترفين. فكانت تأخذ الصحيفة، ترقص بها وســـط الغرفة، وتتأمل اسمها وصورتها قائلة"

– ساندرا تاور، اسم يليق بنجمة كبيرة.

– لا أحد يحزنه نجاحك سواى. لأنك ســـوف تنتقلـــين إلى سماء النجوم وتتركيننى وحيداً فى هذه الغرفة، أعاشـــر الأشباح.

– أنك أنت صاحب الفضل فى هذا النجاح، ومكافأة لك سأجعلك مدير أعمالى.

اقترحت عليها أن نقضى عطلة عيد الفصـــح بمدينـــة لندن التى تشهد مهرجاناً دولياً للسينما. فلابد أن سمعتها قـــد سبقتها إلى هناك، وسأكون سعيداً بأن أباشر مهمتى منذ الآن فى إدارة أعمالها والاتفاق مع الشركات التى تسعى للتعاقـــد معها. أبدت حماساً للفكرة وهى تسخر من سخريتى بها، قائلة بأن العقود ستأتى طال الزمن أو قصر، واشترت بـــالعربون

الذى جاءها من المسرح التجارى ثلاثة فساتين جديدة تحضر بها العروض. وقبل موعد السفر بيوم واحد اختفت ساندرا. لم تعد ليلاً إلى البيت فأدركت أن الإثم هذه المرة ليس إثمها، وإنما أثم الربيع الذى جاء بعبيره وألوانه وسهامه الذهبية، يوقظ فى قلبها شهية الحب واللعب، فذهبت خلف إحدى حكايات عشقها الطارئة، وستعود فى الصباح مع موعد القطار الذى سيقلنا إلى المهرجان. جاء الصباح ولم تعد. مضى اليوم كله، وجاء اليوم التالى دون أن تأتى. بدأت أقلق عليها، حائراً لا أدرى إذا كان من واجبى إبلاغ الشرطة أو مواصلة الانتظار. فلعلها التقت بقريب لها، أعادها إلى بيت أهلها بمناسبة الأعياد. إننى لا أعرف من هم أهلها ولا مكان إقامتهم بمدينة أدنبره التى تقول بأنها مدينتها. وأميل إلى الاعتقاد بأنها فتاة لا أسرة لها. عاشت بملجأ للأيتام فكرهت أن تأتى على سيرة أيامها الماضية. آثرت الانتظار ليلة أخرى قبل تقديم بلاغ عنها إلى الشرطة. وما أن جاء منتصف الليل، حتى جاءت ساندرا تطرق بابى. لم أستطع أن أتعرف عليها للوهلة الأولى. كانت تتكوم أمام الباب فى هيئة غريبة. حسبتها امرأة شقية ممن أشاهدهن نائمات تحت

القناطر وأمام حانات الشوارع الخلفية، جاءت تطلب إسعافاً سريعاً. كانت ترتعش مرضاً وأوجاعاً وحمى. وكان صوتها وهى تستنجد باكية وتناديني باسمي هو الذى هدانى إلى أنها ساندرا وليست امرأة أخرى. سحبتها من عتمة السقيفة، إلى أضواء الغرفة، أتعرف على ما أصابها. كانت الكدمات والخدوش تملأ وجهها وعنقها وذراعيها. والأتربة وبقايا الأعشاب عالقة بشعرها. تمزقت أطراف فستانها وتلوثت بالوحل والدم. وضعتها فوق السرير، وسقيتها حليباً ساخناً حتى استعادت هدوءها. أردت أن أذهب بها إلى المستشفى، فأخذت منديلاً تجفف به الكدمات وتزيل آثار الدم عن وجهها، قائلة بأنها تفضل الانتظار إلى الصباح. استطعت أن التقط من خلال الشهقات ونوبات البكاء التى تداهمها، ما كانت تقوله عن محنتها. كانت فى طريقها للقائى بالحانة عندما استوقفها وفور خروجها من البيت، شاب صغير مبدياً إعجابه بدورها فى مسرحية »أكاديميا«. كانت سعيدة بهذا المعجب الذى يعاملها معاملة النجوم الكبار، ويطلب الاحتفاظ بتوقيعها للذكرى. أرادت أن تعرف ما الذى أعجبه فى تمثيلها، فرأته يخلط بين حياتها الخاصة وبين الدور الذى

قامت به. أعجبتها سذاجته، وراق لها أن ترافقــه لاحتســاء كأس معه، جاء بصاحب له يقود سيارة أقلتهما. ثــم رأتهمــا يلتقطان أصدقاء آخرين من أحد الأرصفة. وجــدت نفســها محشورة فى السيارة مع خمسة فتيان ينطلقون بهــا خــارج المدينة. أدركت أنها وقعت فى أيدى مجموعة عابثة تريد بها شراً. طلبت من السائق أن يعيدها إلى المدينة فلم تســمع رداً سوى الضحكات. ولجأت إلى الحيلة فادعت أنها ترغب فــى قضاء الليل معهم وتريد أن تهاتف أهلها من إحدى محطــات الوقود لكى لا يشغلهم غيابها. انتعش أملها فى النجاة عنــدما رأتهم يوافقون على فكرتها. ولكن أحدهم أخذ فــردة حذائــه واستخدمها سماعة للهاتف. اخترع رقماً وأدار قرص الهاتف الوهمى ووضع الحذاء فى وجهها، قائلاً بأن أهلها ينتظــرون على الخط. ازدادت ضحكاتهم صخباً وقبحاً. رأوهــا تعــالج الباب عندما أبطأت السيارة وهى تترك الطريــق الرئيســى وتدخل طريقاً جانبياً مترباً. فاستل الولد الذى بجوارها سكيناً يهددها به، ويمنعها من القيام بأية حركة. وصلوا بهــا إلــى منطقة مظلمة داخل الغابة. ألقوا بها فوق الأرض ينزعــون عنها ملابسها ويحاولون اغتصابها. أصرت على أن تقاومهم

وتكحت التراب فى وجوههم وتطلق صرخات النجدة. جــاء صاحب الخنجر يضغط به على عنقها حتى أسال منها الــدم، قائلاً بأنه سيكمل ذبحها إذا لم تتوقف عن المقاومــة. أبقــوا الأضواء الصغيرة بالسيارة مفتوحة، وتناوبوا على اغتصابها الواحد بعد الآخر. انتهوا منها ولكن محنتها لم تنته. فقد ظلوا يشربون ويهرجون ويعودون إلى اغتصابها ويتبارون حــول من يستطيع أن يمارس الجنس معها أكثر من الآخرين. رأتهم فى الصباح نائمين، فأرادت الهروب. لم تستطع أن تمشى إلا مسافة قصيرة بسبب ما ألحقوه بها مــن أوجــاع. اكتشــفوا هروبها وجاء أحدهم يلاحقها بالسيارة ويهددها بالسحق تحت عجلاتها. احتمت بجذع شجرة، فظل يطوف بها ويحاصرها، ويقفز بسيارته نحوها حتى يضرب الشجرة، وهى مهســترة تبكى وتتقى الموت بهذه الطريقة البشعة. إلى أن جــاء بقيــة أصحابه يعيدونها إلى مكمنهم ويربطونها إلى جــذع شــجرة لكى لا تهرب منهم. وظلوا يعبثــون بهــا وقــد استســلمت لمصيرها وأيقنت أنها ستموت بين أيديهم تحت تلك الشجرة. وفى اليوم الثالث نفد ما معهم من شراب، فــانتظروا هبــوط

الليل وجاءوا بعد أن نامت المدينة يرمون بها عنـــد المكـــان الذى أخذوها منه، ويهددونها بالعقاب إذا أبلغت عنهم.

من أين أجد كلمـــات تصـــلح لمواســـاتها. أرادت أن ترضى معجباً صغيراً وتدخل على قلبه البهجة، فإذا بها تلتقى وجهاً لوجه بهذا الشر المجانى الذى لا يعرف هدفاً ولا حداً. وتتحول مغامرتها الصغيرة اللذيذة إلى سفر موحش فى قلب الغابة البشرية. ستقدم غداً بلاغـــاً للشـــرطة. وســـتحاول أن تعطى أوصافاً لأفـــراد العصـــابة. وقـــد يعثـــرون علـــيهم ويسوقونهم إلى السجن. ولكن هل ستعود ساندرا تلك الفراشة الجميلة التى ترتدى ألوانها وتسافر بأجنحة العشق عبر المدى المفتوح الذى تضيئه شمس القلب.

أرادت أن تذهب إلى الحمام، فعاودها نزيف الـــرحم. استهلكت كل ما فى البيت من مناديل الورق. ولكن النزيـــف استمر حتى أغمى عليها. خرجت راكضاً لأهاتف الإسعاف. جاءت السيارة، ومعها الطبيب الذى قام بفحصها. قـــدم لهـــا إسعافاً سريعاً وأمر بنقلها إلى المستشفى. لقد تـــورم الجـــرح وسوف تحتاج ساندرا إلى عملية عاجلة لإزالة الرحم. رافقتها وهم ينقلونها ممدة فى صندوق السيارة، ورويت أثناء الرحلة

قصتها للطبيب. عرفت رقم العنبر، ومكان السرير الذى خصصوه لها. ثم تركتها لعناية الأطباء، وعدت مثقلاً بالفجيعة والأسى، إلى غرفتى. أدركنى الصباح دون أن أنام. كنت منهكاً، فأحكمت إسدال الستارة فوق الشباك المغلق. طردت الضوء من غرفتى ونمت فلم أستيقظ إلا بعد أن انقضى نصف النهار. اشتريت وأنا فى طريقى إلى المستشفى باقة ورد. وذهبت إلى عنبر النساء فوجدت امرأة أخرى تنام فى سريرها. هل ماتت؟ هذا ما صرت مفجوعاً ومجنوناً أحاول أن أعرفه من الممرضة التى وقفت ساهمة لا تجيب. ولأنها لم تبدأ المناوبة إلا منذ ساعة مضت، فقد أحالتنى إلى ممرضة أخرى تجلس فى غرفة التمريض وتنشر أمام وجهها صحيفة المساء. أبلغتنى بأن ساندرا نقلت إلى مستشفى خاص. استعدت نبضى الذى توقف لبضع لحظات، ونظرت إلى الممرضة علها تزيدنى شرحاً. لم أستطع أن أفهم لماذا تنتقل من مستشفى حكومى إلى آخر يطلب أموالاً لا قدرة لساندرا على تقديمها له. لمحت فى الصحيفة التى تقرأها صورة ساندرا، فأخذت منها عنوان المستشفى الذى انتقلت إليه، وخرجت أشترى الصحيفة وأجلس فوق أول مقعد

يصادفنى أقرأها. وجدتها تأتى على ذكر القصة التى وقعت لساندرا. تفرد مساحة كبيرة لها وتضع إشارة للموضوع فى الصفحة الأولى. ولأن مثل هذه الحوادث تقع كل يوم فقد استغربت لما أولته الصحيفة من اهتمام كبير بالقصة. لم يكن السبب لأنها نجمة المسرح الجامعى كما ذهب فى ظنى. فهذه صفة أهملتها الصحيفة. ولم تأت على ذكرها. كان الشىء الذى ألهب حماس المحررين هو أن الفتاة التى تعرضت لحادث الخطف والاغتصاب، ليست سوى الابنة الوحيدة للسير ريتشارد تاور، صاحب الشركة التى تسيطر على صناعة وتصدير الورق، والرجل الذى لعب أدواراً سياسية عندما كان عضواً فى البرلمان وأحدث خروجه العاصف من حزبه، ضجة كانت حديث الصحف. ولا أدرى لماذا ضحكت. كان قلبى مترعاً بالحزن وأنا أرى العنف والجنس الذى أبحث عنه فى الأساطير، يأتى عارياً من أثوابه الخرافية إلى دارى، ويخطف المرأة التى تقاسمنى طعامى وشرابى وسريرى. ولكن المفارقة هذه المرة كانت مدهشة إلى حد الضحك. لم يخطر ببالى أن تلك الطالبة الفقيرة التى ألفت حياة التشرد حتى حسبتها إحدى بنات الملاجئ، والتى لم تكن

تجد طعاماً غير الخبز والجبن عندما التقيت بها، أتباهى أمامها بكرمى وأطعمها من حساء الفاصوليا بالمطعم المصرى، يمكن أن تكون الابنة الوحيدة، والوريثة الوحيدة لأحد أصحاب الملايين.

طويت الصحيفة، ووضعت باقة الورد بجوارى، أفكر فيما إذا بقى موجباً لزيارتها. كنت قد جئت مسرعاً إليها لأننى كنت أظن بأن لا أحد سيهتم بها غيرى. وإنها امرأة لا أهل لها، فكان واجباً أن أكون أهلها فى أيام المرض والمحنة. واشتريت لها زهوراً لكى لا تحس بأى فرق بينها وبين من تحظى بالزهور والزيارات من ساكنات عنبرها. كل شىء تغير الآن. وها أنا ألتقى بقصة من تلك القصص التى لا أحد يجيد صنعها غير شهرزاد. وموقفى اليوم يشبه الفران الذى أشفق على صبى مريض ملقى بجوار القمامة، فأخذه وأعطاه عملاً بالفرن ليكتشف بعد ذلك أنه الوريث الشرعى للعرش. كانت أول مسرحية أرى ساندرا تمثلها، هى مسرحية دورينمات »هبط الملاك فى بابل«، وها هى المسرحية تعيد نفسها. وما أنا إلا شحات نينوى الذى هبط عليه ملاك فى شكل صبية صغيرة، جميلة، سماوية الملامح،

ثم سرعان ما اكتشفت طفلة السماء، شرور الدنيا وآثام البشر، فعادت إلى سمائها، تاركة شحات نينوى يقف وحيداً فوق الأرصفة يطلب حسنة لله، ها قد جاء هذا الرجل البنكنوتى، الذى يحمل وسام الملكة، يعيد ابنته إلى أجوائه الملكية، ويسرق هذا الشعاع الذى أضاء غرفتى، ليتركنى طعاماً لليالى الصمت والوحدة. سأحمله الآن مسؤولية ما حدث لساندرا. فقد أوردت الصحيفة قصة خصامه مع »أبناء الأرض« الذين يهاجمونه فى نشراتهم لأنه يتلف الغابات ويدمرها. ولابد أن الغابة أرادت أن تنتقم لنفسها، فلم تجد غير ابنته هدفاً سهلاً لانتقامها، بينما بقى هو محتمياً بألقابه وأمواله وحراسه. لتكن ابنة ملك أو إله، فأنا لا أعرفها إلا ساندرا التى تقاسمت معى الكأس والرغيف. وهذا ورد اشتريته ليكون هدية لها، ولن أرمى به فى الطريق. ذهبت أحمل وردى إلى مستشفى »الثالوث المقدس«. أرشدنى موظف الاستقبال إلى جناحها. وجدت ممرضة تقف بباب الصالون الملحق بغرفتها، تستقبل الزوار وتأخذ منهم باقات الورد. ذكرت للمرضة اسمى وجلست أنتظر الإذن بالدخول. كان أقاربها يحيطون بسريرها عندما دخلت إليها، فأفسحوا

لى طريقاً لأقف قريباً منها. سألتها باقتضـــاب عـــن حالهـــا وتمنيت لها الشفاء العاجل وخرجت. لم تدم زيارتى أكثر من دقيقتين أو ثلاث. أزعجتنى النظـــرات التـــى كـــان أهلهـــا يتأملوننى بها. كدت أصرخ فى وجوههم بأننى أنا الذى يجب أن ينظر باستنكار إليكم ويتعجب من وجودكم فى هذا المكان. لأن ساندرا لا تعرفكم بمثل ما تعرفنى، ولا تنتمى إليكم بقدر ما تنتمى لى. وعندما عادت من محنتها تبحث عـــن صـــدر تبكى فوقه، لم تذهب إليكم وإنما جاءت تبكى على صـــدرى. تفرست فى وجوههم استفزازاً وتحدياً. تكهنت بـــأن المـــرأة الممتلئة التى تجلس بجوارها، تحمل منديلاً تجفف به عينيهـــا هى أمها. ولم أستطع أن أجد بين الحاضـــرين مـــن تشـــبه ملامحه صورة والدها. خرجت مصمماً على أن أزورها كل يوم. لكننى بقيت أياماً متهيباً الالتقاء بذلك الجو الاســـتفزازى الذى يحيط بها. إلى أن قابلت زميلاً يسأل عنها فجئـــت بـــه إليها. كانت ساندرا قد استعادت عافيتها، ونزعت الضمادات التى كانت تغطى جروحها، وخرجت من ســـريرها تســـتقبل زوارها بغرفة الصالون. كان الفزع مقيماً بعينيهـــا. هربـــت الدماء من وجهها وانطفأت فيه أزهـــار النـــار. اســـتقبلتنى

استقبالاً دافئاً، وعاتبتنى لأننى تغيبت أياماً عن زيارتها. شبكت ذراعها فى ذراعى، وقادتنى إلى والدها الذى لم أنتبه لوجوده حتى وقف يصافحنى. قصيراً، ممتلئ الجسم، يفيض وجهه الشديد الاحمرار بذلك الألق الذى يصنعه الثراء والنجاح. خمنت بأنه سعيد بهذه الكارثة التى أعادت إليه ابنته. أفسح لى مكاناً للجلوس بجواره. يشكرنى على اعتنائى بساندرا فى وقت محنتها، ويخرج من جيبه بطاقة الزيارة يسألنى ألا أتردد فى الاتصال به وقتما أشاء وفى أية حاجة أريد. عرفت من ساندرا وهى تودعنى أمام الباب أنها ستغادر المستشفى إلى بيت أهلها بعد ثلاثة أيام. لم أعد إلى زيارتها. ولم أجد رغبة للذهاب إليها فى بيت والدها. انشغلت برسالتى، منهمكاً فى كتابتها وكأننى أريد انهاءها فى يوم واحد. يأتى الليل فأتذكر ساندرا عندما أرى عطرها وأدوات زينتها وقميص نوم تركته معلقاً خلف الباب. ثم يدركنى الصباح فأعود إلى صحبة شهرزاد ولا أرى أحداً سواها. جاءت ساندرا بعد أسبوعين لإخلاء غرفتها. قائلة بأنها لن تكمل دراستها هذا العام، لأنها ما زالت بحاجة إلى الراحة والعلاج. أمرت السائق الذى جاء بها أن ينقل حوائجها إلى

البيت. ورافقتني إلى المكتبة لتعيد إليها عدداً من الكتب التي استعارتها والتي من بينها كتاب »جامع الفراشات«. تساءلت في سري عن العلاقة بين الكتب التي تقودنا الصدفة لاقتنائها أو قراءتها، وبين ما يقع لنا من أحداث. وبمثل ما جاءت ألف ليلة وليلة تصبغ حياتي بألوانها العابثة، فها هو الكتاب الذي أحبته ساندرا، وكانت تجدد استعارته من المكتبة مرة وأخرى، يأبى إلا أن يعيد إنتاج نفسه من خلالها. جلسنا في مقصف المكتبة نتذاكر ونشرب الشاي. الآن وقد حدث الذي حدث، فإنها يجب أن تشكر الأقدار التي أنقذتها من عواقب هذا الشر. إن من ساقها سوء الحظ مثلها. إلى أيدي عصابة من المجانين الجنسيين، ونجت من القتل، فهي لن تنجو من البقاء طويلاً في مصحات العلاج النفسي.

- ولأن الله يحبك، فقد أعادك إلينا سليمة معافاة كما كنت قبل المحنة.

ما أثقل المناسبات التي يتحول فيها كلامنا إلى وعظ وإنشاء. كنت أعرف أن ساندرا لم تعد ساندرا التي عرفتها وعاشرتها. إن شيئاً فيها أصابه الذبول والانطفاء، ولن يعود إلى الاشتعال مرة أخرى. لو أن ما أصابها جاء نتيجة حادث

من حوادث الطرقات، فإنه حتى لو أبقاها قعيدة مدى العمر، لن يصيب بالعطب روحها وإرادتها. ولكن ما حدث لها يحمل دلالة أشد قسوة من الحوادث الأخرى. امرأة تقبل على الدنيا بقلب مفتوح، تحتضن الكون الشاسع بسمائه ونجومه وكائناته، تضع ثقتها فيه، وتمنح نفسها له. تهزأ بما يقيمه الناس من أسوار وتحصينات، وتأبى إلا أن تتجاوزها، لكى تنطلق بهدى من نسغ الحرية الذى يجرى فى عروقها، فإذا بشىء فى قلوب البشر يخونها، ويخون نظرتها الصافية للحياة. يقول لها بلغة جارحة كحد السكين، سوداء كقلب الغابة، بأنه لا يجوز لها أن تتعامل بصدق السريرة، وعفوية الإرادة الحرة، أو تهجر السير مع القطيع عبر الدروب التى صنعها التقليد والتكرار ووصايا أسلافنا الموتى.

سألتها مداعباً لماذا أخفت عنى انتماءها لأسرة عريقة، غنية، مثل أسرتها، وضللتنى بهذه الحياة الفقيرة حتى ظننت أنها ابنة أكثر العائلات فقراً فى الدنيا. ضحكت قائلة بأن كل هذا لا يعنى لها شيئاً، ولا تريد أن تحمل قيمة تستعيرها من ثراء أسرتها، وتكون بديلاً عن قيمتها الحقيقية. إنها ليست نادمة لأنها تخاصمت مع أهلها. وعاشت أكثر من عامين

ونصف بعيداً عنهم. فقد كان ذلك ضرورياً لاختبار قــدرتها على مواجهة الحياة خارج هذه المظلة.

ظننت أن ظهور ساندرا سوف ينعش روحى، ويبــدد مناخ الوحشة الذى أحاط بى أثناء غيبتها. ولكننى خرجت من لقائها أكثر حزناً وضيقاً بنفسى وبالدنيا. كم هو ضعيف هــذا الكائن الذى اسمه الإنسان، هــذه الكتلــة مــن الأعصــاب والمشاعر والأوعية الدموية، والتى تبدو أحياناً قويــة تملــك مفاتيح الكون. ما أسهل ما يصيبها العطب وتتحــول فجــأة وبرغم ما فيها من نبض وحياة، إلى حزمة مــن الأحطــاب الجافة.

أبلغتنى أنهم يريدون السفر بها إلى الخارج ويقترحون عليها منتزهات كثيرة تصلح للراحة والاستشفاء، وهــى مــا تزال حائرة لم تختر مكاناً تذهب إليه. لم أكن وأنا أسمع هذا الكلام أحس بأى انقباض لأنها ستسافر ولن أراها بعد ذلــك. كنت قد وطنت العزم على فراقها، وأدركت منــذ أن قــرأت أخبار العائلة التى تنتمى إليها، أن طريقى بات يختلف عــن طريقها، حتى وإن لم يختلفا، فإن علاقتنا لم تكن منذ البدايــة سوى رحلة لمسافة قصيرة. فما كانت هى امرأة للارتباطات

الطويلة، وما كنت أنا إلا عابر سبيل، سيواصل المسير بعد أن يستريح قليلاً فى ظل هذه القلعة العتيقة. جاء الفراق مبكراً. أكثر تبكيراً مما كنا نريد. وبطريقة عنيفة لم نكن نتوقعها، ولكن للحياة حقائقها التى لا سبيل إلى الفرار منها، ولها منطقها الذى لا يتطابق دائماً مع منطق الرغبات الحميمة وأشواق القلوب العاشقة. ما كان يمكن أن توافق ساندرا على هذا الكلام. أما الآن وقد التقت وجهاً لوجه بأكثر حقائق الحياة هولاً ورعباً، لا أراها تستطيع أن تجادل أو تعارض. ستقبل بهذا القول، كما قبلت بالعودة إلى أسرتها التى تمردت ذات يوم على سلطتها، ورفضت بقوة وعناد، القيم التى تعيش عليها.

خرجت معها نبحث عن سيارة أجرة، فوجدتها تتلفت فى ذعر، وكأن أحد الذين يعبرون الطريق سوف يهاجمها. تمنيت أن تكون هذه الحالة مجرد خوف طارئ وليست عاهة نفسية تبقى مدى العمر معها. أقلتنا السيارة إلى ضواحى المدينة حيث انتصب قصر والدها فوق أرض مرتفعة، تحيط به الحدائق. وقفت أمام القصر أعانقها، وأتبادل فى نهاية العناق قبلة سريعة معها. وفى صمت ودون أن تلتفت، ذهبت

ساندرا باتجاه البوابة الحديدية الكبيرة. راقبتها حتى اختفت. واندفعت عائداً إلى السيارة، أسأل سائقها أن يمضى بأقصى ما يستطيع من سرعة، لأننى أهملت موعداً شديد الأهمية. لم أكن أهملت شيئاً. ولكننى وجدت أن تقهقر الأبنية والأشجار والأعمدة وجموع الناس الواقفين أمام المحطات، وتراجع هذه المشاهد، واختفاءها السريع عند اندفاع السيارة، يبعث فى نفسى خواطر تريحنى عندما أقارنها بدورة الزمن والتحولات التى تطرأ على حياة البشر.

ها قد اختفت ساندرا ولا أعتقد أننى سأراها بعد اليوم. لا شك أن العالم لن يكون على صورته الأولى. سوف تغدو النجوم أكثر شحوباً، والورود أقل أريجاً، والليل أكثر قسوة، والشبح الذى خرج باكياً مطروداً من غرفتى، سوف يعود لإحياء لياليه الموحشة. ولكن من يصاحب شهر زاد جدير بأن يجد بعض العزاء. لأصرف وقتى كله لها، ولأرافقها بأكثر مما رافقها شهريار فى لياليها. إننى أمنحها ليلى ونهارى. ولا أجلس مثله صامتاً، وإنما أناقشها وأحاول أن أعرف المعانى الخفية التى تخبئها وراء المعانى الظاهرة. بعد أسابيع قليلة أكون قد أمضيت معها ألف ليلة وليلة،

ولعلنى أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه الفكرة المضحكة التى طرأت على ذهنى، وهو أن أضع النقطة الأخيرة فى بحثى أثناء اليوم الواحد بعد الألف من مباشرتى العمل فى هذه الرسالة. لم يكن ذلك اليوم بعيداً. أو لعلنى غالطت فى الحساب قليلاً، فجعلته قريباً. لأننى فعلاً أريد أن أنتهى من هذه المهمة. ولم أكن أحتاج إلا إلى كتابة الخلاصات. وبهمة من أراد أن يزيح من فوق ظهره حملاً، أرهقه طويلاً، كتبت الفصل الأخير، وأقفلته بتلك العبارة التى طالما سمعت الأستاذ يرددها عن عبقرية الخيال عند العرب وتجلياته الباهرة فى حكايات ألف ليلة وليلة وما صنعته من تأثير فى آداب الأمم الأخرى.

ذهبت إلى الأستاذ الذى وضع نظارة القراءة فوق عينيه، وقلم الرصاص بين أصابعه، وقرأ البحث بصوته الجهورى الذى أحس به يمنح أسلوبى فخامة لا يستحقها، مصححاً ما يصادفه من أخطاء فى اللغة، واكتفى بعد أن فرغ من القراءة، بأن وضع إشارة »صح«، وهى إشارة لا يضعها إلا عندما يكون راضياً عما قرأ. وراضياً عن نفسى خرجت من غرفته عائداً إلى دارى، أجمع البحث فى إضبارة واحدة،

وأراجع الهوامش، لأنقل عنها ثبتاً بالمراجع والمصادر. فرغت من إعداد صفحات العناوين والإهداء، وذهبت في صباح اليوم التالى إلى دكانة الطباعة السريعة، أحمل إلى صاحبها هذه الكومة من الأوراق، وأعهد إليه بطباعتها ونسخها وتجليدها. وخرجت من عتمة الدكانة وضجيج آلاتها ورائحة الحبر والأصباغ والنشاء، أرفع وجهى إلى السماء، استقبل تدفق الضوء والهواء فى صدرى الذى كان يختنق ممتلئاً بهذه الأوراق.

إنه اليوم الثانى بعد الألف. أبت شهرزاد أن تعتقنى إلا فى اليوم الذى حققت فيه انعتاقها.

بدت الشوارع أكثر اتساعاً، والسماء أكثر صفاء، والأشجار أكثر شموخاً ونبلاً. عاد العالم مضيئاً، عامراً بالهواء النظيف. أراه بعيون جديدة، وكأننى خرجت لتوى من نفق مظلم تحت الأرض. عبء ثقيل أزحته عن صدرى. إنه اليوم الأول الذى أرى فيه هذه المدينة، دون أن تكون هذه الرسالة تطاردنى. دائما ورائى. فى لحظات النوم واليقظة، الصحو والسكر، أتجول فى الشوارع أو أتسكع بين الحانات والمراقص. أسمع دقاتها الرتيبة التى تتواتر بانتظام فى مكان

ما خلف رأسى. تستحثنى أن أترك ما أنا فيه وأذهب إليها. قد أهمل الدراسة شهراً أو شهرين، ولكن موضوع الدراسة لا يغادر ذهنى لحظة واحدة يذكرنى بتقصيرى فى حقه، ويطالبنى بأن أكرس حياتى له وحده. فمن أجل هذا البحث جئت. ومن أجله أقيم فى هذه المدينة، وباسمه أتقاضى منحة كل شهر. فهو سيدى ومولاى، وصاحب نعمتى الذى يجب أن أنصرف لعبادته آناء الليل وأطراف النهار.

تحررت الآن منه.

أستطيع أن أتسكع فى الشوارع كما أشاء. أشرب ما طاب لى الشراب. أعبث وألهو وأرقص وأنام وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف وأتجول فى الأسواق، دون أن أسمع تلك المطرقة تدق خلف رأسى قائلة: الرسالة، الرسالة، الرسالة.

لقد انتهت الرسالة.

مشيت فى الشوارع دون أن أحدد هدفاً أذهب إليه. مستمتعاً بانعتاقى، مستجيباً لذلك النداء الذى يطالبنى بأن أقف متأملاً كل بناء، وكل تمثال، وكل شجرة تصادفنى فى الطريق، وكأننى لم أكن عائشاً فى هذه المدينة. كأننى لم

أصل إليها إلا هذه اللحظة. إنها لأول مرة أشاهد فيها هذه المعالم متحرراً من تلك العصابة التى تحجب الرؤية، وإلا كيف لم أكن أعرف أن هذا التمثال للروائى والتر سكوت، والثانى للشاعر بيرنز. كنت أمر بهما دون أن أراهما، مثل كل شيء آخر. حتى واجهات المتاجر كنت أخطف النظر إليها خطفاً، وأدخل لأشترى حاجتى على عجل، أملاً فى توفير ساعة أصرفها لبحث. أستطيع الآن أن أقف أمام هذه المتاجر، وأتفحص معروضاتها، وأختار أكثرها كساداً لأدخل إليه وأثرثر فى مواضيع تافهة مع البائعات وكأننى أملك كل الوقت فى الدنيا.

كان شعوراً مثيراً ذلك الشعور الذى صحوت به فى اليوم التالى. اختفت تلك الأكوام من الورق التى تتكدس بجوار رأسى، وكأنها رعب يومى يطاردنى. لأول مرة أصحو خلال إقامتى فى هذه المدينة وأنا أحس ببهجة أن يصحو الإنسان وأمامه يوم خال من أية ارتباطات أو مسؤولية، مستمتعاً بفكرة النهار المفتوح الذى لا يطالبنى بشيء. لا بحث يريد رطلاً من لحمى، ولا شهرزاد تنادينى

كى أفتح كتابها، وأصرف وقتى مع سكان عالمها المصنوعين من الأوهام والخرافات.

صار الدخول إلى المكتبة، هذا الطقس اليومى، الـــذى فقد مع التكرار بهجته، شيئاً مثيراً هذه المرة. لأننـــى أدخـــل المكتبة الآن لإرضاء نفسى لا لإرضاء الرسالة، وأبحث عن الكتب التى أحبها، لا تلك التى تحبها الرســـالة. أســـتطيع أن اقرأ ما أشاء، وأتنقل بين أقسام المكتبة مثلما أريـــد، دون أن أحس بالحرج لأننى أهدر وقتاً ثميناً ليس من حقى وإنما مـــن حق الرسالة.

انتهت طباعة الرسالة، ودفعت إلى الجامعـــة بالنســـخ التى تريدها، وتم تحديد موعد المناقشة بعد شهر من تسليمها. انحسرت موجة الإثارة التى جـــاءت تـــركض مـــع إنجـــاز الرسالة، وأطلت تلك الجزر الصخرية الموحشة التى كانـــت تختفى خلفها. أصبح الوقت أثناء النهار يمضى بطيئاً، والليل فى تلك الغرفة التى تغطى جدرانها لوحات العبـــث، أكثـــر وجعاً بسبب ما يوقظه من ذكريات. رفعت عنـــى شـــهرزاد وصايتها، وسحبت الرداء الذى نشرته فوق أيامى، وها أنـــا أتسكع تحت سماء خالية من ذلك النجم الـــذى كـــان يوقـــد

خطاى. تنهمر على قلبى ذكريات أماكن وأحــداث وكائنــات كانت مغمورة تحت ركام الحكايات والوقــائع الأســطورية. يملأ رأسى ضجيج الأصوات المتداخلة المتعددة التى تطالبنى بالولاء. ليندا تظهر الآن، يوقظ الفراغ ذكرها، فتفتح شــرفة بعيدة، وتنشر كساحرات المعابد القديمة، عبيرها المصــنوع من أعشاب الصحراء، تناديني. أنجبت منذ ستة أشهر طفلها الذى يجب أن يكون طفلى أنا أيضاً. فهى الأجدر بأن أمــنح ولائى لها ولذكرى العلاقة التى أثمرت ولداً. ولكن ســاندرا تشرق فى سمائى كإلهة الأساطير، تحمل فى يدها حفنة مــن النجوم. امرأة أغنت حياتى بحبها الذى لا يشبه قصص الحب الأخرى، وأضاءت بعض ليالى العمر بنجومها الســاطعات. بسطت لى جناحيها، وحملتنى فى سياحات إلى عــوالم مــن الفرح لا أحد يعرفها إلا هى. ولن تســتطيع الفواجــع التــى سرقتها منى، أن تسرق ما التصق بجسدى من بقايا ضــوئها وعبير مسكها الليلى. سأعود بعد أيام إلى بلدى، ولكن هــذه المدينة التى أدفأتنى بنار مواقــدها، وأســقتنى مــن جميــل شرابها، وأدخلتنى كواحد من صغارها، إلى دوائــر عطفهــا وحنانها، ماذا أقول لها الآن، وقد جاءت ساعة الفراق، وحان

أن أعود إلى وطن يشدنى إليه ذلك الحبل السرى الذى يمتد بين لحظتى الميلاد والموت.

وبطيئاً مضى الشهر، وجاء موعد مناقشة الرسالة وانقضى. وأقمنا فى ذات اليوم حفل عشاء للممتحنين فى بيت عدنان، حيث استمعت لأول مرة إلى اسمى مقروناً بلقب »الدكتور«، الذى صار عدنان وزوجته ينادياننى به مداعبة، واحتفالاً بالدرجة العلمية التى نلتها هذا اليوم.

واستيقظت صباحاً لاكتشف أنه لم يبق أمامى إلا أن أحزم كتبى وأمتعتى، وأحجز مقعداً فى الطائرة التى ستعيدنى إلى بلدى. أصابنى ذعر لا أدرى من أين جاء، أو لماذا يأتى الآن ويهاجمنى بهذه المباغتة، وكأننى لا أعرف أن حياتى هذه ليست إلا جملة اعتراضية بين شرطتين. أو كأننى أكره الرجوع إلى موطن أهلى. فأنا لا أكره ذلك، بل إننى أشتاق إلى أن أرى كل شجرة نخل تغرس رأسها فى الأفق المضيء. أن ما أحس به من ذعر وفجيعة إنما يأتى نتيجة هذه القسوة التى تتقطع بها خيوط الوشائج والعلاقات الحميمة. بطاقة صعود إلى الطائرة، وإذا بعالم وبشر وعواطف وأشواق، تغمرها مياه الطوفان، وتختفى فجأة من

فوق الأرض. بسرعة ينتهى كل شىء وكأنـه لـم يكـن إلا وهماً. وكأن هؤلاء البشر الذين عرفنـاهم، وتآلفنـا معهـم، وأصبحوا جزءاً من حياتنا، قد داهمهم على حين بغتة، وفـى مرة واحدة، موت فجائى. وإلا ما هو الموت، إن لم يكن هذه الحدة الموجعة التى تقطع ما تواصل بيننا من علاقات. هـذا الخاطر الذى يربط الفراق بالموت، هو الذى أفزعنى، وأيقظ الزاوبع السوداء فى رأسى. كنت قد صحوت مبكـراً علـى صوت الرجل الذى يأتى بالحليب إلى باب غرفتى. إنه رجل تتحول اللغة على لسانه إلى ألغاز. أجهدت نفسى طويلاً لكى أفهمه، إلى أن صرت سعيداً بقدرتى على اسـتيعاب كلماتـه المغموسة فى طين وتراب اسكتلندا. إننى أدرك الآن، إلى أى مدى سيكون محزناً أن أفارقه، وأفارق هذه العـادة الجميلـة التى تجعل الحليب يأتى كل صباح إلى باب الدار.

أخذت أول سيارة أجرة تصادفنى، وذهبت إلى عـدنان أوقظه من نومه. سألنى بلهفة عما جاء بى فى هذه السـاعة المبكرة، فقلت بسرعة لكى أمحو القلق المرتسم خطوطاً على جبينه:

– أريد أن تذهب معى، أنت وزوجتك، إلى ليندا الآن. لن أترك هذه المدنية إلا وهى بصحبتى.

لأمر ما تصورت بأننى لن أقهر هذا الاحساس بالذعر إلا إذا ذهبت إلى ليندا، وأقنعتها بأن تقبل بى زوجاً، وترافقنى فى رحلة العودة إلى وطنى، متوسلاً بهذا الطفل الذى بيننا، والذى يمنح لهذا الارتباط مبرراً أكثر قوة من مجرد استرجاع علاقة حب قديمة. سوف يرضى رحيلها معى كل هذه الولاءات التى تتنازعنى، ويطرد من قلبى ذلك الخاطر الذى يربط الفراق بالموت. لن يكون الفراق موتاً عندما تكون ليندا معى، وإنما رحلة يتجدد بعدها التواصل واللقاء. ستكون ليندا مندوباً عن كل هؤلاء البشر الذين عاشرتهم، وعن كل هذه الأماكن التى تآلفت معها. إننى ما زلت أحبها. وأعرف على وجه اليقين، أن الأيام لن تتيح لى بعد الآن امرأة أتزوجها غيرها.

أبدى عدنان اندهاشه لأننى أعلنت حالة الطوارئ من أجل موضوع لا يستوجب الاستعجال، بقدر ما يتطلب التأنى فى التفكير والمعالجة. أقنعنى بأن نذهب إليها بعد ترتيب موعد معها وشراء هدية لصغيرها، واقترحت زوجته، التى

جاءت تشاركنا الحديث، بأن نرسل لها سطراً نخبرها فيه بأننا سنزورها يوم الأحد القادم. خرجت من بيتهما فوجدت فى دكانة تبيع التحف، قلادة ذهبية تحمل قرصاً رسمت فوقه صورة ملاك يحمل كتاباً. رأيت أنها تليق بحفيد رجل كان يخدم رسالة السماء، فاشتريتها له. فكرت كثيراً قبل أن أغادر بيت عدنان فيما إذا كان مفيداً أن أخبره بحقيقة أننى والد الطفل. سأسأله أن يحفظ هذا السر، الذى لا أقوله له إلا لكى يفهم دوافعى، فلا يتهاون فى معاونتى. تواعدت معه على لقاء فى المكتبة، وعندما جاء قلت له:

– لا تندهش إذا أخبرتك أن ما يربطنى بليندا أكثر من مجرد الحب. إنها أم ابنى.

– هل أنت واثق من ذلك؟

– هذا ما تعرفه ليندا. ويعرفه أيضاً دونالد الذى سيحمل الطفل اسمه. راجياً ألا تخبر بذلك أحداً.

– هذا إذن ما يدفعك إلى. ..

قلت مقاطعاً:

– ليس هذا فقط. إن أكثر ما يدفعنى إلى الارتباط بها، هو أننى أرغب فى الاستقرار مع امرأة أعرفها وأحبها.

قلت ذلك دون أن أتفحص مشاعرى، لأرى إن كان ما أحمله لها حباً، أم مجرد حنين إلى أيام العشق التى عشتها معها. أدرك جيداً أن فورة العواطف فى تأججها واندفاعها قد انحسرت الآن. ومهما كان هذا الحب هادئاً، خالياً من توقده القديم، فهو أفضل من مواجهة المصير الذى ينتظرنى عندما أعود باحثاً عن زوجة قد لا أستطيع رؤيتها قبل الزواج.

قلت أنقل قلقى لعدنان:

- لا أريد أن أعود إلى طرابلس، فأرسل عجائز العائلة يبحثن عن امرأة يزوجنها لى.

انتظرت مجىء يوم الأحد، وخرجت مبكراً ألتقى بعدنان وزوجته عند موقف الحافلة التى أقلتنا إلى بيت ليندا.

ما أن وصلت إلى غرفة الاستقبال، ورأيت الطفل جالساً فى عربته، حتى اتجهت إليه، أرفعه بين يدى قائلاً:

- ما أجمل هذا الصغير!.

لم أكن أقول ذلك مبالغة فى الإعجاب به، أو إظهاراً لعواطف أحوز بها رضا الأم. كان الطفل جميلاً. استعار من ليندا لون عينيها. أما الشعر الذى بدا أجعد، يميل إلى السواد، فهو شعرى. وإن صبغت ليندا سواده بشىء من الاحمرار،

فصار كأنه مدهون بالحناء. أما الجبين واتساع المنطقة بين الحاجبين، فهما ينتميان لوالدى. أخذ من أمه لون بشرتها الوردية، وأضاف إليها شيئاً من سمرتى، فصار كمن سبح فى البحر، ثم أستلقى طويلاً يمتص رحيق الشمس. كنت أظن بأننى لن أرى سوى قطعة لحم لن أتعاطف معها، وها أنا أشهد خطأ ذلك الظن. فقد صنعت الأشهر التى مضت، من قطعة اللحم، كأئناً بديعاً. وهذا الكائن البديع هو ابنى، الذى أحبه الآن بمثل ما يحب الأب ابنه.

أخرجت من جيبى القلادة وعلقتها فى عنقه، سائلاً جده الإمام أن يباركه ويرعى خطاه. ووضعت أنار بين يديه دمية صار يلهو بها. فى حين جاءت أمه تحمل الشاى وتبلغنا تحية والديها اللذين ذهبا لحضور قداس الأحد. سألتها عن اسم الطفل فقالت أنه »آدم«. ناديت الطفل بهذا الاسم فأدار وجهه نحوى. لا أعرف اسماً يليق به أفضل من هذا الاسم الذى احتوى كل الأسماء، وزواج بين كل الثقافات. تفاءلت خيراً باسم الصغير، وأيقنت أنها اختارته له، مراعاة لصلة الدم التى تربطه بى. ولكن التفاؤل الذى أحسست به، بددته كلمات

ليندا التى ردت بها على عرض الـزواج. انتقـت كلماتهـا بعناية، فجاءت قاطعة، حاسمة، ترفض الفكرة.

- لا أريد أن أخدعه، ولا أريد أن أخدع نفسـى. لـن أعده بسعادة لا أستطيع تحقيقها له، وليس بإمكانه أن يعـدنى بسعادة لن "أجدها بعيداً عن هؤلاء الأهل وهذه البلاد.

أرادت أنار أن تكون نافعة لى، فقالت:

- تعرفين أن خليلاً يحبك يا ليندا. وحبه مبرر كـاف لأن تمنحى الموضوع فرصة أفضل للتفكير.

- إنه يأتى خاطباً ليندا التى كان يعرفهـا منـذ عـام مضى. ولكن ليندا تغيرت كثيراً منذ ذلك الوقت. إننى أرحب به صديقاً لا أحمل له إلا الود والاحترام. أما الزواج فإننى لا أفكر فيه الآن.

بقيت صامتاً لا أشارك فـى الحـديث إلا بالاسـتماع والانتظار. إننى لا أستطيع أن أتوسل إليها باسم الطفل، أمام هذين الصديقين. ثم لماذا ألجأ إلى الابتزاز العاطفى من أجل علاقة يجب أن تنشأ بدافع الحب والإرادة الحرة. لقد انتهـى ذلك الحب الذى كان يسوقها كما تسوق الريح غمامة عطـر، حتى تصعد إلى غرفتى وتهجع فى سريرى. أعرف أننى لـم

أفطم نفسي عن حبها، ولكنني لم أشعر بالغضب وأنا أسمع رفضها. وأحس بالإثم لأنني جئت أسوق عليها أصدقاءها، أحرجها، وأضعها في هذا الموقف الذي يجلب الكدر. إنني وأنا أنظر إليها، متأملاً رقة وصفاء أصابعها الممسكة بفنجان الشاي، أشعر بالخجل لأنني جئت أسألها أن تحمل عبئاً أعرف انها لن تطيقه. كنت سأظلمها كثيراً لو اقتلعت هذه النبتة الاسكتلندية من أرضها ومناخها وبيئتها وأخذتها إلى بيئة ومناخ غريبين عنها. إنني ابن الرياح الساخنة، والشمس الدائمة السطوع والالتهاب، والصحراء التي تكره النبيذ وقاعات الرقص. ابن تلك الطبيعة وعناصرها، التي أعدتني لاحتمال قسوتها. ولكن بأي حق أسأل هذه المرأة أن تتخلى عن كل شروط حياتها، وتلحق بي لتحيا تحت شروط المجتمع الصحراوي وتقاليده.

رأيت عدنان يهم بالكلام، فسبقته إلى الحديث:

– لا داعي لإطالة عمر هذه اللحظات المحرجة. إنني أحترم رأيها، وأقبل ردها عن طيب خاطر. سأسافر يوم الأحد القادم، وأريد أن أسأل ليندا طلباً واحداً قبل رحيلي.

حسبت ليندا بأن ما سأقوله يتعلق بالطفل الذى يجلس فوق حجرها، فوضعت ذراعيها حوله، وضمته إلى صدرها.

- كل ما أريده منها الآن هو أن تمنحنى وعداً، بأن تحضر حفل الوداع الذى سأقيمه لأصدقائى يوم السبت القادم.

أطلق عدنان ضحكة صاخبة قبل أن يقول:

- ظننت بأنك ستهدد بإشعال ثورة فى هذه البلاد، فإذا بك تخذلنى وتتنازل بهذه السرعة.

تبدد جو التوتر الذى كان يسود جلستنا. كنا جميعاً نجلس على أطراف مقاعدنا، ونمد رؤوسنا ترقباً وانتظاراً. أسند الجميع ظهورهم إلى المقاعد، وغمر الارتياح وجههم بعد أن رأونى أشاركهم الضحك وكأننى لم أخذل فى مطلب كان منذ لحظات هو أغلى الأمنيات.

قررت بأنه إذا كان الفراق موتاً لم أستطع هزيمته بالزواج من ليندا، فلأهزمه بأن أحوله إلى فرح. فرح من أجل الفرح، وحفل لوجه الاحتفال وحده. سأدعو إليه مع الأستاذة والطلاب الذين أعرفهم، موزع الحليب، وعامل التنظيفات فى بيتنا الطلابى، والقائمات بإعداد الشاى فى مقصف المكتبة، والرجل العجوز الذى يدمن الشراب ويتعهد

الموقد الكبير فى حانة العناقيد بالأحطاب. سأكترى قاعة بنادى الطلاب، وأدعو جميع هؤلاء الناس إلى ليلة رقص طرب وشراب، تمتد حتى الصباح، وفاء لكل اللحظات التى عشتها معهم. وسأخرج مباشرة لألتحق بطائرتى، حاملاً معى فرحة هذا الحفل، كآخر ما احتفظ به فى ذاكرتى. ولذلك فإن ليندا لا بد أن تكون هناك، لكى لا تبقى الصورة ناقصة.

جاء موعد ذهابنا، وخرجت ليندا أمام البيت لوداعنا، حاملة »آدم« بين ذراعيها. كان النهار صحواً، والسهول تمتد فسيحة أمام البيت، يغسلها الضوء، وتحف بها أشجار السنديان، ويشق الأفق الذى خلفها، سرب من الطيور، قادماً باتجاهنا. أخذت منها الطفل وتقدمت به عدة خطوات إلى الأمام. رفعته إلى أعلى، وكأننى أريد للشمس أن تراه، ولكائنات السماء أن تباركه، ولهذه السهوب، ذات الاخضرار المضىء، أن تمنحه صداقتها، ولأشجار السنديان، ذات العراقة والكبرياء، أن تحيط طفولته بحنانها، ولهذه الطيور التى تضرب الهواء بأجنحتها أن تملأ حياته ببهجة غنائها. رأيت فيه صورتى، فأدركت فى تلك اللحظة، أننى كنت مخطئاً عندما فكرت فى الفراق، أن شيئاً عميقاً فى نفسى كان

يعلم منذ البداية، بأننى سأواجه هذه اللحظة. وأراد أن يجنبنى هذه المحنة. فسرق ذات ليلة بهيجة، بعض ملامحى، وحفنة من دمى، وقطعة من قلبى، وصنع منها طفلاً. ولذلك فأننى لن أفارق هذه البلاد. لا لن أفارقها. إننى أسافر بجزء من نفسى، وأترك لديها الجزء الأجمل والأكثر بهاء ونقاء. ها هو يحمل جبين أبى. كان جبين والدى أجمل ما فيه. جبين لم يلوثه غبار المذلة والسؤال. فلتحفظ أيها الصغير لجدك جبينه مضيئاً، جميلاً، ولتجعله سبيلك إلى حياة يزينها الكبرياء، حياة تليق ببهائك. وها هو الملاك الذى يحمل كتاباً، فوق صدرك. لقد كان الكتاب الذى احتواه صدر جدى الامام، هو الجزء الأجمل منه، الجزء الذى أشع بالخير والمحبة. فلتكن هذه القلادة المباركة، تميمة تحفظك وترعاك وأنت تدرج فوق هذه السهوب. وأنت أيتها الوهاد والينابيع والحقول وأشجار السرو والدردار والسنديان، أنت أيتها المداخن والقباب والطرقات التى تحفر الصخر وتتسلق الجبال. هاهم أسلافى يتركون هذا الطفل، هذا الجزء الجميل من نفوسهم، وديعة لديك، ليتربى وينمو بين ذراعيك. فلتكونى رفيقة له، حانية عليه. إذا عصفت الرياح شديدة عاتية، فليكن قرميد بيوتك

الحمراء ذرعاً يقيه انهمار سهام الريح. وإذا جاء الشتاء عنيفاً ببرده وثلوجه، فلتدفئ قلبه الصغير بحنان مواقدك. وإذا أظلم الليل قاسياً، داكن السواد، فلتقيه وجع الليل بدثار من الأغانى التى تعيها ذاكرة حقولك ودروبك، سوف لن أقول وداعاً أيها الأصدقاء والأحبة، لأننى وأنا أرحل عنكم، فإن جزءاً حميماً من نفسى، سيبقى معكم. به تتجدد علاقتنا، وتتجدد صداقتنا، على مدى الزمن، على مدى الزمن.